صفحات من تاريخ مصر
(٢)

تاريخ مصر

إلى الفتح العثمانى

مع نبذ في أخبار الأمم التى ارتبطت بمصر الى ذلك

تأليف
عمر الاسكندري و أ.ج. سفدج

مكتبة مدبولي
القاهرة

تاريخ مصر

إلى الفتح العثمانى

الطبعة الثانية

١٤١٦هـ - ١٩٩٦م

الناشر

مكتبة مدبولى

ميدان طلعت حرب بالقاهرة - ج م ع

تليفون ٥٧٥٦٤٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله جاعل الأوَّلين سَلَفاً ومثلاً للآخِرين ، والصلاة والسلام على محمد وآله هُدَاة المصلحين . وبعد فهذا كتاب وجيز يتضمن تاريخ مصر من أقدم عصورها المعروفة الى فتح العثمانيين لها سنة ٩٢٣ هـ (١٥١٧م) . واذ كانت البلاد المصرية لا تكاد تضارعها بلاد فى طول تاريخها المُفْعَم بالحوادث ، لم يعُد فى امكان امرئ ان يدوّن فى مثل هذا الكتاب الصغير تاريخاً لمصر فى مدة لا تقل عن خمسة آلاف سنة الا مُجْمَلاً ، فكيف به اذا أودع خلاله نُبَذاً فى أخبار الأمم المرتبطة الشؤون بمصر — من فينيقيّين وفُرْس وإغريق ومَقْدونيّين ورُومان وعرب — لتوضيح التاريخ المصرى الذى هو المقصد المراد . وإنّ وضع الكتاب على هذا النمط يطابق منهاج دراسة التاريخ لتلاميذ السنة الأولى من المدارس الثانوية المصرية ، وإنْ كان بمزاياه العديدة يبعث على الأمل بأن يصادف قبول غيرهم من القرّاء

اما المصادر التى استقى منها الكتاب فهى صحاح كتب التاريخ المعتبرة ، عربية وفرنجية مثل : تاريخ قدماء المصريين للأستاذ بِرِسْتِد ، وتاريخ الفراعنة لبرُوكش ، وبعض مؤلفات بِتْرى ومَسْبِرُو ، ثم تاريخ دولة البطالسة تأليف مَهَفّى ، ومثله تأليف بَدْج ، ثم تاريخ مصر فى عهد الرومان تأليف مِلْن ، ثم تاريخ الطَّبَرى ، وتاريخ ابن الأثير ، وتاريخ أبى الفِداء ، وحسن المحاضَرة للسُّيُوطى ، وفتح مصر والاسكندرية تأليف بَتْلَر ، وتاريخ مصر فى القرون الوسطى تأليف ستانْلِى لينْبُول ، وخِطَط المَقْريزى ، وتاريخ ابن إياس ، وغيرها

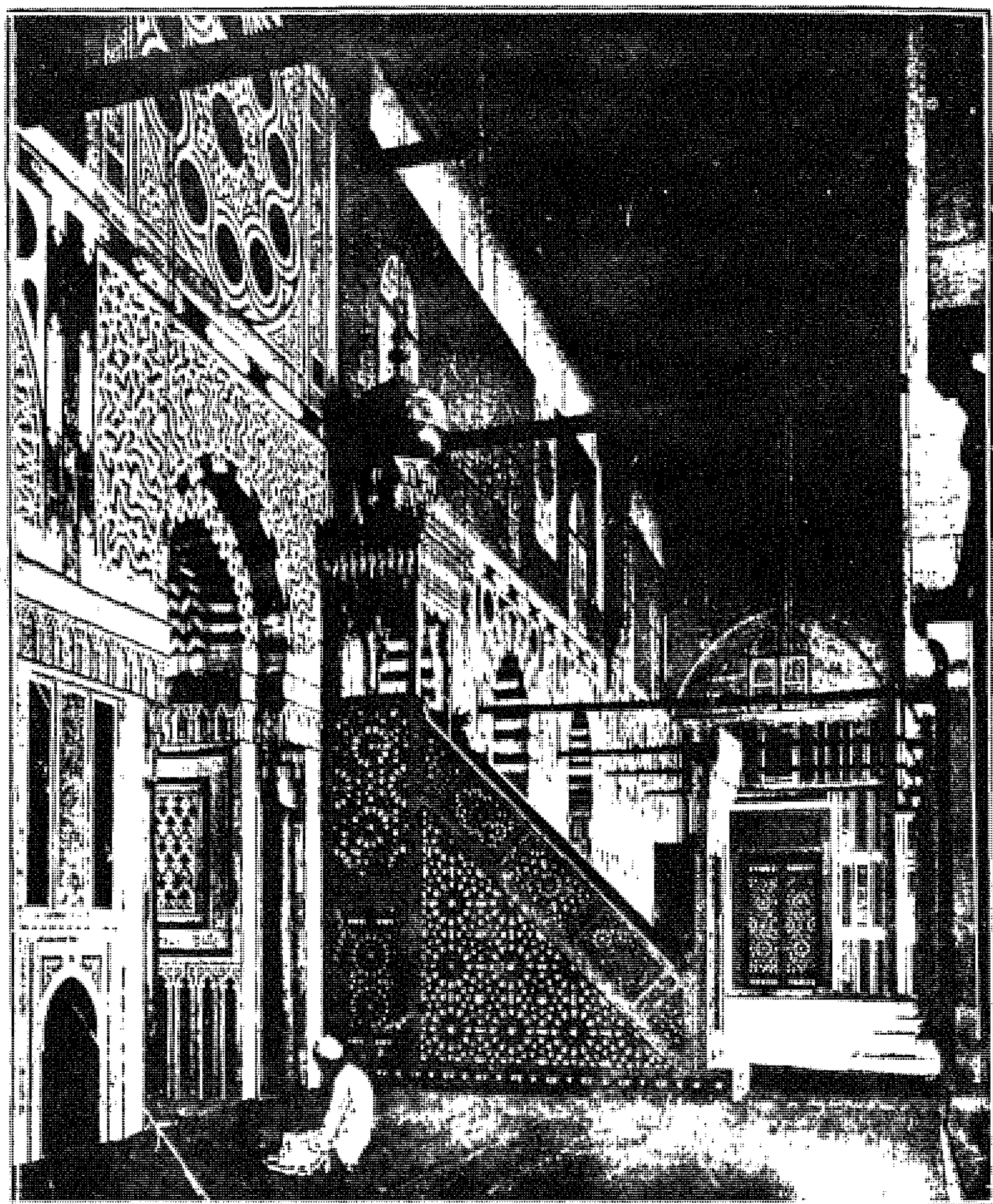
هذا وإنّ الشكر الخالص لمن كان لهم آثار مساعدة فى هذا الكتاب ، من حضرات اصحاب الرسوم المنشورة فيه ، وحضرة صاحب العزة العالم المفضال اسماعيل رأفت بك

وهذا الكتاب يُعتبر كجزء اول لثان متمّم له يحتوى تاريخ مصر من الفتح العثمانى الى الوقت الحاضر ، وسينتهى قريباً ان شاء الله تعالى

وحرر بالقاهرة فى ١٤ شوال سنة ١٣٣٣ هـ — ٢٥ أغسطس سنة ١٩١٥ م

فهرست

كتاب تاريخ مصر الى الفتح العثمانى



داخل جامع المؤيد (رسم ا. ﻫ. بيار)

الباب الأوّل
قدماء المصريين

الفصل الأوّل

مقدمة

المصريون الأولون من أقدم أمم الأرض . وكانت لهم حضارة عظيمة قبل الميلاد المسيحى بآلاف من السنين

ويحسن بنا قبل الكلام عليهم أن نبيّن كيف وصلنا الى معرفة تاريخهم مع تطاوُل العصور بعد انقضاء أيامهم ، وتعاقُب الدهور على انقراض دُوَلهم

﴿ مصادر تاريخ قدماء المصريين ﴾

تاريخ قدماء المصريين كغيرهم من الأمم القديمة مستمدٌّ من مصدرين أصليين :

(١) الآثار القديمة

الأول (وهو أوثقها) آثارهم القديمة وما عليها من الكتابة والنقوش

والثانى ما وَصل الينا مما كتبه الأقدمون فى تاريخهم

فمن الأول يتيسر لنا أن نعرِف كثيراً من حظهم من الحضارة ومَبْلَغهم من العلم

كيفية استنباط التاريخ من الآثار القديمة

فمثلاً مبانيهم الهائلة وما عليها من النقوش البديعة ، تدلنا على مقدار نبوغهم فى فنّي البناء والتصوير . وجثث موتاهم المحنطة الخالدة منذ أزمان سحيقة والأصباغ الثابتة الجميلة التى استعملوها فى تصاويرهم وتهاويلهم ، تدلنا على براعتهم فى علم الكيمياء العملى . على أنهم لم يقصّروا فى تدوين بعض حوادثهم العظيمة ووقائعهم الجسيمة وقصصهم العجيبة وأدعيتهم الغريبة مع بيان عصورها وأسماء الملوك القابضين على أزمّة الملك فى إبّانها . فتراهم كتبوا هذه الحقائق على مبانيهم وآثارهم ، وتراهم أعادوها بعينها على قطع الخزَف وأوراق البَرْديّ التى وصلت الينا من تلك الأيام الغابرة

(٢) ما كتبه القدماء

وأما ثانى المصدرين وهو ما كتبه قدماء المصريين أو معاصروهم فى تاريخ وادى النيل ، فنقول بكل أسف : انهُ لم يصل الينا منه الا النزرُ اليسير ، واكثره يفتقر إلى إثبات ، بحيث لا يجمل بنا الاعتمادُ على شيء منه ما لم يكن قد أيّدته الاستكشافات العديدة ، أو استنبط صحته كبارُ المؤرخين والأثريين

« هيرودوت » المؤرخ الاغريقى

وأقدم الكتابات التى وصلت الينا من تاريخ مصر هو ما كتبهُ المؤرخُ الإغريقيّ « هيرُودُوتُ » فى سنة ٤٥٠ ق . م . ذلك بأنهُ حضر الى مصر ، وكتب تاريخاً لها باللغة الإغْريقية ، فكان وصفهُ للبلاد غايةً فى بابهِ جديراً بالثقة بهِ ، غير أن ما كتبهُ فى التاريخ ذاته على ما بهِ من الإمتاع والتشويق ، غيرُ موثوق بهِ ، إذ كان أكثرهُ مستمَدًّا من الأقاصيص الشائعة على ألسِنَة العامة فى ذلك العصر

كتاب « مانيتون »

وبعد ذلك بنحو مائتى سنة قام كاهن وطنى يُدعَى «مانِيتُونَ» بتأليف

كتاب فى تاريخ مصر كتبه باللغة الإغريقية . وكان ذلك فى عصر «بطليموس فيلادلف» حوالى سنة ٢٦٣ ق . م

ومما يؤسف له أيضا أن معظم هذا الكتاب قد ضاع ، ولم يصل إلينا منه الا ما عنى بنقله وحفظه مؤرخو العصور الأولى بعد الميلاد . ولا يعتمد المؤرخون على ما جاء بهذا الكتاب إلا فى الوقائع التى أثبتوها من المصادر الأخرى . فأهم ما انتفعوا به منه حصره لملوك مصر . وكان يُشك فى ذلك أيضا ، لولا أن الاستكشافات الحديثة أثبتت صحته . وعند كلامه على ذلك بدأ بالملك «مينا» وقسم الملوك الذين من بعده إلى ٣١ أسرة حكمت مدة ٣٥٥٥ سنة

ثم كتب فى تاريخ مصر فى أوائل ظهور المسيحية «ديودور» و «إسترابون» الإغريقيان ، ولكن كلاهما أيضا جاء محتاجا الى برهان

اهمية فك الحروف الهيروغليفية

ولو لم يعرف الناس بعد قراءة النقوش والرسوم التى على تلك الآثار ، لبقيت أبد الدهر قليلة الجدوى فى ارشاد المؤرخين الى الحقيقة . فقد كانت الكتابة الهيروغليفيّة قد نُسيت أيّما نسيان . ولم يكن فى العالم أجمع من يستطيع فك طلاسمها وحلّ رموزها ، الى أن جاء «نابليون بونابرت» الى مصر فى غارته المشهورة ، فعثر أحد ضباطه سنة ١٧٩٩ على الحجر المشهور المسمى بحجر رشيد

حجر رشيد

ويوجد هذا الحجر الآن بين نفائس دار التحف والعاديّات بمدينة لندن . ويحتوى على عبارة مكتوبة بثلاث لغات : أولاها بالهيروغليفية ، وتحتها ترجمتها بالديموتيقية (وهى اللغة المصرية القديمة الدارجة) ، وتحتهما ترجمتها باللغة الإغريقية . فتمكن الباحثون من مقارنة أسماء الأعلام الواقعة

فى العبارتين الهيروغليفية والديموتيقية بنظائرها فى الترجمة الإغريقية . ومن ذلك الحين ابتدأ المؤرخون والأثريون فى اوربا يشتغلون بحلّ رموز الكتابة المصرية القديمة . واستعانوا على ذلك بالآثار الأخرى

وأول من خطا الخطوة الأولى فى ذلك هو «تُومَس يَنج» الانجليزى سنة (١٧٧٣ — ١٨٢٩) ، ولكن الذى يُنسب اليهِ التغلُّب النهائى على هذه الصعوبة هو (فرنْسُوَا شَمْبُلْيُون) الفرنسى . ومن ذلك الوقت الى الآن ازدادت معرفة العالم بتاريخ مصر القديم، ولا سيما فى العشرين سنة الأخيرة

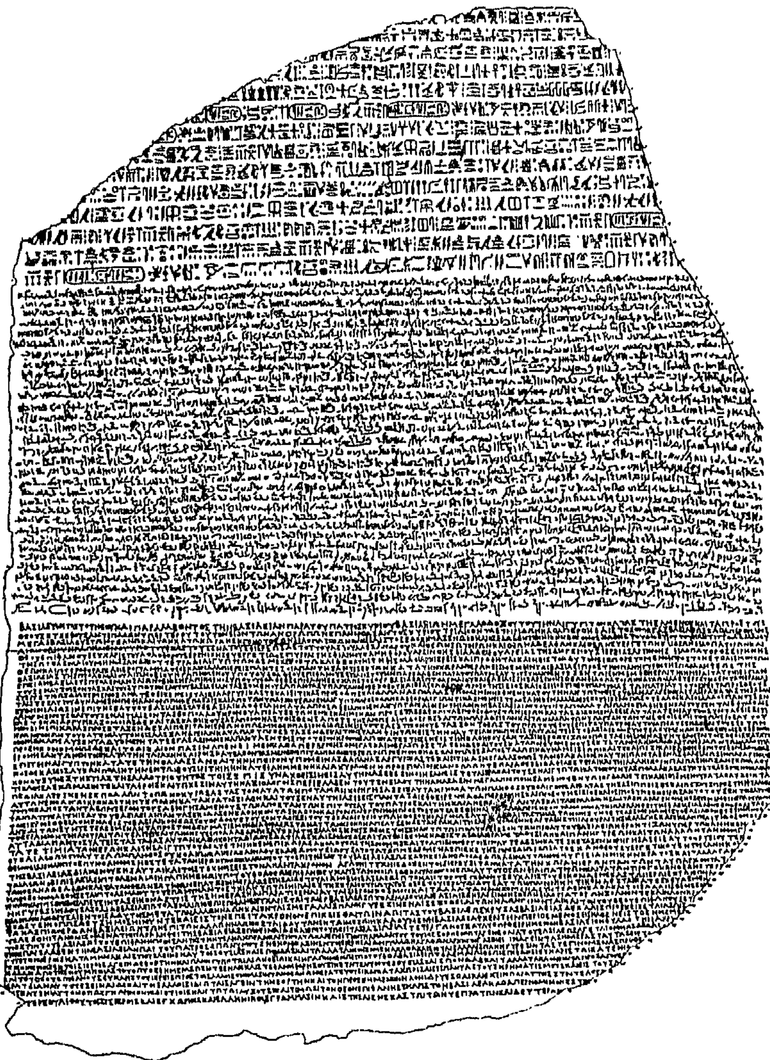
﴿ تمهيد ﴾

ملخص تاريخ مصر القديم

كانت مصر فى أول عهدها تشمل عدةَ ممالك صغيرة تكوّنت منها بعدُ مملكتان عظيمتان : الأولى فى الوجه القبلى، والثانية فى الوجه البحرى. ثم ظهر من الوجه القبلى رجل يُدعَى « مينا » ضمّ القطرين بعضَهما الى بعض ، وجعلَهما مملكة واحدة تحت سلطانه سنة ٣٤٠٠ ق . م .* وهذا هو ابتداء العصر التاريخى لمصر الذى تكاد أكثرُ أخباره تكون معروفة

* تواريخ العصور الأولى من تاريخ مصر القديم ليست معروفة يقيناً بل يقدّرها المؤرخون بمقتضى فروض لهم . وقد قدَّر كل منهم اسنة تولى « مينا » مثلاً تاريخاً يختلف عما قدَّره الآخر . والذى اتبعناه فى هذا الكتاب هو رأى الأستاذ « بِرِسْتِد » معلم التاريخ المصرى القديم وتاريخ المشرق بجامعة شيكاغو . وهاك آراء بعض مشاهير المؤرخين الآخرين عن سنة تولى « مينا » :

بِتْرِى ٥٥٠٠ ق م — مَرْيِت ٥٠٠٤ ق م — برُوكش ٤٤٥٥ ق م — إرْمَنْ ٣٣٠٠ ق م . على أن المورخين يكادون يتفقون على تواريخ العصور التى تبتدئ من الدولة الوسطى



حجر رشيد

مستيقَنة ، وافتتاحُ العصور التى تكلم عليها « مانيتون » فى تاريخه

وقد نهج المؤرخون منهج «مانيتون» فقسموا الملوك المصريين الذين أولهم « مينا » الى ٣١ أُسرة ، وتلك الأُسرات الى ثلاث طبقات ، تعرف بالدولة القديمة ، والدولة الوسطى ، والدولة الحديثة

وبعد اضمحلال الدولة الحديثة غزا الفرسُ مصر ، ولبثوا فيها حتى دخلها عليهم الاسكندر المقدونى . وبعد وفاة ذلك الفاتح العظيم الذى لم يكن له وارث لملكه ، اقتسم قوّادُه أملاكه ، فكانت مصر نصيب أحدهم المدعوِّ « بطليموس الأول» وهو مؤسس دولة البطالسة التى حكمت مصر مدة انتهت باستيلاء الرومان عليها سنة ٣٠ ق . م

الفصل الثانى

مصر قبل الاسرات الملكية

وجود حضارة بمصر قبل الميلاد بنحو ٨٠٠٠ سنة

تدل الآثار المصرية ، ولا سيما التى كُشفت حديثاً ، على أن الجنس الإنسانى قطن مصر منذ أزمان متوغلة فى القدم . وقد عثر الباحثون على آلات من الظِرّان* دقيقة الصنع وعلى آنية فخارية مزخرفة وغير مزخرفة وعلى غير ذلك من الآثار القديمة جداً ، مما يدل على وجود حضارة بمصر قبل الميلاد بنحو ٧٠٠٠ أو ٨٠٠٠ سنة . وأرجح الآراء الحديثة أن مؤسسى

---

* الظران والظِرار : جمع ظِر وظُرَر . وهو الحجر الصلب الرقيق الذى حده كحد السكين وقد استعمله الانسان قديماً للقتال

تلك الحضارة قوم لوبيو الأصل ، غير ان حضارتهم ليست هى أساس مدنية المصريين الذين تكوّنت منهم الأسرات المختلفة التى سنتكلم عليها، والذين وصلوا بمصر إلى أعظم درجات الرقى ، بل كانت لهم حضارة قديمة مستقلة بذاتها . أما الحضارة التى ابتدأ ظهورها بابتداء الأسرات الملكية فيُعزى أصلها الى القوم الفاتحين أجداد « مينا » ذلك الملك الشهير . وقد ثبت أن أصل هؤلاء الفاتحين قوم ساميّو الجنس قدموا إلى مصر من آسيا.

في أن حضارة الاسرات الملكية اصلها من آسيا

ولا يُعلم بعدُ علمَ اليقين من أين دخلوا البلاد ، فمن قائل إنهم جاءوا من برزخ السويس (وهو الأرجح) ومن قائل إنهم عبروا البحر الأحمر ، ووفدوا على مصر من جهة بلاد الحبشة . وعلى كل حال نعلم يقيناً أن القوم الذين نشأ من بينهم « مينا » كانوا قبل ظهوره يقطنون الجهة الجنوبية من مصر . ومما يدل على أن الفاتحين أجداد «مينا» من الأجناس السامية أن اقدم ما وصل الينا من لغتهم مشاهد فيه العنصر الأفريقى والسامى ، وان الأخير غالب على الأول . دخل هؤلاء الفاتحون ومعهم حضارة أرقى من التى كانت بمصر فى ذلك الوقت ، فهم الذين جاءوا بفن التحنيط وبالكتابة الهيروغليفيــة . ومنذ دخولهم درجت مصر فى طريق الرقى شيئاً فشيئاً ، اذ كان لحضارتهم تأثير فى السكان الأصليين ، ونشأت من اتحاد العنصرين فى ذلك العصر (أى الذى قبل زمن الأسرات) حضارة لا بأس بها . فكانوا يصنعون آنية جميلة من الفخار ، ثم صنعوها من الأحجار، فأجادوا فيها كل الإجادة . وفى ذلك العصر ابتدأ فن عمل التماثيل يظهر بينهم ، فصنعوا تماثيل من الخشب والعاج والحجر متلائمة الصنع ، واتخذوا من الظران فؤُساً وحراباً وغيرها من الآلات ، ثم تقدموا فصنعوا

الحضارة فى مصر قبل الاسرات الملكية

أمثالها من النُّحاس . وفى الجملة كان هذا العصر دور انتقال من العصر الحجرى الى عصر المعادن . أما أهم ما اشتغلوا به فى ذلك الوقت فكانت الزراعة التى لفتهم اليها خصب وادى النيل . وكان بالبلاد اذ ذاك كثير من الغابات تأوى اليها الفيلة والزَّرافىّ وأفراس الماء وغيرها . وكان من المصريين عدد وافر يشتغل بصيدها وصيد سباع الصحراء التى هى أشد منها بأساً كالأسد والثور البري يرمونها بالسهام والنُّشَّاب . أما التماسيح وأفراس الماء ، فكانت ترمى من القوارب بالحراب والخطَّافات . وكان صيد هذه السباع يُعدّ من المآثر العظيمة التى يخلدونها بالنقش على الصخور

انقسام مصر فى الأزمنة الغابرة الى اقسام عديدة

وكانوا يشتغلون فى ذلك العصر أيضاً بقليل من التجارة ، واتخذوا لهم سفناً شراعية عليها أعلام مختلفة ، يقول المؤرخون انها رموز الممالك الصغيرة التى كانت تحتوى عليها مصر اذ ذاك ، والتى انتهى أمرها بانضمام بعضها إلى بعض وتكوين مملكتين عظيمتين منها : احداهما فى الشمال ، هى مصر السفلى ، والاخرى فى الجنوب ، هى مصر العليا . وتمّ ذلك الاتحاد فى عصر بعيد (أى قبل سنة ٤٠٠٠ ق . م) ، ولا نعرف شيئاً عن الرجال الذين سعوا فيه ، أو الحروب التى نشبت من أجله ، بل لا نعرف شيئاً كثيراً عن المملكتين اللتين نشأتا من هذا الاتحاد لبعد عهدهما

مملكتا الشمال والجنوب ورمز كل منهما

ومما نعرفه عنهما أن كلتيهما كانت لها صفات وشارات تميزها عن الأخرى : فمن ذلك أن أهل الشمال كانوا يتخذون رمزاً لهم حُزْمة من نبات البَرْدى النابت بكثرة فى مناقع الوجه البحرى . وكان ملكهم يتخذ النحلة رمزاً له ويلبس تاجاً أحمر ذا شكل خاص . أما أهل الجنوب فكان رمزهم

الزَّنْبَق ، ورمز ملكهم نبات آخر من نبات الجنوب ، وشارته تاج طويل أبيض

ولما كانت مصر السفلى عرضة للوبيين القاطنين فى غربيّها كان يرد عليها العدد العظيم منهم فيقيمون بها ، حتى أخذ الجزء الغربى منها صبغة لوبية بقيتْ ظاهرة فيهِ زمناً طويلاً ، على حين ان مصر العليا كانت مصطبغة بالصبغة المصرية البحتة

ومما يؤسف له ان مصر السفلى طالما غمرها النيل بفيضانه المتكرر على مَرّ الدهور ، فاندثرت آثار تلك المملكة الشمالية ، مع ان الظاهر انها أقدم فى الحضارة من أختها الجنوبية

أما عاصمة هذه المملكة الشمالية فكانت مدينة « بوتو »[1] يقابلها مدينة « نِخَبْ »[2] عاصمة المملكة الجنوبية

ولم يصلنا شىء يذكر من أخبار ملوك ذلك العصر ، ولم نعثر بعدُ على قبورهم ، بل لم نقف الاَّ على أسماء نفر منهم منقوشة على الحجر المعروف بحجر « بَلَرم »[3]

وكان الذين خلفوا هؤلاء الملوك يلقبونهم « بنصف آلهة » ثم قيل عنهم فيما بعد إنهم آلهة حكموا مصر قبل أن يحكمها الإنسان

---

(١) فى شمالى الدلتا

(٢) مقرها قرية « الكاب » الحالية الواقعة بين اسنا وادفو

(٣) « حجر بَلَرْم » وُجد ضمن الآثار المصرية نُقش فى أيام الأسرة الخامسة ومكتوب عليه أسماء ملوك مصر الأوائل وبه أسماء ١٣ ملكاً حكموا مصر من عهد الاسرة الأولى الى عهد الخامسة مع بيان مدة كل منهم . وبه أيضاً بيان ارتفاع النيل فى كل سنة منها وهذا الحجر الآن بمدينة « بَلرْم »

الفصل الثالث

تأسيس الاسرات الملكية

واتحاد الشمال والجنوب

اتحاد الشمال والجنوب

بقىَ كل من أقليمى الشمال والجنوب (مصر السفلى والعليا) مستقلاً بذاته الى أن تولى حكم مصر العليا رجل عظيم يدعى « مينا » جمع بين المهارة الحربية والمقدرة السياسية ، فقبض على جميع أزِمّة الأقليم الجنوبى، ثم تمكن بذلك من غزو مصر السفلى ، وضمها الى ملكه فكوّن من الاثنتين مملكة مصرية عظيمة كان هو أول الفراعنة الذين جلسوا على عرشها . ولما كان منشؤه فى مدينة « طِينَة »[1] لم يرَ أن موقعها بحيث يسهل جعلها مركزاً لإدارة مملكتهِ الواسعة الجديدة . فحوّل مجرى النيل من الجبل الغربى الى مجراه الحالى و بنى عاصمته « مَنْف » (منفيس)[2] فى الفضاء الذى تخلف من ذلك . ثم سنّ القوانين ونظم البلاد . ومن أعماله أيضاً أنهُ ردّ أهل النوبة الى الجنوب بعد أن كانت بلادهم الشمالية واصلة الى مقاطعة ادفو

مينا

ومات بعد أن حكم طويلاً ودُفن بالقرب من « طينة » مسقط رأسه . فخلفه ابنه « تِيتِى » وكان مولعاً بالعلوم فألّف كتاباً فى الطب بهِ عدّة

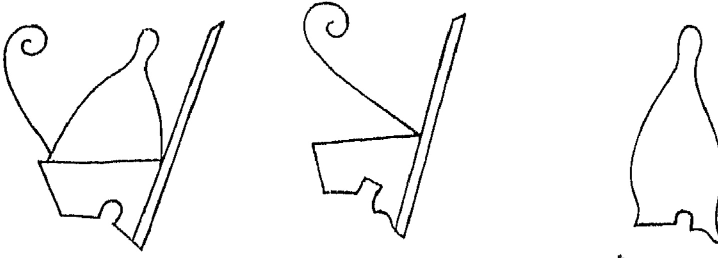
---

(١) موقعها الآن « العرابة المدفونة » بالقرب من جرجا

(٢) موقعها الآن البدرشين ومنية رهينة

أوصاف لعلاج أنواع شتى من المرض خصوصاً داء البرص . وله كتابان في الفلك وغير ذلك من العلوم

وبقىَ الأقليمان من بعده يحكمهما ملك واحد . وكانت كل شارات الملك ورموزه تدل على أنهُ حاكم المصريَيْن ، فكان يسبق اسمه في جميع الكتابات الرسمية بصورة النحلة رمز الشمال مشفوعة بنبات الجنوب . وكان تارة يلبس تاج الوجه القبلي الأبيض ، وأخرى يلبس تاج الوجه البحري الأحمر ، وطوراً يلبس تاجاً جمع بين الشكلين ، هكذا :



(تاج الوجه القبلي الأبيض) (تاج الوجه البحري الأحمر) (تاج الوجهين)

انفصال الأقليمين في الادارة الداخلية

فكان ظهوره بهذه الهيئة في أيام الزينة كفتح الترع ومواكب النصر وما شاكل ذلك من الحفلات الرسمية ، عنواناً على أنهُ ملك الوجهين البحري والقبلي ، غير أن هذه الرموز الرسمية كانت في الحقيقة دليلاً على أن كلا من الأقليمين شاعر بوجوده بذاته ، وأنهُ لم يندمج ويتلاش في الآخر ، وفي الحقيقة كان الأقليمان منفصلاً أحدهما عن الآخر في الإدارة الداخلية

وكان أصعب عمل أمام ملوك الاسرتين الأولى والثانيـة هو إرضاء أقليم الشمال وجعله يندمج تماماً في أقليم الجنوب . وكثيراً ما شق أهل الشمال عصا الطاعة فنشبت بسبب ذلك حروب أُريقت فيها الدماء .

وما زلنا نرى تذكار الانتصارات عليهم منقوشاً على جدران معبد « هوروس » بجهة « هيراقنبوليس » *

ولا شك أن هذه الحروب أثرت فى حالة مصر السفلى ، ولكنها لم تمنع مجموع المملكة من التقدم ، بدليل أن حفر الترع وما شا كله من المنافع العامة كان آخذاً فى الازدياد ، وكذلك أخذت طوالع النبوغ تظهر فى فن الهندسة ، وارتقى نظام الحكومة وكثر بناء القصور ، وعظم تشييد المقابر والنواويس ، وابتدأت أيضاً التجارة بين مصر وما جاورها من البلاد مثل شبه جزيرة بلاد العرب ، ويغلب على الظن أن المصريين ابتدءوا منذ ذلك العهد البعيد يتجرون مع سكان جزائر « بحر إيجه » بدليل أنهُ قد وُجدت فى قبور ملوكهم أوانٍ من الفَخّار شبيهة جداً بأوانى سكان تلك الجزائر

الفصل الرابع

عصر بناة الاهرام

(٢٩٨٠ — ٢٤٧٥ ق . م)

الأسرة الثالثة	٢٩٨٠ — ٢٩٠٠	الاسرة الخامسة	٢٧٥٠ — ٢٦٢٥
« الرابعة	٢٩٠٠ — ٢٧٥٠	« السادسة	٢٦٢٥ — ٢٤٧٥

مقدمة

يطلق هذا الاسم على العصر الممتد من منشأ الأُسرة الثالثة الى منتهى الاسرة السادسة ، وذلك لانتشار بناء الأهرام فيهِ انتشاراً كبيراً أدى الى

* بالقرب من المنيا

تلقيبه « بعصر بناة الأهرام » وان كان تشييد الأهرام لم يبطل بتة إلاَّ فى أواخر أيام الدولة الوسطى . وهذا العصر يمثل طوراً هاماًّ من الأطوار التى تقلبت فيها مصر . ويلخص وصفه فيما يأتى :

كان ملوك الاسرتين الأُولى والثانيـة على جانب عظيم من القوَّة وشدة البأس ، فكانت جميع السلطة فى قبضة الملِك لا ينازعهُ فيها منازع وقد يهب جانباً كبيرًا منها لحكام الأقاليم مختاراً ولكنهُ يستأثر بالسيطرة العليا فيعزلهم من مناصبهم اذا هم أساءوا استعمالها أو حادوا عن الخضوع لسلطانه . استمرت هذه الحالة فى أيام الأُسرة الثالثة ، حتى وصلت قوَّة الملِك فيها الى منزلة لم يسبق لها مثيل ، يدل على ذلك الآثار الهائلة التى أُقيمت فى أيام هذه الأُسرة وما بعدها ، اذ لم يكن يتسنى تشييدها إلاَّ فى عهد ملك قوى قبض على كل السلطـة فى أنحاء البلاد ، حتى تمكن من إنفاق تلك القناطير المقنطرة من الثروة فى بناء هرم هائل لا داعى لإقامته سوى رغبته الخاصة . ويظهر أن قوَّة الملك بلغت أقصاها فى أوائل أيام الأُسرة الرابعة أى فى الوقت الذى شيّد فيه « خوفو » هرم الجيزة الأكبر

ومن بعد عهده أخذت السلطة تتسرب من يد الملك . ويرجع ذلك الى أمرين : الأول أن حكام الأقاليم استبدّوا بجانب كبير من القوَّة ، والثانى أن كهنة عين شمس (مقر عبادة « رَع ») أُخذوا يَتَدخَّلون فى الأُمور السياسية ، حتى صار لهم فيها نفوذ كبير فأضعف ذلك قوَّة الملك من جهة ، وزاد فى شوكة حكام الأقاليم من جهة أخرى . وما زال نفوذ الكهنة يزداد شيئاً فشيئاً حتى قضوا على الأُسرة الرابعة ، وأسسوا الاسرة الخامسة . وانتهز حكام الأقاليم هذه الفرصة فجعلوا مناصبهم وراثية ، وإن

لم يحيدوا عن الولاء لمليكهم . واستمرت البلاد آخذة فى أسباب التقدم . فزاد فرعون من نفوذ مصر فى بلاد النوبة وأرسل البعثات التجارية الى بلاد « بُنْت* » و « سيناء » و « فينيقية » و « بحر إيجه » . ومع كل هذا أفضت مزاحمة الأمراء والولاة للملك الى ارتباك عظيم فى سياسة البلاد وانتشار الفوضى فيها ، وعند وفاة آخر ملوك الأُسرة السادسة رجعت مصر الى تلك الفوضى التى أنقذها منها مينا قبل ذلك بنحو ١٠٠٠ سنة

بناء القبور والاهرام

ولكى نفهم الغرض من بناء الأهرام والمقابر عند قدماء المصريين يجب علينا أن نعرف شيئاً من معتقداتهم فيما يختص بالحياة بعد الموت . كان المصريون يعتقدون أن من عاش عيشة طاهرة فى هذه الحياة الدنيا يعيش بعد الموت عيشة رغدة فى أرض أخرى يتخيلون موقعهـا بالإجمال فى الجهة الغربية . وكانوا يعتقدون أيضاً أن الإنسان مكوّن من جزأين: الجسم والروح (المسمى عندهم « كا ») . ولكى يبقى الروح متمتعاً بالحياة يجب أن يكون الجسم بعد الموت باقياً على صورته ولذلك عملوا على تحنيط الموتى و بناء المقابر الحصينة كى يُحفظ الجسم بها من يد العابثين واللصوص. وكانوا يضعون فى القبور الطعام والشراب ليتناول الروح منهما ما ينتعش بهِ . وكثيرًا ما كانوا ينقشون على جدران المقبرة المناظر التى كان يعيش بينها الميت والخيرات التى كان يتمتع بها ، مثل صورة منزله وحدائقه ومزارعه وخدمته على اختلاف أنواعهم ، كلٌّ يشتغل بعمله ، ومثل أشكال الرياضة التى كان يروض نفسه بها وغير ذلك ، زعماً منهم أن الروح يستأنس بهذه الصور ، فتذهب عنه الوحشة

* موقعها الآن بلاد الصومال وشواطئ خليج عدن

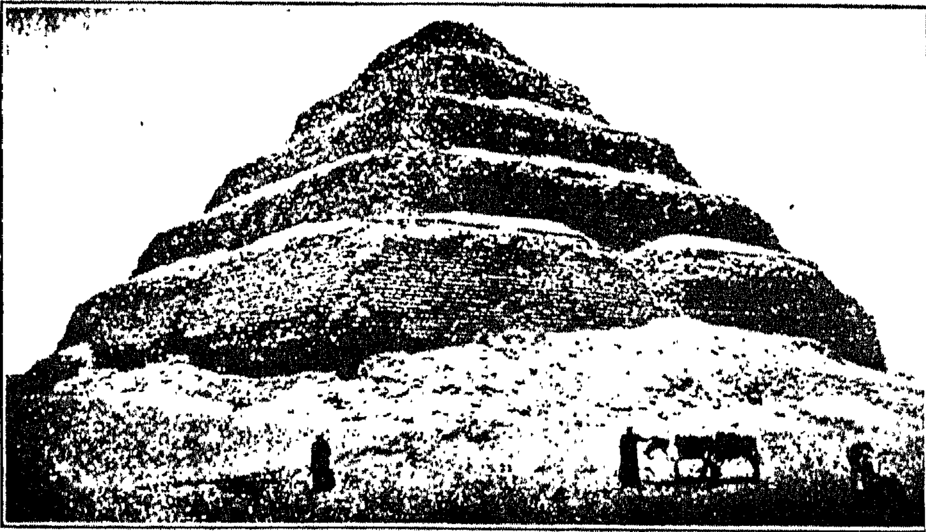
وكانت حالة القبور فى الأُسرتين الأُولى والثانية تقرب الى الغضاضة وقلة التأنّق ، فان الجثة كانت توضع فى حجرة تحت الأرض توصل اليها زَلاَّقة منحدرة . وكانت بالمقبرة حجرتان أخريان فوق الأرض : إحداهما توضع فيها العطايا المقدمة للروح ، والأخرى توضع فيها تماثيل الميت (وتسمى الآن عند علماء الآثار سرداباً) . وكان يُصنع فى الجدار الغربى من كل مقبرة فجوةٌ غائرة فى الحائط تحاكى الباب ، ترد الروح منها على زعمهم لتتناول ما تريد من العطايا . وكانت القبور فى أول الأمر تُبنى من اللِبن المجفف فى الشمس وتُشيَّد على شكل هرم ناقص أضلاعه قليلة الميل . ولوجود شيء من الشبه بين هذا الشكل وبين المصاطب التى بمداخل منازل القرى فى الوقت الحاضر أصبحت كل مقبرة من هذا النوع تسمى « مِصطبة » . ثم ارتقت المقابر شيئاً فشيئاً فصار يُبنى فوق المِصطبة مِصطبة أصغر منها وقد يبنى فوق هذه أخرى أصغر منها وهكذا فينشأ من ذلك ما يسمى «بالهرم المدرّج» . وأول من شيد هرماً بهذه الصفة هو «زُوسر» مؤسس الأسرة الثالثة فانهُ شيد « هرم سقَّارة المدرَّج » حوالى سنة ٣٠٠٠ ق . م من خمس مصاطب إحداها فوق الأخرى فكان هرمه هذا أقدم بناء كبير من الحجر عُرف فى التاريخ . وقد اتبع هذه الخطة العامة بناة الأهرام من بعده ، غير أنهم زادوا فى أهرامهم ما جعلوا بهِ أضلاعها مستوية . وفى المقابر الهرمية كانت توضع الجثة فى حجرة خفية داخل الهرم أو تحته وبذلك كان الهرم والحجرة التى بهِ بمثابة الحجرة التى كانت توضع فيها الجثة فى العصور الأولى . أما العطايا التى تقدم للروح فكان يبنى لها معبد ملاصق للهرم من الجهة الشرقية يسكنهُ كهنة قوَمة بشؤون هذه العطايا . ولا تزال

آثار هذه المعابد ظاهرة بالجيزة وبو صير

الاسرة الثالثة

وصلت « منف » (منفيس) فى أواخر أيام الأسرة الثانية الى درجة من الرقى أخنت على عظمة « طينة » التى يُنسب اليها ملوك الأسرتين الأولى والثانيـة . ولما انتهت الأسرة الثانيـة أسس « زُوسر » الأسرة الثالثة فكانت أيامه مبدأ عظمـة منف . وفى عهده استمر استخراج معدن النحاس من شبه جزيرة سيناء وأُخضعت قبائل بلاد النوبة الشمالية المجاورة للجنادل الأولى . وقد ساعـد « زوسر » على نجاحه العظيم وزيره المدعو « إمْحُتِبْ » الذى كان على جانب عظيم من الحـكمة وطول الباع فى فلسفة الدين والسحر والحِـكَم والأمثال والطب وفن البناء

و « زوسر » هو أول من شيد من الحجر مبانى عظيمـة كثيرة العدد، وأول من حسن صناعة القبور ، فبنى بجهة « بنى خلاف » بالقرب



(هرم سقارة المدرج)

من « أَبيدوس » مِصطبة عظيمة من الطوب ، ثم شيد فى الصحراء بالقرب من منف تربة من الحجر أعظم من هذه ، بل أعظم من أى تربة بنيت قبلها ، وهى الهرم المدرّج المذكور آنفاً المعروف بهرم سقّارة المدرج

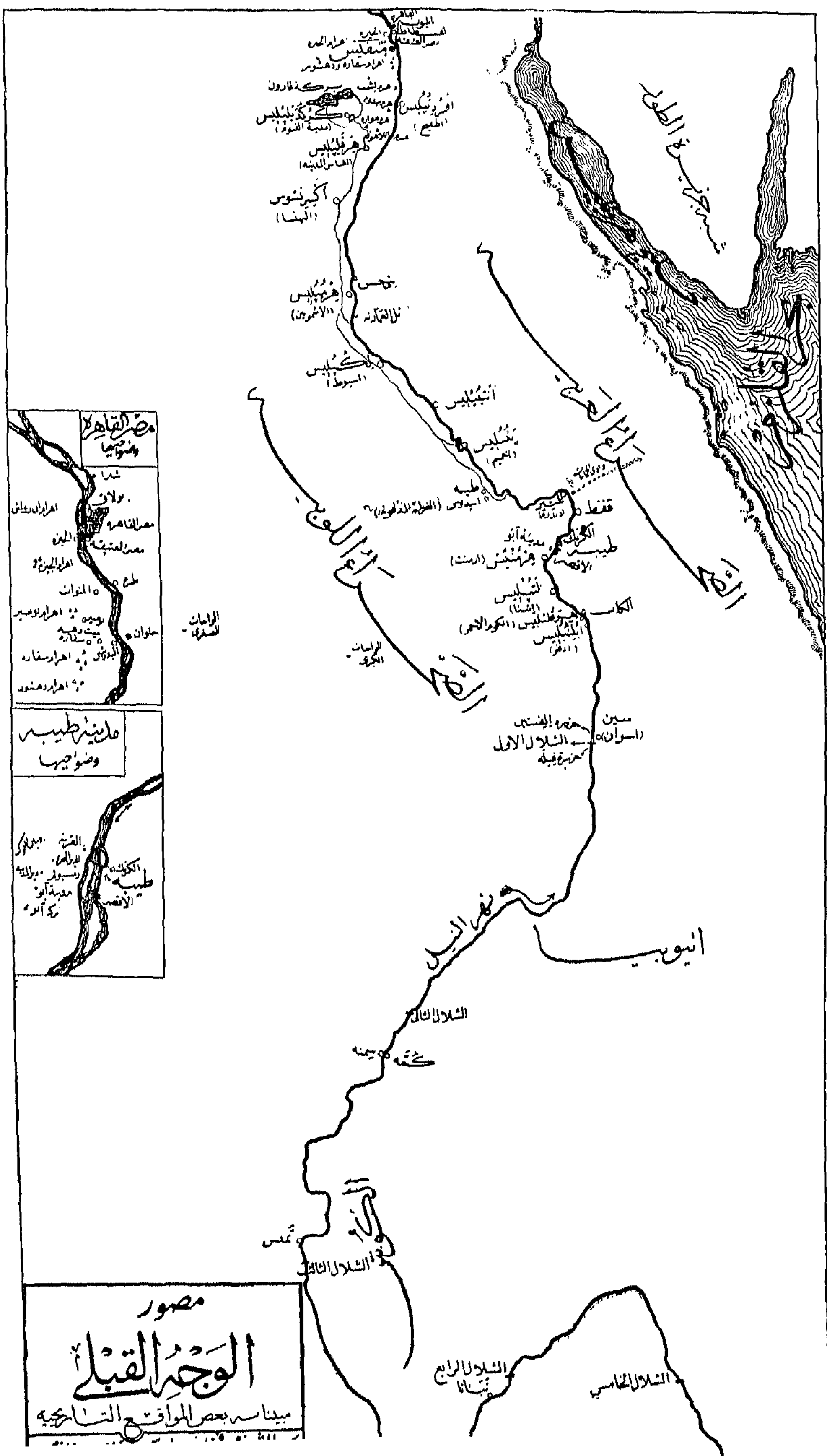
وبعد أن توفى « زوسر » بقيت البلاد آخذة فى أسباب التقدم الى أن تولى الملك « اسْنِفْرُو » آخر ملوك الأسرة الثالثة وكان بصيرًا ساهراً على ما فيهِ الصالح لبلاده فشيد الطرق التجارية وبنى السفن العظيمة . ومن أعماله أنهُ فتح باب المتاجرة مع الممالك الشمالية وأرسل أسطولاً مكوّناً من أربعين سفينة الى الشاطئ الفينيقى لإحضار خشب الأَرْز من جبال لبنان ، فكان ذلك أول بعثـة بحرية أُرسلت داخل البحار . ومن أعماله أيضاً أنهُ نظّم حدود القطر الشرقيـة وحصّنها وقاد حملة حربية على بلاد النوبة الشمالية فعاد ومعهُ الألوف من الأسرى والماشية

وقد شيد تربتين احداهما بجهة « مَيْدوم » على شكل هرم مدرّج والأخرى بجهـة « دَهْشُور » على شكل هرم كامل ، وكلا الهرمين بين منف والفيوم

وكانت مصر فى أيام « اسنفرو » قد وصلت الى درجة كبيرة من الرقى مهدت لها طريق السير الى تلك العظمة الهائلة التى بلغتها في أيام الأسرة الرابعة وما بعدها . وتقوّت فى أيامه طائفة الأشراف الموظفين في حكومة الملك ، وجعلوا يبنون لأنفسهم المصاطب العظيمة من الحجر المنحوت ، ويختارون مواضعها حول قبر مليكهم الذى يخدمونهُ

خوفو مؤسس الاسرة الرابعة

وبعد وفاة « اسنفرو » انتهت أيام الأسرة الثالثة ، وتولى الملك « خوفو » مؤسس الأسرة الرابعة التى يُعَدّ عصرها أزهى عصور الدولة القديمة . وقد


مصور
الوجه القبلي
مبينا به بعض المواقع التاريخية
منفيس
أكسرنخوس
(البهنسا)
هرموبليس
(الأشمونين)
تل العمارنة
ليكوبليس
(أسيوط)
أنتيوبليس
بنوبليس
(أخميم)
طيبه
قفط
الكرنك
الأقصر
هرمنتيس (أرمنت)
لتوبليس
(إسنا)
الكاب
أبوللينوبليس
(إدفو)
سين
(أسوان)
الشلال الأول
جزيرة فيله
نهر النيل
أثيوبيا
الشلال الثاني
الشلال الثالث
الشلال الرابع
نباتا
الشلال الخامس
مصر القاهرة وضواحيها
مدينة طيبه وضواحيها
الواحات البحرية

ذهب بعض المؤرخين الى أنهُ أزهى عصور الحضارة المصرية بأجمعها .
ولا غرو فإن دقة البناء وفخامته وجمال التماثيل وروعتهـا فى تلك الأيام لتكفى لإثبات ما كان المصريون عليهِ من الحضارة العظيمة فى عصر هذه الدولة

ومؤسس الأسرة الرابعة هو الملك « خوفو » ، وكان يسميه اليونان (كيُوْبس) . وقد عَرَف هذا الملك كيف يخلّد اسمه فى التاريخ ، فشيد هرم الجيزه الأكبر الذى لم ير العالم بناءً أكبر منهُ . ولا نريد التعرُّض لموضوع فائدة ذلك الهرم أو غيره وانما نؤكد أنهُ من أجله صار اسم «خوفو» أظهر اسمَ بين أسماء الملوك الذين حكموا فى الشرق الى وقتنا هذا . وان ضخامة هذا البناء الهائل جعلته احدى عجائب الدنيـا ، فقد قرَّر المؤرخون والمهندسون ان بناءه يشمل نحو ٢،٣٠٠،٠٠٠ حجر ، متوسط وزن الحجر منها طنان ونصف. وقد قال «هيرودوت» المؤرخ اليونانى. إنهُ كان يشتغل فى بناء الهرم مائة ألف رجل[1] يُستبدل بهم غيرهم كل ثلاثة أشهر ، وان بناءه استغرق عشرين عاماً. وقد أثبت أعاظم المؤرخين المُحْدَثين أن ذلك تقدير معتدل . وليست غرابة الهرم فى حجمه فقط ، بل من حيث دقة صناعته كانتخاب الأحجار وجودة نحتها وضبط زواياها وحسن رصفها ورقَّة المِلاَط الذى بينها ، مما أدهش أعاظم مهندسى الوقت الحاضر

هرم الجيزه الاكبر

أما ارتفاع الهرم فكان وقت تشييده ١٤٥ متراً ثم تناقص بتهدم قِمَّته فى السنين الطوال حتى صار ١٣٧ متراً . وأمَّا قاعدتهُ فمربعة الشكل وطول كل ضلع من أضلاعها يبلغ الآن ٢٣٣ متراً[2] ومسطحها يبلغ ١٢ فداناً تقريباً

---

(١) قيل إن معظمهم كان من الاسرى (٢) ألف شبر

وكان القصد من بناء الأهرام إيجاد مكان حصين خفيّ يوضع فيه تابوت الملك بعد مماته، ولذلك شيدوا الهرم، وجعلوا فيهِ أسراباً خفية زَلقة صعبة الولوج لضيقها وانخفاض سقفها واملاسها، حتى لا يتسنى لأحد الوصول الى المخدع الذى بهِ التابوت. ومن أجل ذلك أيضاً سُدّ مدخل الهرم بحجر هائل متحرّك لا يعرِف سر تحريكه إلاَّ الكهنة والحرس، ووُضعت أمثال هذه الأحجار على مسافات متتابعة فى الأسراب المذكورة، وبهذه الطريقة بقى المدخل ومنافذ تلك الأسراب مجهولة اجيالاً من الزمان

(بيان الهرم الأكبر من الداخل)

أ : المدخل — ادب : زلاقة الى أسفل، منها اد مفرغ فى بناء الهرم والباقى مفرغ فى الصخر — ت : حجرة تحت الأرض — ث : سرب أفقى — د ح س : زلاقة صاعده — ع : ايوان مرتفع على يمين الزلاقة — س : دكة — م : ممر من الدكة الى مخدع الملك — ح ص : سرب أفقى موصل الى الحجرة المعروفة الان بغرفة الملكة — ل، ل : ممران لدخول الهواء — ى : خمس غرف صغيرة أفرغت فى البناء فوق مخدع الملك لتخفيف الثقل عن سقفه — ح ب : بئر

وجميع هذا الهرم مشيد من الحجر الجيرى الصلب ما عدا المخدع الأكبر فأنهُ من الصخر المحبّب (الجرانيت). وكان يحيط بقاعدة الهرم

طَوَار (رصيف) عرضه يقرب من الثلاثة الأمتار وكان الهرم مغطى بطبقة من الصخر المحبب فوقها اخرى من الحجر الجيرى المصقول . ووضع الملاط بين الأحجار فى غاية الدقة حتى كان الناظر إلى الهرم يكاد يظنه صخرة واحدة . ثم انكشف هذا الغطاء بعد أن كان ساتراً لمدخل الهرم وهو عند المدماك الثامن عشر فى الجانب الشمالى

ومما يلاحظ فيه أن جوانبه مواجهة للجهات الأربع الأصلية بالضبط ، وقد ذهب بعضهم إلى أنه كان لذلك أهمية فلكية فى ذلك العصر

ومع اننا لم يصلنا شىء كثير من أخبار «خوفو» وملكه الزاهر فوق بنائه لهذا الهرم العظيم يسهل علينا أن ندرك مقدار نظام الحكومة ورخاء البلاد فى أيامه بالتأمل فى الكيفية التى تم بها بناء الهرم ، اذ انه ليس من السهل اطعام مائة ألف عامل وايواؤهم وكلهم عالة على الأمة لا يفيدون ثروة نافعة ، كما انه من الصعب تنظيم تلك الحركة الهائلة عند مقاطع الاحجار بحيث لا ينشأ عنها عطلة فى البناء

خفرع والهرم الذى شيده

✱ وبعد أن توفى خوفو خلفه « خفْرَع »* فشيد هرم الجيزة الثانى وهو أصغر قليلاً من هرم خوفو وأقل جودة فى صناعته . ومما يجدر ذكره هنا انه كان لهذا الهرم كما كان للهرم الأكبر معبد ملتصق بجانبه الشرقى ، وكان يوصل لذلك المعبد طريق مرتفع ، فى طرفه الأسفل بناء من المحبب

---

* معنى « خفرع » (المقتبس من نور رَعْ) . ولعل هذا دليل على ابتداء ظهور القوة فى يد كهنة « رَع » . ويلاحظ مثل هذا الاشتقاق فى كثير من اسماء الملوك من بعده فى الاسرات الرابعة والخامسة والسادسة



(تمثال خفرع)

بدار الآثار المصرية رسم ف . د . بيريز

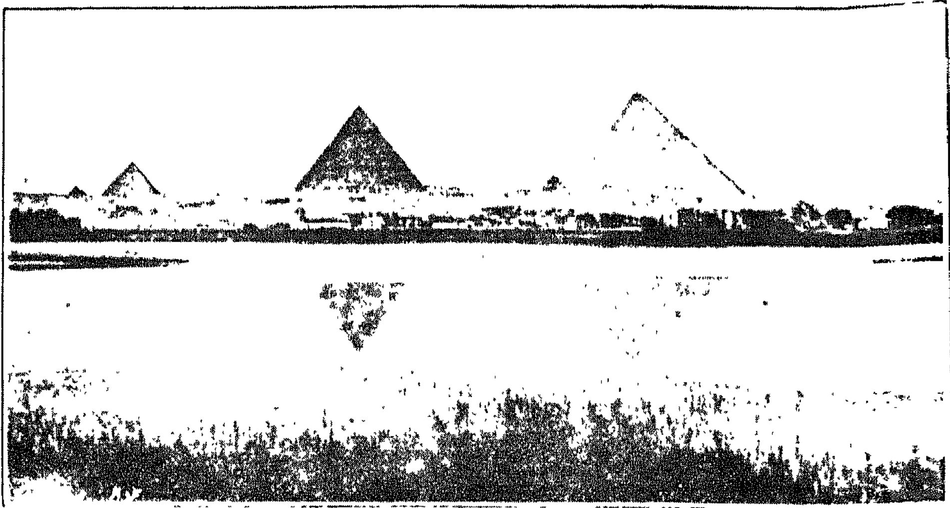
« معبد ابى الهول »

ما زلنا نراه الآن بجوار أبي الهول العظيم ، وقد أُطلق عليه « معبد أبى الهول » مع انه لم تثبت بعدُ علاقته بهذا التمثال

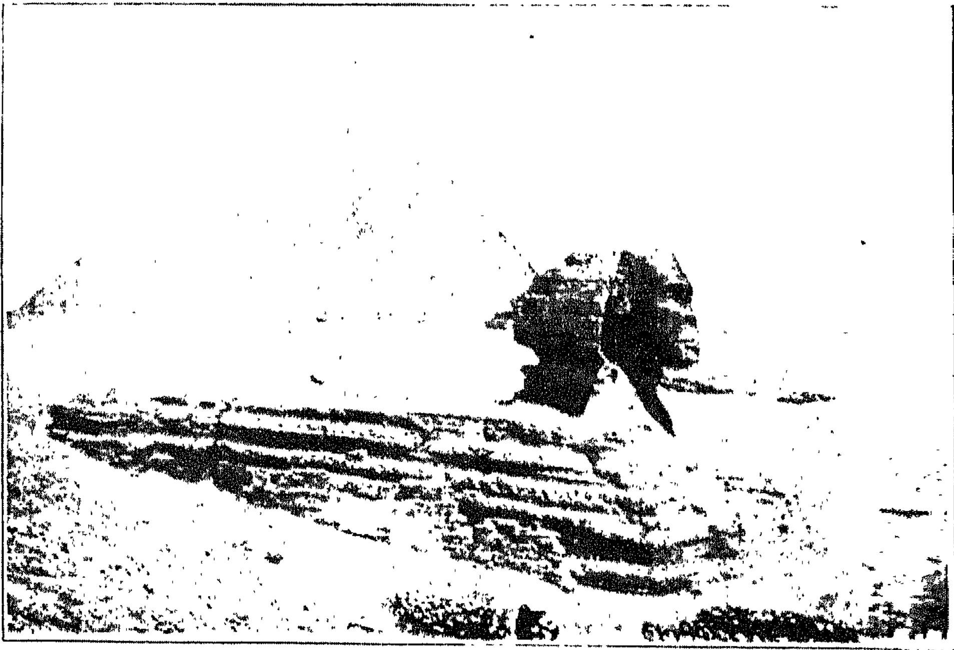
ابو الهول

أما أبو الهول ذاته فلم يُعلم صانعه بعدُ يقينا . وانما الأرجح انه عُمل فى زمن الاسرة الرابعة ، وقيل قبلها . وهو تمثال هائل حفر من الصخر الطبيعى ، وجهه وجه انسان وجسمه جسم أسد ، ارتفاعه نحو ٢٠ متراً وطوله نحو ٤٦ متراً ، ولم يعلم الغرض الحقيقى من صنعه الى الآن

وبعد أن توفى « خفرَع » خلفه « منْقَرَع » مشيّد هرم الجيزة الأصغر . وفى أيامه حافظت مصر على عظمتها غير أن شوكة الملِك ابتدأت



اهرام الجيزة من بعيد (رسم محمد افندى على سعودى)



هرم الجيزة الاكبر وابو الهول (رسم محمد افندى على سعودى)

تضعف قليلاً وزادت قوة كهنة « أُون » (عين شمس) واكتسبوا جانباً عظيماً من السلطة السياسية

الاسرة الخامسة

لاحظنا ان كهنة « أون »[١] أخذوا يستبدون بالأمر فى أوائل أيام الأسرة الرابعة وبقوا كذلك نحو ١٢٠ سنة وصلوا بعدها الى درجة من القوة مكنتْهم من اسقاط تلك الاسرة وتأسيس اسرة جديدة هي الخامسة . ولما كان الفضل فى تأسيس هذه الاسرة راجعاً الى الكهنة كان ملوكها أضعف ممن قبلهم ، فانتهز حكام الأقاليم ورؤساء الحكومة هذه الفرصة، واكتسبوا لأنفسهم تولى المناصب بالوراثة . فمن ذلك ان منصب « قاضى القضاة وكبير الوزراء » بعد أن كان يُسند الى اسنّ أولاد الملك أصبح حقاً خاصاً لاسرة جديدة هي اسرة « طاحتِّب » الشهيرة[٢] . وحدث مثل ذلك فى الأقاليم أيضاً ، فان كل حاكم كان يزداد فى القوه عن سلفه

على أن هؤلاء الحكام حافظوا بالرغم من ذلك على الولاء لمليكهم ولم يألوا جهداً فى مساعدته بالنفس والنفيس على ما فيه تقدم البلاد ورقيها . ولا غرو فان مصر فى عهد هذه الاسرة حافظت على ينابيع ثروتها ، وقامت بمشروعات تجاريه وحربية نافعة زادت من ثروتها . وكان لها أثر ظاهر فى رفاهتها ونمو حضارتها . فمن ذلك ان « أُوسَرْكاف » أول ملوك هذه الاسرة مد سلطانه الى الجنادِل الأولى (حوالى سنة ٢٧٥٠ ق . م .) وان خلفه «سَحُورَع» ارسل حملة بحرية الى الشواطئ الفينيقية ، واخرى الى

---

(١) يسمّون « كهنة أُون » أو « كهنة رَع »

(٢) لأحد أفراد هذه الاسرة مقبرة بسقارة تعرف « بمقبرة طاحتِّب » ويدل حجمها وضخامتها على ما كان لصاحبها من العظمة

بلاد « بُنْت » وشواطئ خليج عدن الجنوبية ، واخرى برية الى شبه جزيرة سينا . ومن ذلك أيضاً ان الملك « إسيسى » أرسل حملة حوالى سنة ٢٦٨٠ ق . م لفتح محاجر وادى الحمامات[١] وارسل حملة اخرى الى بلاد « بُنْت » أيضاً . ثم ان الملك « أُوناس » آخر ملوك هذه الأسرة أيّد سلطانه فى الجنوب الى الجنادل الأولى حيث وُجد اسمه منقوشاً على الصخور مشفوعاً بلقب « رب البلاد » . وقد تركت هذه الأسرة مقابر عديدة على غاية من الابداع فى النقش[٢] بعضها بمنف وبعضها فى جهات شتى فى الوجه القبلى . وآخر أهرامها هرم « أوناس » بسقارة ، وهو منقوش من الداخل بالألوان

الاسرة السادسة

وحافظت مصر فى أيام الاسرة السادسة أيضاً على حضارتها ، غير انه فى عهدها زاد استقلال حكام الأقاليم فصاروا يُعرَفون « بالامراء العظام » وأصبح كل منهم يُدفن بموطنه بعد أن كانت قبورهم ملتفّة حول قبر مليكهم . ومع هذا لم تزل للملك الكلمة العليا عليهم ، بل تمكن بمساعدتهم من تنفيذ سياسة خارجية ما كانت تتمّ الا بالقوة والبأس الشديد . فمن ذلك ان « بيبي الأول » ثالث ملوك هذه الأسرة (٢٥٩٠ — ٢٥٧٠ ق.م) بسط نفوذه فى بلاد النوبة حتى جعلها تمد جيشه بالرجال . وقد أرسل حملة الى فلسطين وفينيقية وعدة حملات اخرى لتأديب قبائل البدو الشمالية الذين تعدوا حدود مصر الشرقية . ثم حذا حذوه ابنه « مَرْنِرَع »

---

(١) هذا الوادى يمتد بين قنا على النيل وبين القصير على البحر الاحمر

(٢) قارن هذه باهرام الاسرة الرابعة التى لم تتوقف عظمتها على جمال نقشها بل على ضخامة احجارها ودقة صنعها

فتمكن بمساعدة امراء « إلِفَنْتِين » الاشداء من حفر قناة فى حجر الصوان بالقرب من الجنادل الاولى تسهيلاً لارسال الحملات الى بلاد النوبة . وكانت فائدة هذه البلاد لمصر قد زادت ، لاستخراج معدن الذهب منها ولكونها الطريق الموصل إلى بلاد بنت والسودان ، ولذلك قام «مرنرع » بالاستكشاف عن تلك الجهات بنفسه ، فوفد اليهِ كثير من رؤسائها لتقديم الطاعة

وفى عهد « بيبى الثانى » (٢٥٦٥ — ٢٤٧٦) الذى حكم البلاد نيفا وتسعين سنة (وهو أطول زمن تولاه ملك فى التاريخ) استمر ارسال الحملات الى داخل إفريقية وخصوصاً ما كان منها بقيادة « حَرْخُوف » أمير «الفَنْتِين» ذلك الذى منحهُ الملك لقب «حاكم البلاد الأجنبية» . وفى هذا العهد بسطت مصر بعض السيادة على بلاد النوبة ، وكشفت جهات الجنادل العليا ، فكان ذلك تمهيداً لطريق الاستيلاء التام على بلاد النوبة فيما بعد . ولبثت الغزوات تتوالى طول هذا العهد على بلاد « بُنْت » وتعود الى مصر بكثير من الخيرات

ولما توفى « بيبى الثـانى » تولى المُلْك من بعده عدة ملوك حكموا مدداً قصيرة ، وتاريخهم غامض . وكانت قوة الملِك فى أيامهم قد بلغت منزلة من الضعف أصبح فيهـا عاجزاً عن ضبط ولاته ، ولم تلبث الاسرة السادسة أن انقضت واستقلت الأقاليم المصرية بتدبير شؤونها بنفسها ، فبعد ان كانت البلاد فى قبضة ملك واحد اصبح يحكمها عدد من الامراء يتنازعون الأمر فيما بينهم . فوقعت مصر فى مثل تلك الفوضى التى انقذها منها « مينا » بعد ان قضت فى بحبوحة المجد نحو الف سنة

وقد كان العصر الأخير من أيام الأسرة السادسة مظلماً جداً، لم يبلغنا شيء واضح من أخباره . ويفهم مما تقدم انه كان عصر حروب وفتن داخلية طويلة نشأت من عظم نفوذ الأشراف وانتهت بسقوط الاسرة السادسة التى تعد فى الحقيقة آخر الدولة القديمة . ومن ملوك هذه الاسرة الملكة « نيتوكريس » التى أتمت هرم الجيزة الثالث ، وتحكى عنها أقاصيص كثيرة لم يثبتها الاستكشاف بعد . ثم حكمت مصر الاسرة السابعة ثم الثامنة ، ولم يصلنا من أخبارهم سوى أسماء ملوكهم

سقوط الدولة القديمة

الفصل الخامس

الدولة الوسطى

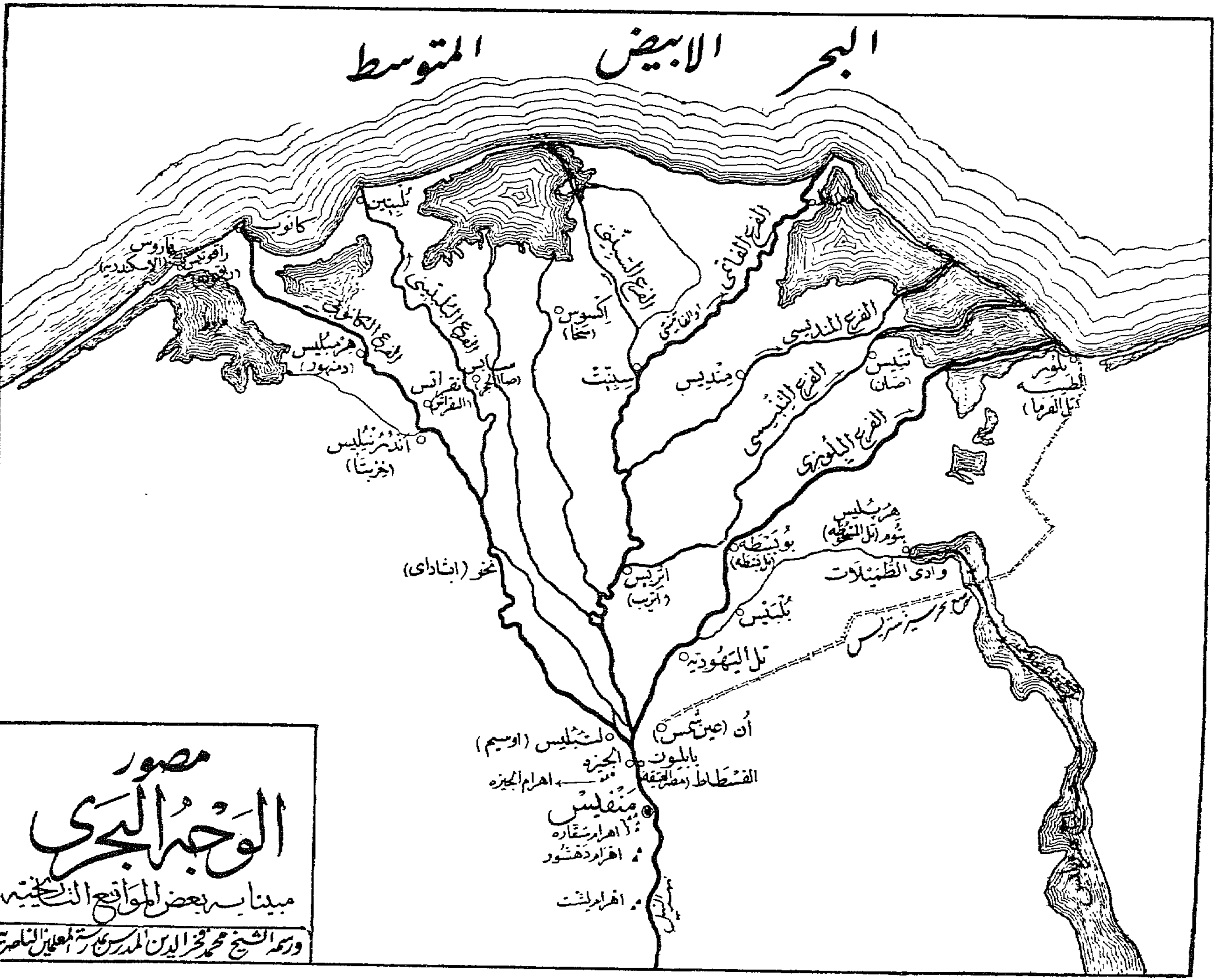
« العهد الإقطاعى »

(٢١٦٠ — ١٧٨٨ ق . م .)

قضت على الدولة القديمة الفتن الداخليـة التى ابتدأت فى أواخر الأسرة السادسة . وبفناء الاسرة الثامنة انتهت تلك المدة الطويلة التى كانت فيها منف مقراً للحكومة ، وذلك أن الاشراف والامراء الذين كانوا يقيمون فى أقاليم مصر المختلفه اخذت قوتهم فى الازدياد الى ان أفضى أمر أسرة منهم الى التغلب على ملوك الاسرة الثامنة الضعفاء ، فنزعوا منهم الملك وجعلوا مقره فى « هرَقْلُو بوليس » جنوبى الفيوم وهي المدينـة التى نشئوا فيها . وبذلك ابتدأت « الاسرتان التاسعة والعاشرة »* . أما مؤسس

الاسرتان التاسعة والعاشرة

* هكذا سمّى مانيتون ملوك هذه المدة


البحر الابيض المتوسط
مصور
الوجه البحري
مبين به بعض المواقع التاريخية
ورسمه الشيخ محمد فخر الدين المدرس بمدرسة المعلمين الناصرية
الفرع الكانوبي
الفرع البلبيتي
الفرع السبنيتي
الفرع الفاتني
الفرع المنديسي
الفرع التنيسي
الفرع البلوزي
كانوب
بلبيتين
هرموبليس
(دمنهور)
نقراتس
اندروبليس
(خربتا)
اكسوس
(سخا)
سبنيت
منديس
تنيس
(صان)
بلوز
تل الفرما
بوبسطه
(تل بسطه)
وادي الطميلات
بلبيس
تل اليهودية
اتريبس
(اتريب)
نخو (ابشادي)
أن (عين شمس)
لتبليس (اوسيم)
بابلون
الجيزه
الفسطاط
اهرام الجيزه
منفيس
اهرام سقاره
اهرام دهشور
اهرام لشت

هاتين الأسرتين فهو « خيتى الأول » أو (أخْتُويس)، ولكن ملوكهما كانوا ضعفاء، ولم يتركوا وراءهم أى آثار باقية تخلد ذكرهم . ولبثت سطوة أمراء النواحى فى أيامهم على أشدّها . وهم فى ذلك فريقان : فريق حانق على الملوك شديد العداوة لهم، وفريق مُزْدلِف اليهم مظاهر لهم على عدوهم، ومن هؤلاء أمراء أسيوط فانهم كانوا مقرّبين جدًّا من بيت الملك وكثيرا ما أفادوا الملك بحماية الحدود الجنوبيـة ، وقد عيّن أحدهم « قائداً حربياً لمصر الوسطى »

الاسرة الحادية عشرة

وفى ذلك الوقت كانت إحدى الأسرات الأخرى من أمراء الجنوب آخذة فى النهوض وهم أمراء «طيبة» بالقرب من مدينة «الاقصر» الحالية، فما زال يشتـد أزرهم حتى أعلنوا استقلالهم، ثم أسسوا الأسرة « الحادية عشرة » التى أخذت فى توسيع نطاق ملكها زاحفة من الجنوب الى الشمال حتى خضعت لها البلاد بأجمعها

أما ملوك هذه الأسرة فكان بعضهم يسمى باسم (أَنْتِف) وبعضهم يُدعى « مِنْتُوحُتِب » . ومما يؤثر عن آخرهم وهو « سِنخْرَعْ مِنْتُوحُتِب » أنهُ أرسل حملة الى بلاد « بُنْت » عن طريق البحر الأحمر

انتقال مقر الحكومة الى طيبة

وانقضت أيام هذه الأسرة حوالى سنة ٢٠٠٠ ق . م . ولم يترك ملوكها وراءهم من الآثار إلاَّ قليلاً ومعظمهُ لم يدُم الى زماننا . وأهم ما يعرف عن هذه الأسرة أنهـا نقلت مقر الحـكومة من شمالى مصر الى جنوبيها (فى طيبة) ومهدت الطريق لبلوغ مدينة طيبة تلك الدرجة المشهورة فى الرقىّ والحضارة مما جعلها الآن أغنى مدينة قديمة بالآثار فى جميع أنحاء المعمورة

أسس « امنِمْحَعَت الأول »* الأسرة الثانية عشرة بعد حروب طويلة . وكان عند ابتداء حكمه قد بلغ أمراء الأقاليم مبلغاً عظيماً من الثروة والسلطان وصارت لهم قوّة يُخشى بأسها لا يمكن للملك قهرها بالشدة والعنف . وأدرك ذلك « امنمحعت » نخادعهم بالهدايا النفيسة ووعدهم الوعود الجميلة ، وبهذه الوسيلة استخدمهم فى فتح الفتوح وتنظيم البلاد

وقبل أن ندخل فى الكلام على تاريخ الأسرة الثانية عشرة التى كان عصرها من أزهى العصور المصرية نذكر شيئاً عن الحالة العامة لمصر فى تلك المدة التى ابتدأت بظهور شوكة هؤلاء الأمراء وانتهت بانتهائها ، وهى ما يسمى بالعهد الإقطاعى

﴿ مجمل حالة مصر فى العهد الإقطاعى ﴾

كانت مصر فى هذه المدة مقسمة الى أقسام أو ولايات صغيرة يحكم كلاً منها أمير ، وهؤلاء الأمراء لم يتولوا مناصبهم بأمر الملك بل بطريق الوراثة عن آبائهم ، فلم يُعتَبَروا من أرباب الوظائف فى سلطانه بحالة ما ، غير أن جميعهم كانوا يشعرون بواجب الولاء لفرعون مصر وعزيزها ، ينصرونهُ اذا حارب ، ويمدونهُ بالرجال والمال اذا كان فى حاجة اليها

حالة الامراء

ولما مضت عليهم الأجيال الطويلة وهم سائرون على هذا النظام قويت شوكتهم وأصبح الواحد منهم فى ولايته فرعوناً صغيراً فى نفسه ، له من رجال البلاط وأمناء الخزائن وقضاة المحاكم وعملة الدواوين وكتّابها أمثال من لفرعون مصر الأكبر ، وكان كل أمير منهم مسئولاً أمام

* ويسمى أيضاً « أمِنِمْهات »

ضميره عن مصالح قومه ، وقصارى أمله أن يترك بعده الذكر الحسن فيهم

ولم تكن جميع الأراضى التى يحكمها كل أمير من الأمراء ملكاً خالصاً له يرثها عن سلفه ويورثها خلفه بل كان منها أجزاء يهبها المليك الأكبر طُعْمَةً لهم يحكمونها طول حياتهم. وهذه الأراضى كان يهديها اليهم على هيئة « إقطاعات » تعطى لهم عند وفاة سلفهم . ولهذا سُمّى ذلك العصر بعهد الاقطاعات أو « العهد الإقطاعى »

علاقتهم بالملك

وهذه هى الوسيلة التى بها استطاع الملك أن يكون له بعض النفوذ عليهم وأن يكون له فى إماراتهم من الوكلاء والسفراء من يوقّفونهُ على أحوال أمته حتى يتهيأ له ضبط ملكه والنظر فى مصالح بلاده ، غير أن سلطة هؤلاء الوكلاء والسفراء لم تخرج عن حد المراقبة ، فكان الأمراء هم الذين يرسلون بأنفسهم ما يأخذه الملك من ريع البلاد وخراجها وكانت هذه العلاقة بينهم وبين بيت المال اكبر رابطة تربطهم بالملك وتربط أنحاء البلاد بعضها ببعض

مبدأ اعداد الجيوش القائمة بمصر

ولم يرَ ملوك مصر إزاء هذه الحالة بُدًّا من أن يحيطوا أنفسهم بالحرس والأعوان لحمايتهم وحفظ شوكتهم وتنفيذ رغباتهم ، فكان ذلك مبدأ إعداد الجيوش القائمة فى مصر

وكان للأمراء رجال من هذا القبيل يقودونهم الى ساحة القتال فينضمون الى رجال الملك اذا استمدهم فى حروبه

الطبقة الوسطى

أما الطبقة الوسطى من الأمة فكانت فى هذه العصور رائجة السوق كثيرة العدد ، لكثرة الحاجة اليهم ، وذلك لنموّ قوّة الأمراء فى أنحاء البلاد وازدياد حاجاتهم المكملة لمعيشة الترف والأبّهة ، فزاد بذلك عدد النقّاشين

والحفَّارين والنجَّارين وغيرهم من أصحاب الحِرَف الدقيقة ، كما زاد عدد التجَّار والموظفين . ومما امتازت بهِ أهل هذه الطبقة على أفراد الطبقة السفلى معرفتهم بالقراءة والكتابة . ومن ابتداء ذلك الوقت نجد للكاتب أهمية كبيرة ، فتراه يفتخر بعلمه ويفضل مهنته على غيرها

اهمية الكاتب

وأما طبقة العامة والدهماء من ألوف الألوف المشتغلين بالحِرَف الصغيرة وبزراعة الأرض التي هي أساس ثروة البلاد فكانوا أمّيين محتقَرين. والظاهر أنهم كانوا موالى للأمير الحاكم فى الأمارة التى يعيشون فيها ، وأن معظم مايُفيدونه كان لحاجة الأمير وحاشيته ، وأنهم لم يتجروا بشيء فى الأسواق إلاَّ القليل

الطبقة الأخيرة

وهذا النظام بما فيـهِ من علاقة طبقات الأمة بعضها ببعض يشبه النظام الذى ساد فى أوربا فى القرون الوسطى ، ولذلك سمى كل منهما بالنظام الإقطاعى

الشبه بين النظام الاقطاعى فى الدولة الوسطى المصرية ومثله فى القرون الوسطى باوربا

الأسرة الثانية عشرة (٢٠٠٠ — ١٧٨٨ ق م)

امنمحعت الاول

ان عصر هذه الأسرة هو أزهى عصور الدولة الوسطى ، فكانت فيهِ البلاد فى أعلى درجات الرخاء والسعادة وفيهِ أحييت العلوم والفنون واتسعت أملاك مصر فى وادى النيل وتقدمت الزراعة وشيدت العمارات . ومؤسس هذه الأسرة هو « أمنمْحَعَت الأول » (٢٠٠٠ — ١٩٧٠ ق م) . وقد تغلب على المصاعب الكبيرة التى لاقاها فى اصلاح البلاد وتنظيمها بعد أن عبثت بها يد الفتن والحروب الداخلية . وباستيلائه على عرش مصر نقل مقر حكومته من طيبة الى جهة متوسطة بالقرب من « اللّشْت » على بعد

٢٥ ميلاً من جنوبى منف . وقد ترك وراءه من الآثار فى جميع أنحاء مصر ما يشهد له بالجدّ والسعى وراء مصلحة بلاده . ومن أعماله استخراج المعادن من المناجم الممتدة فى الصحراء الى شبه جزيرة سينا وقطع الأحجار من المحاجر العديدة ولا سيما ما كان واقعاً منها بجهة « الحمامات » . وأرسل حملة الى بلاد النوبة فأخضعت بلاد « الواوات[١] » الى كروسكو ، حيث كان يوجد الذهب بكثرة . وبعد أن حكم البلاد وحده عشرين عاماً أشرك ابنه « أُسِرْتَسِن الأول » فى الملك بقصد تدريبه على ادارة شؤون البلاد . ولما طعن امنمحعت فى السنّ وشعر بقرب منيَّته قدَّم لابنه « أسرتسن » مجموعة نصائح مفيدة أوصاه فيها بالعناية برعيته ، وحذَّرهُ ممن يلتفون حوله من كافرى النعمة ذاكراً له ما جرى له : من أن جماعة من خدمة قصرهِ حاولوا قتله لولا أن كُشف أمرهم

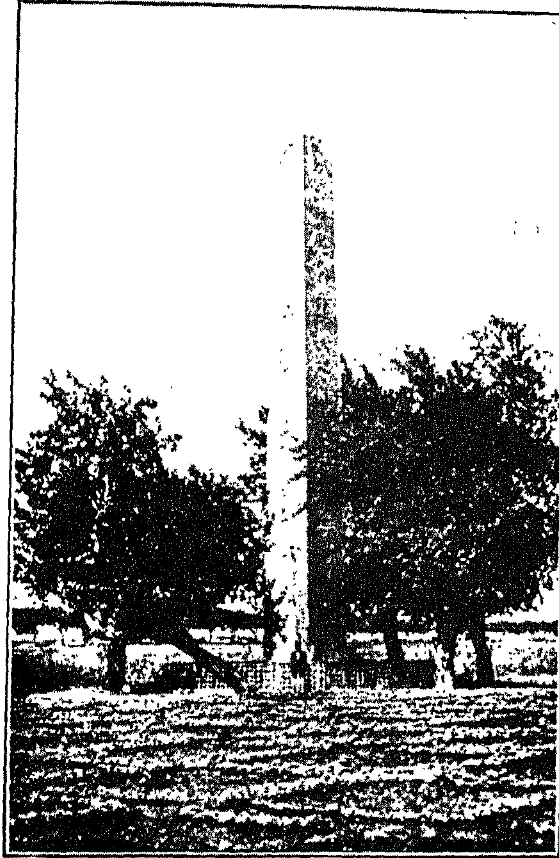
اسرتسن الاول

وتوفى امنمحعت الأول بعد أن حكم ثلاثين عاماً ، فخلفه ابنه « أُسِرْتَسن الأول » (١٩٨٠ — ١٩٣٥ ق م) بعد أن تدرَّب على الملك عشر سنين كان فى أثنائها شريكاً عاملاً لأبيه وقاد فيها الجيوش بنفسه لتأديب اللوبيين واخضاع النوبة . واشتهر منذ صغره بالشجاعة والقوة . وبعد وفاة والده قام بأمر الملك خير قيام وحفظ عظمة الأسرة أثناء حكمه الطويل الذى دام خمساً وأربعين سنة[٢] . ومن أشهر آثاره المخلفة مسلة عين شمس التى ما زالت بتلك الجهة الى الآن . وبدأ أيضاً مشروع خزان بحيرة موريس ، وسنشرحه عند الكلام على « امنمحعت الثالث » الذى

مسلة عين شمس

(١) شمالىّ النوبة

(٢) بما فى ذلك عشر السنوات التى حكمها مع أبيه



(مسلة عين شمس)

رسم محمد افندى على سعودى

تمَّ على يديه . ومن أعماله أيضاً أنهُ بنى معبداً بجهة وادى حلفا ودوَّن على بلاطة فيهِ انتصاراته على قبائل النوبة . ومن الأمراء المقربين منه «أمِينِى» وله مقبرة جميلة بجهة بنى حسن . وقد وُجد هرمه وهرم أبيه بجهة « اللّشْت»

ثم تولى الملك « امنمحعت الثانى » (١٩٣٨ — ١٩٠٣ ق م) فجنى ثمـار فتوح سلفه وحكم البلاد فى هدو وسكينة ، وعند وفاته دفن بهرمه بدهشور

وتبعه « أُسرتسن الثانى » وله هرم بجهة « اللاَّهُون » بالفيوم . وقد عُثر فى هذا الهرم قريباً على بعض حُلِىّ من أجمل ما وصل الينا من صنع العالم القديم

وبعد « أُسرتسن الثانى » تولى « أسرتسن الثالث » (١٨٨٧ — ١٨٤٩ ق م) وكان شديد البأس مولعاً بالحروب . غزا بعض جهات سورية وأتمّ الحروب فى بلاد النوبة فمدّ الحدود المصرية الى ما وراء الجنادل الثانية وشيَّد لحمايتها قلعتين بنقطتى « سِمِنْة » و « قُمَّة » (خُمّة) وأمر السودان بألاَّ يتجاوزوا ذلك الحد برًّا أو بحراً ما لم يكن ذلك بقصد التجارة وفى هذه الحالة كانوا يعاملَون بالحسنى . ومن أعماله أنه لوقوف الجنادل عقبة فى سبيل المِلاحة حفر فى صخرها المحبب مجرى تعبر منه السفن الكبيرة فتيسر بذلك مجاوزة السفن الى ما وراء الجنادل الأولى . ومن أعماله أيضاً أنهُ وصل النيل والبحر الاحمر بخليج يعُرف « بخليج سيزُوستريس » * . وأيامه من أزهى عصور اللغة المصرية القديمة . وفى عهده أخذت شوكة الاشراف فى الاضمحلال . أما هرم هـذا الملك فبجهة دهشور ، وقد وُجدت بالقرب منه حلى بديعة لبعض أميرات أسرته

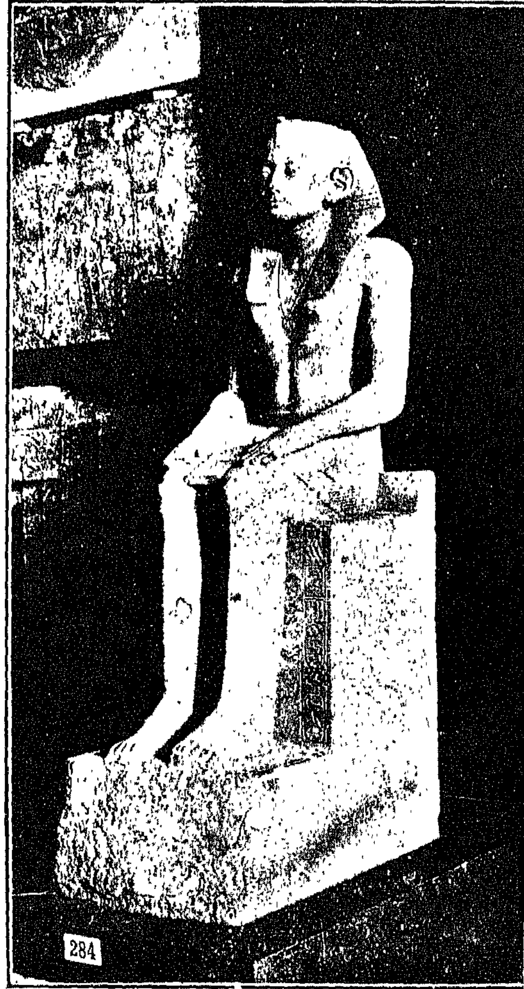
امنمحعت الثالث

وبعد ان توفى خَلَفَهُ « امنمحعت الثالث » (١٨٤٩ — ١٨٠١ ق م) وقد خلَّد ذكره فى التاريخ بأعماله السلمية المفيدة . وفى أيامه بلغت الدولة الوسطى أقصى درجات مجدها . وكادت تفنى فى عهده قوة الأشراف بعد ان أخذت فى الاضمحلال فى أيام سلفه ، وقد تمّت على يديهِ عدة مشروعات

---

* هذا أيضاً من الأسماء التى أُطلقت على « أسرتسن » . وقد أطلق أيضاً على رمسيس الاكبر

سلمية زادت كثيرًا فى ثروة البلاد ، ففى أيامهِ نُظّمت مناجم سينا وصارت ينبوعًا مستمرًا للثروة ، وأُنشئ بجهة « سِمنة » مقيـاس للنيل ينبئ عن حال الفيضان فتجبى الضرائب بمقتضاه



(تمثال امنمحعت الثالث)

(بدار الآثار المصرية) رسم محمد افندى على سعودى

أدرك امنمحعت الثالث توقف فَلَاح مصر على جودة ريّها ، فقام

بمشروع عظيم لخزن مياه الفيضان حتى يُنتفع بها فى أوقات هبوط النيل.

خزان بحيرة موريس وتوسيع اراضى الفيوم

وذلك انهُ لما رأى انخفاض اقليم الفيوم عن سطح النيل وأن مياه الفيضان تغمره كل عام فتقلبه الى بحيرة عظيمة أقام حول جزء منهُ سوراً عظيماً ، فصار هذا الجزء بمثابة خزان كبير ترد اليهِ المياه وقت ارتفاع النيل بواسطة ترعة (١) وتخرج منـهُ أيام انخفاضه بترعة أُخرى فتروى أراضى الوجه البحرى (٢) . وبهذه الطريقة أيضاً انحسرت مياه النيل عن كثير من البقاع التى كان يغمرها الفيضان فى الفيوم كل عام ، فأصبحت صالحة للزراعة . ومن ذلك العهد صارت الفيوم مقرًّا لملوك هذه الأسرة . وقد أدرك بعض من سبقه من ملوك الأسرة الثانية عشرة ثمرة هذا المشروع ، ولكن الفضل الأكبر فى انجازه راجع الى هذا الملك العظيم الذى كان من صغره مولعاً بمراقبة مدّ النيل ورصده

قصر لابرنت

وقد شيَّد أمنمحعت على شاطئ الترعة التى ترد منها المياه الى الخزان ذلك البناء العجيب المسمى «لابِرَنْت» الذى اشتهر فى قديم الزمان ببداعته، ولم يبقَ منهُ الآن إلاَّ بعض أحجار بالقرب من هرم اللاهون . على ان «هيرودوت» المؤرخ اليونانى قال عنهُ : انهُ يحتوى على ثلاثة آلاف محل ما بين حجرة ورَدْهة نصفها تحت الأرض والنصف الآخر فوقها عدا ثمانى ساحات مسقفة متقابلة الأبواب . والظاهر انهُ كان مقرًّا للحكومة تُدار منهُ جميع البلاد

---

(١) هذا الخزان هو المعروف ببحيرة موريس والترعة هى المسماة الآن بحر يوسف

(٢) دلّت الاحصاءات الحديثـة على ان المياه التى كانت تخزن بهذه الطريقة تكفى لجعل مياه النيل فى المائة اليوم الأوائل من انخفاضه ضعف ما تكون عليه بدونها

وفى عهد امنمحمت أيضاً نُظّمت التجارة ووُضعتْ وحدة مشتركة لقياس قيمة ما يشرى وما يباع ، وهى عبارة عن وزن خاص من النحاس وكانت تسمى «دِبن». وبالاختصار كانت أيامه أيام سعادة ورخاء فى جميع أنحاء البلاد . وبوفاته دُفن بهرمه بدَهْشور ، وكأنّ حظ مصر قد دُفن معهُ

فحكم من بعده «امنمحمت الرابع» ثم الملكة «سِبِكْنِفرُورَع» ولكن مدتهما كانت قصيرة ، وأخذت فيها البلاد تتقهقر تقهقراً سريعاً حتى انتهت أيام الأسرة الثانية عشرة بعد ان استمرَّت نحو ٢١٣ سنة

﴿ اضمحلال الدولة الوسطى ﴾

أتى بعد أيام الأسرة الثانية عشرة عصر مظلم جداً امتدّ الى ظهور الدولة الحديثة . ومعظم ما نعرفه عن هذا العصر مستمد من القصص الدينية ومن الفروض التى لم تثبت للآن

الاسرة الثالثة عشرة

جلس أوّل ملوك الأسرة الثالثة عشرة على عرش مصر بدون فتن واضطراب ، ولكنهُ فُصل عن عرشه بعد ان حكم خمس سنوات فقط، فتبع ذلك عصر شقاق وفتن بين أمراء الأقاليم الذين كان يحارب بعضهم بعضاً فى التنازع على تولى المُلك . وقد يتغلب أحدهم على غيره ويقبض على صولجان المُلك فلا يلبث ان يظهر عليهِ آخر فيغلبه على أمره . نعم قد حكم بعضهم زمناً طويلاً ولكن معظمهم لم تزد مدة أحدهم على عام أو عامين ومنهم من حكم مدة ثلاثة أيام فقط . ولم يترك ملوك هذا العهد شيئاً من الآثار يُذكر بسبب اشتغالهم بالحروب ، ولذلك لم نقف على كثير من أعمالهم . ولما كانت البلاد على هذه الحال من الشقاق والانقسام كان من السهل أن تقع غنيمة

باردة فى أيدى الفاتحين من الأجانب ، ففى أواخر أيام الأسرة الثالثة عشرة (حوالى ١٦٥٧ ق.م) ابتدأت اغارة قوم فاتحين من آسيا لم يُعلم للآن أصل منشئهم يقيناً ، وهؤلاء الفاتحون هم الذين يُعرَفون الآن « بالهكْسُوس » أو « ملوك الرُّعاة »*. ومما قيل فى اطلاق هذا الاسم عليهم أن المصريين لما تغلبوا عليهم فى آخر الأمر وطردوهم الى بلادهم كانوا يذكرونهم بالاحتقار والازدراء فلقبوهم « بالأجناس البربرية » و « بالكفرة » و « بالرعاة » أى الذين يرعون الغنم . وأرجح ما قيل فى أصلهم أنهم قوم نشئوا من اختلاط العرب بالفينيقيين وربما كانوا من قبائل البدو المحالفين لملوك قادش (وهؤلاء الملوك هم الذين قاوَموا « تحتْمُس الثالث » أشدّ مقاومة عند توسيعه نطاق الأملاك المصرية كما سيأتى بيانه فى الكلام على الدولة الحديثة)

وتُلخص الأسباب التى سهلت دخول الهكسوس مصر فيما يأتى :

(١) عدم السير على نظام ثابت فى الرى مما دعا دوام المشاحنة بين الأشراف

(٢) كثرة الضرائب الباهظة

(٣) شدة استبداد الأحزاب المختلفة وظلمهم

الاسرة الرابعة عشرة

ولما دخل الهكسوس مصر أسسوا بلدة لهم بالوجه البحرى تدعى « أوَارِيس » (هوَّارَة) لا يُعلم مكانها بعد باليقين ، وجعلوها مقرًّا لحكمهم. ولما انقرضت الأسرة الثالثة عشرة وخلفتها الأسرة الرابعة عشرة كان ملوكها مصريين كذلك وكان مقر حكومتهم مدينة « إكْسُويس »

---

* وهم الذين يسمون فى كتب العرب بالعمالقة . وقيل ان كلمة « هكسوس » لا يقصد بها « رعاة » وان اطلاق هذا الاسم عليهم من باب الخطأ

(سخا) بالوجه البحرى أيضاً . غير أنهم كانوا أشبه بولاة للهكسوس

وما زال نفوذ الهكسوس يزداد عاماً فعاماً حتى أخضعوا جميع البلاد فدفعت لهم الجزية

الاسرتان الخامسة عشرة والسادسة عشرة من الهكسوس

ولما انقضت الأسرة الرابعة عشرة قبضوا على زمام الملْك، ولذلك اعتبرت الأسرتان الخامسة عشرة والسادسة عشرة فى تاريخ مصر من هؤلاء الملوك الرعاة

وكانوا فى أول أمرهم ظالمين كثيرى الاعتداء على المصريين ولكنهم عدلوا عن ذلك فيما بعد وتطبعوا بكثير من الطباع المصرية وشيدوا كثيرًا من المعابد والمبانى واتخذوا لهم معبوداً جمع بين معبودهم الأصلى وأحد آلهة المصريين

ولو وصلت الينا الآثار التى تركوها أو النقوش التى عليها لعرفنا كثيرًا من أخبارهم . ولكن المصريين بعد أن طردوهم من البلاد عبثوا بمعابدهم وعفَّوْا آثارهم ، وكلّ أثر لم يمحوه أزالوا منهُ النقوش والمعالم التى تدل على أنهُ للهكسوس

ويقال إن قدوم سيدنا يوسف عليه السلام الى مصر وحدوث ماحدث له كان فى عهد الأسرة السادسة عشرة

وعلى توالى الأيام أخذ ملوك الهكسوس فى الاضمحلال . وفى زمن الأسرة السابعة عشرة انقسمت مصر الى عدة ولايات صغيرة كانت «طيبة» أهمها . فانتهز أمراء طيبة هذه الفرصة وشقوا عصا الطاعة على الهكسوس وما زال المصريون يحاربونهم حتى طردوهم من مصر ، وبذا تكوّنت الأسرة الثامنة عشرة وهى مبدأ الدولة الحديثة

وقد كان لدخول الهكسوس فى مصر وبقائهم فيها مدة تأثير كبير فى المصريين . فالهكسوس هم الذين أدخلوا الخيل فى مصر ومنهم تعلم المصريون الفنون الحربية وتعبئة الجيوش الجرارة ، فمهما نال المصريين من مظالمهم فقد اكتسبوا منهم مزايا لا تُحصى

الفصل السادس

الدولة الحديثة

(١٥٨٠ — ١١٥٠ ق . م)

﴿ امتداد سلطة مصر على غيرها من البلدان ﴾

تمهيد

تعلّم المصريون فن الحرب أثناء مكافحتهم للهكسوس فتهيأتْ بذلك مصر للدخول فى طور حربى عظيم وسّعت فيه أملاكها ومدّت نفوذها على كثير من الممالك المجاورة لها ، وبلغ هذا المجد أقصاه فى عهد « تُحُتْمُس الثالث » و « أمِنْحُتِب الثالث » من ملوك الأسرة الثامنة عشرة غير أنهُ فى أواخر أيام هذه الأسرة تولى المُلْك رجل ضعيف السياسة تلهّى بالمباحث الدينية عن شؤون الدولة فلحقها الضعف من كل جانب ، لولا أن أتاح الله لها رجالاً أشداء فى الأسرة التاسعة عشرة أنقذوها من هذا السقوط ، ولكن بعد أيام رمسيس الثانى انقضى ذلك الدور أيضاً ودخلت مصر فى دور اضمحلال مستمر . وقد استفحل هذا الخطب بنهوض الأمم المجاورة لها من جهة ، وخمود الروح الحربية من المصريين من جهة أخرى

﴿ الأسرة الثامنة عشرة ﴾

(١٥٨٠ — ١٣٥٠ ق . م)

يظهر أن الأسرة الثامنة عشرة كانت لها قرابة بالسابعة عشرة . وأول غرض رمى اليها ملوكها استئصال شأفة الهكسوس فقام « أَحْمِس » (أحَعْمِس) مؤسس هذه الأسرة وغزاهم فى عاصمتهم أَواريس وطردهم منها ثم اقتفى أثرهم وغزاهم ثانية فى « شارُوهين » بالجنوب الغربى من فِلَسطين فافتتحها بعد حصار دام ثلاث سنوات . وقد قام هذا الملك أيضاً بحروب فى الشام وأخرى ببلاد النوبة ، ذلك الى الحروب التى انتصر فيها على الأمراء الوطنيين الذين حاولوا أن ينازعوه فى السلطة ، وفى الحقيقة انهُ أفنى معظمهم فلم يبقَ منهم إلا أعوانه المخاصون مثل أمير « الكاب » وباستيلائه على المُلك صارت جميع الأراضى مِلكاً خاصًّا للملِك

أما الملِك الذى خلفه فهو « أمِنْحَتِب الأوّل » ، وله غزوات بالشام والنوبة . وفى سنة ١٥٤٠ ق.م خلفه «تُحُتْمُس الأوّل» (طُوطْمِيس الأوّل) . وقد انتصر تحتمس عدة مرار فى حروبهِ التى شنَّها على الشام وبلاد النُّوبة وأرض الجزيرة (ما بين النهرين) . وفى هذا الوقت كان قد مضى على مصر نحو ثلاثين سنة لم يحدث فيها اضطراب أو فتن داخلية ، فصار للحكومة من القوّة والثروة ما يؤهلها للدخول فى ذلك الطَّوْر الحربى العظيم الذى تهيأت لها فيهِ تلك الفُتوح الكبرى الآتى ذكرها بعدُ . وقد ساعدها على ذلك استقلال الملِك بالأمر وإضعافه ما كان للأمراء من النفوذ والعظمة فى أيام العهد الإقطاعى

تحتمس الاول وفتوحاته

بدأ « تحتمس » بإخضاع بلاد الكوش (النوبة) فأدخلها فى طاعته ، وكانت هذه البلاد تمتد من « نباتا » بالقرب من الجنادل الرابعة (الشلال الرابع) جنوباً الى مدينة « الكاب » شمالاً . ثم صرف عزمه الى الشام فغزاها ، وساق جيوشه حتى أوردها نهر « الفرات » حيث نقش تذكاراً لهذا الحادث. ولم يصلنا شيء كثير من أخبار هذه الحروب المكللة بالظفر، وانما الراجح أن نفقاتها لم تكن باهظة ، وأن المصريين كانوا يعودون منها بالأسرى والغنائم الكثيرة ، فيزيدون فى ثروة البلاد

ووجّه « تحتمس » شيئاً من عنايته أيضاً الى المبانى ، فزاد كثيراً فى معبد «الكرنك» * . وعند وفاته دُفن بوادى مقابر الملوك بطيبة الذى يعرف الآن « ببيبان الملوك » فكان هو الأول لعدد عظيم من الفراعنة الذين دُفنوا بهذه البقعة

وفى أواخر أيامه حدث تنازع بشأن العرش ، فجلس عليه ابنه « تحتمس الثانى » مدة وجيزة لم يكن له فيها أثر يذكر. ثم آل الملك الى بنته (بنت تحتمس الأوّل) « حَتْشِبْسُوت » (حاتاسُو) بالاشتراك مع « تحتمس الثالث »

الملكة حتشبسوت

وكانت « حتشبسوت » على جانب كبير من قوّة البأس ، فما لبثت أن استأثرت بالسلطة وسلبت من « تحتمس الثالث » كل أمر . وساعدها على ذلك صغر سنّه ، فخضع لها كما خضعت لها مصر بأسرها . وقد أظهرت

---

* ما يُسمى الآن «معبد الكرنك» هو عبارة عن بناء هائل بجهة قرية الكرنك شُيّدت أجزاؤه على عدة دفعات وكان المعبد الأصلى فى أول الأمر صغيراً وأُسس بمدينة « طيبة » فى عصورها الأولى

أثناء حكمها غروراً عظيماً وتيهاً متناهياً، وتزيّت بزىّ الرجال

وكان جلّ مقاصد هذه الملكة موجهاً للأعمال السامية، فأكثرت من تشييد المبانى ونقشها وتدوين أخبارها ودعاويها العريضة عليها. وأهم ما شيدتهُ معبد «الدير البحرى» الفاخر بجهة طيبة على الجانب الغربى للنيل، وزادت جزءًا فى معبد الكرنك، وأقامت مسلتين عظيمتين عند مدخله

ومما يؤثر عنها أنها أرسلت بعثة بحرية الى بلاد « بُنْت » لإحضار أشجار منها لغرسها بمعبدها المذكور، فنجحت البعثة فى الوجه الذى خرجت له وعادت بالأشجار المطلوبة وغيرها من نفائس تلك البلاد

تحتمس الثالث

وبوفاتها قبض تحتمس الثالث على الملك بعد أن مضى عليهِ منذ تتويجه نحو اثنتين وعشرين سنة خاملاً فيها. وعند ذلك ظهرت مواهبه العظيمة وما عنده من قوّة البأس والثبات والإقدام والمهارة الحربية التى جعلتهُ فى عداد كبار الفاتحين فى العالم القديم

﴿ حروب تحتمس الثالث ﴾

(١٤٧٩ — ١٤٤٧)

كان ببلاد الشام فى تلك المدة عدة ولايات صغيرة غربى سورية، وكانت خاضعة لنفوذ المصريين، ولكن لما مضى على ملوكها زمن طويل لم يروا فيهِ الجيوش المصرية فى بلادهم تكبح جماحهم وتؤدبهم على ما كان يقع منهم من التمرد، شقوا عصا الطاعة جملةً على المصريين بعد وفاة « حتشبسوت »، وكان ملك « قادش » زعيم هذه الحركة. فخرج « تحتمس » من مصر فى أواخر السنة الثانية والعشرين من تتويجه قائداً لجيش عرمرم نزل بهِ بعد

نحو عشرين يوماً على السفح الجنوبى لجبال «الكَرْمِل». وقد كانت جيوش الأعداء المتحدة قد سارت نحو الجنوب يقودها ملك «قادِش»، حتى عسكرت فى «مَجِدُّو»، وهى مدينة منيعة فى السفح الشمالى من جبال «الكَرْمل». فسار تحتمس نحو العدو، وأقسم أن يكون هو فى طليعة الجيش، فحمل بهِ على الاعداء ظاهر المدينة، فولوا مذعورين اليها تاركين معظم النفائس التى بمعسكر ملك «قادش» غنيمة باردة للمصريين



تحتمس الثالث

(بدار الآثار المصرية)

رسم محمد افندى على سعودى

موقعة مجدّو

ثم حاصر تحتمس مدينة «مجدّو» المذكورة، فسلمت اليهِ بعد بضعة أسابيع

أما الغنائم التى أُخذت من المدينة فكانت أفخر وأنفس من التى أُخذت خارجها *. ثم اتجه نحو الشمال ففتح ثلاث مدن فى السفح الجنوبى لجبل لبنان، وبنى حصناً فى تلك الجهة ليأمن بهِ شر ملك قادش اذا زحف ثانية نحو الجنوب. ثمّ بدأ بتنظيم هذا

* من هذه الغنائم سرادق ملك قادش الفخم و ٩٢٤ عجلة حربية فيها عجلتا ملك قادش وملك مجدُّو و ٢٢٣٨ جواداً و ٢٠٠ درعاً فيها درعا هذين الملكين

الاقليم الذى فتحه ، فعزل ملوك الأسرات القديمة مخافة أن يعاودوا الخروج عليه ، ونصّب مكانهم آخرين

ثم عاد الى مصر بعد أن غاب عنها أقل من ستة شهور ، فكان لعودته أكبرُ سرور فيها ، وأقيمت الحفلات العظيمة ، وقُرّبت القرابين للمعبود أمون* شكراً له وابتهاجاً بهذا الفتح الباهر . ثم أعاد الكرة على هذه البلاد فقمع ثوّارها . وقد طار صيته وذاع نبأ فتوحه الأولى حتى وصل الى مدينة بابل ، وكانت قد ابتدأت تأخذ فى الظهور ، فرأى ملكها ان أحسن سياسة يتبعها أن يتودد لفرعون ، فأهدى اليه الأحجار الكريمة الفاخرة وأرسل اليه الجياد البابلية المُطَهَّمَة ، فوصلت اليه وهو فى ميدان القتال . ثمَّ رجع تحتمس الى مصر وشرع فى التخطيط اللازم لتوسيع معبد الكرنك ، حتى يصير ملائماً لحال الدولة العظيمة التى يرغب فى تكوينها

غزو أرواد

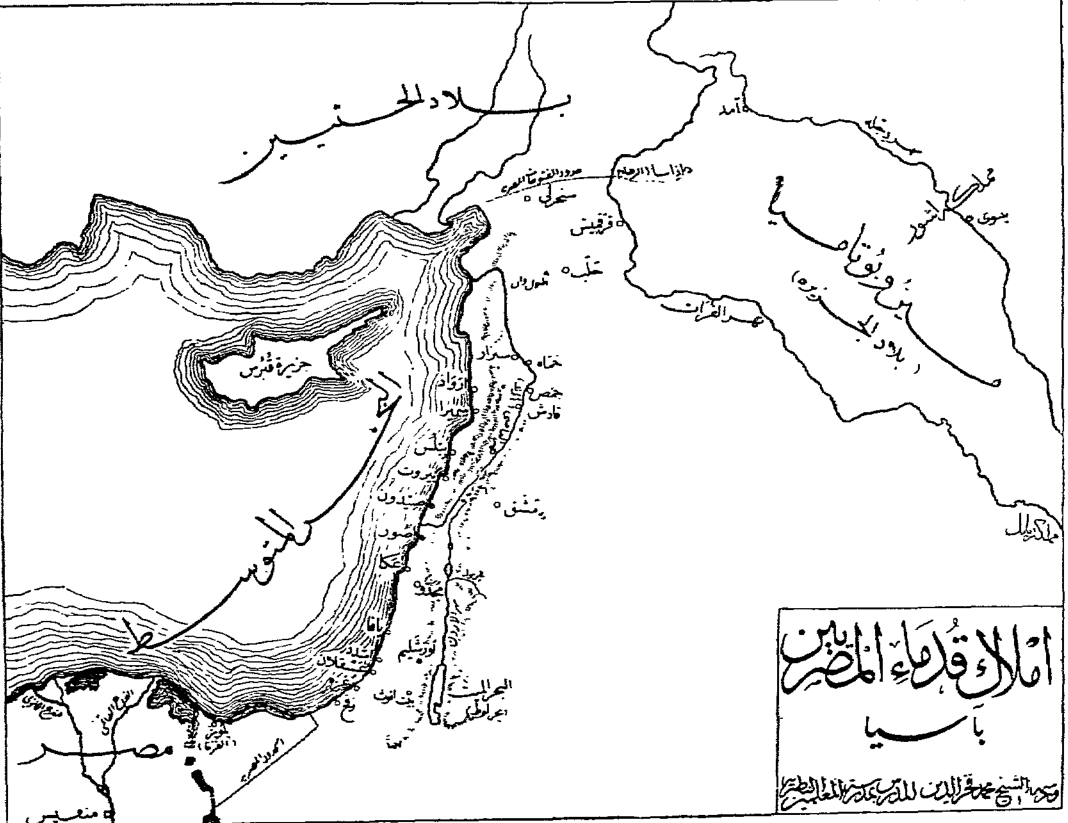
وفى السنة الخامسة والعشرين من حكمه غزا بلاد سورية غزوة ثالثة ، ثمَّ غزاها رابعة . وكانت أهم أعماله فيها تتميم إخضاع البلاد التى فتحها وتنظيمها . ثم أوغل فى الغزوة الخامسة ، ففتح «أرْوَاد» وغيرها من المدن الفينيقية ، وغنم منها ذخائر كثيرة

فتح قادش

وفى الغزوة السادسة حاصر « قادش ». ولمَنَعَة موقعها لم تسلّم له الاَّ بعد حصار طويل ، وكأنَّ طولَ مدة الحصار قد غرّر بأهل مدينة « أرواد » وما جاورها ، فظنوا ان قوة فرعون قد اضمحلت ، فشقوا عصا الطاعة . ولكن « تحتمس » ذهب اليهم فى السنة التالية ، وأدَّبهم وأخذ الجزية من جميع بلاد الشام

---

* راجع ديانة قدماء المصريين



أملاك قدماء المصريين
بآسيا
بلاد الحيثيين
ميزوبوتاميا
(بلاد الجزيرة)
البحر المتوسط
جزيرة قبرص
مصر
منفيس
نهر الفرات
نهر دجلة
آمد
نينوى
قرقميش
حلب
حماه
قادش
أرواد
بيروت
صور
عكا
يافا
دمشق
أورشليم
البحر الميت

وكان «تحتمس» طول هذه المدة يتأهب لغزو «بلاد النهرين» وما جاورها. وفى السنة الثالثة والثلاثين من حكمه مرّ بجيشه من مدينة «قادِش» قاصداً «قَرْقَمِيش»، فتغلب على كل من اعترضهُ فى طريقهِ، ثم عبر نهر «الفُرات»، وأقام وراءه نَصْباً بجانب النَّصْب الذى أقامه «تحتمس الأوَّل» دوّن عليهِ نبأ وصوله الى تلك البقعة. ثم اتجه جنوباً وسار متبعاً مجرى النهر حتى وصل الى مدينة «نِينَوَى»، وبعد ان فتحها لبث ثمة قليلاً للرياضة بتصيُّد الفيلة. وفى غضون ذلك كانت تفد أُمراء بلاد النهرين الى سُرادِقهِ يقدّمون اليهِ الجزية اقراراً بخضوعهم له. وسرى الخوف من بطشهِ الى أهل الممالك المجاورة لأرض الجزيرة جنوباً وشمالا، فبعث ملك بابل على بُعد داره بالتحف والنفائس تزلُّفاً لفرعون، وحذا حذوه فى ذلك أهل «خيتاَ» الذين كانت تمتدّ أملاكهم الى أواسط آسيا الصغرى (والأرجح أنهم هم «الحِثِّيُّون» المذكورون فى التوراة). وكما قويت سطوة جيوش تحتمس البرية كذلك عظمت مهابة أساطيله البحرية، فأصبح ملك «قُبْرُس» أشبه بوال له، وصار الاسطول المصرى يلقى الرعب فى النفوس، فأكسب مصر نفوذاً يمتد من شرقى البحر الأبيض المتوسط الى ما وراء «بحر إيچه»، كما كان له فائدة كبرى فى تسهيل فتوح الشام، فانهُ باستيلائه على الثغور الفينيقية ضمن لتحتمس عدة مراكز منيعة يهاجم منها «قادش» وغيرها من البلاد الداخلية. وهذا أقدم مثال فى التاريخ يؤيد مزايا القوة البحرية، فان «تحتمس» استغرق فى غزوته الأولى ٢١ يوماً للوصول براً من الأراضى المصرية الى «مجدُّو» (وذلك يُعتَبر سيراً سريعاً جداً)، مع انهُ لم يستغرق فى غزواته التالية اكثر من بضعة أيام للوصول الى أى ثغر من الثغور السورية

فتح نينوى

قوت اسطول تحتمس

وقد غزا «تحتمس» فى أيامه الأخيرة بعض غزوات فى بلاد النوبة. وتوفى فى السنة الرابعة والخمسين من حكمه بعد أن ملأ الشرق الأوسط شهرة وعظمة

وكان «تحتمس» ينتهز فرصة فراغه بين حرب وأخرى فيلتفت الى شؤون بلاده الداخلية. وقد أظهر فى ذلك مقدرة عظيمة فى ادارة البلاد وضبطها. فلم تغفل عينه لحظة عن أى جزء من أجزاء دولته العظيمة

ومن آثاره مسلتان عظيمتان أقامهما بعين شمس، ثم نقلتهما «كِلْيُو بَطْرَه» الى الاسكندرية، ولذلك اشتهرتا «بمسلتى كِلْيُو بَطْرَه». واحداهما الآن بلندن والأخرى بنيويرك

وما زالت بعدُ جثة «تحتمس الثالث» بدار العاديات المصرية. وهو أعظم ملوك الدولة الحديثة، وقد قال بعض المؤرخين: انهُ أعظم ملك فى تاريخ مصر بأجمعه

وبعد وفاة تحتمس الثالث تولى الملك ابنه «أَمِنْحُتِب الثانى» (أَمِينُوفيس الثانى)، وكان فى آخر أيامه قد أشركه معه فى الملك. ومن أوائل أعماله أنهُ قاد جيشاً إلى سورية لتمرد أهلها مرة أخرى، فوصل فى سيره الى نهر الفرات، وعاد الى طيبة ومعه غنائم كثيرة وسبعة ملوك اسرى، فذبحهم وعلّق جثث ستة منهم على سور المدينة، وأرسل الجثة السابعة الى «نباتا» حيث نُصبت هنالك لتلقى الرعب فى قلوب الإتيوبيين. وحكم هذا الملك ستة وعشرين سنة، ثم ترك الملك لابنه «تحتمس الرابع». وأشهر ما يعرف من أخباره أنهُ أزال الرمال من حول أبى الهول. وله حروب فى سورية وبلاد الكوش

أمنحتب الثالث

وفى سنة ١٤٠٠ ق . م تولى بعده ابنه «أمنحتب الثالث» (امينوفيس الثالث) . وكان من أعظم مشيدى المبانى فى أنحاء البلاد ، ولا سيما طيبة ، فمن ذلك أنهُ أسس معبد الاقصر ، وزاد فى معبد الكرنك ، ووصل ما بينهما بحديقة جميلة شيّد بها طريقاً على طول كل جانب من جانبيه صف من أصنام أبى الهول جسم كل منها شبيه بجسم الأسد ، ورأسه شبيه برأس الكبش ، ولذلك يعرف هذا الطريق بطريق الكباش . ومن أجمل مبانيه بمعبد الاقصر الدهليز ذو الأَربعة عشر عموداً ، فان فخامته لا تزال ظاهرة الى الآن

وشنّ «امنحتب» الغارات على اتيوبيا فكان نفوذه يمتد من «نباتا» الى نهر الفرات. وكانت ملوك اشور وبابل وقبرس يهابونه ، ويتودّدون اليه. أما ولاته فى الشام فكانوا على غاية الخضوع والامتثال لأوامره . وبالجملة لم يطرأ من الحوادث فى عصره ما يحمله على إثارة ملاحم عظيمة . فتفرغ بكل قواه الى تنظيم المصالح الداخلية ، وارتقت فى أيامه التجارة حتى وصلت الى حد لم تصل اليه من قبل ، فكانت تُجْبَى الى مصر ثمرات جميع العالم المعروف إذ ذاك ، وأصبحت القوافل البرية وأساطيل البحر الأحمر تأتى اليها بالأخشاب النفيسة والعطرية وأنواع التوابل والأفاويه وما شاكلها من الشام ومن بلاد الشرق ، كما كانت تأتى اليها من فينيقية بالآلات الحربية والآنية المزخرفة. وكانت السفن الفينيقية فى البحر الأبيض المتوسط واسطة فى نقل البضائع بين مصر وقبرس وجميع جزائر بحر ايجة

تقدم التجارة

تأثير الحضارة المصرية فى غيرها

وقد وُجد فى بلاد الإغريق وجزائرها بعض الآثار المصرية التى يرجع عهدها الى ذلك العصر . ونتج من معاملة سكان هذه البلاد

للمصريين ان أثرت الحضارة المصرية فى حضارتهم بعض التأثير ، فظهر ذلك فى محاكاتهم للمصريين فى الرسم والتصوير

عظمة المبانى فى عصر امنحتب الثالث

وفى زمنه ارتقى فن البناء والنقش والتصوير ، واتسعت مدينة طيبة اتساعاً عظيما ، وكثرت فيها القصور الكبيرة ، وظهرت فى مبانيها هيئة التماثل والوَحدة ووُجد فى عصره عدد عظيم من المهندسين ، منهم المهندس « أمِنحُتِب » الذى طار صيته فى الآفاق ، حتى كان الإغريق بعد مماته بنحو ١٢٠٠ سنة يمجدونه تمجيداً وصل بهم الى أن وضعوه فى صف الآلهة

ومن المباني التى شيدها هذا الملك معبد له أقامه فى الجهة الغربيـة من طيبة ، ولم يبق منهُ الآن سوى تمثالين هائلين له كان موضعهما أمام مدخل المعبد ، يربو علو كل منهما على العشرين متراً ويُعرفان بتمثالى « مِمْنون »*. وشيد له فى الجهة الغربية قصراً جنوبي المعبد ، حفر بالقرب منه بركة عظيمة لزوجته ، كانت تركب فيها قارباً كلما قصدت النزهة

اغارة الاجناس السامية على الشام

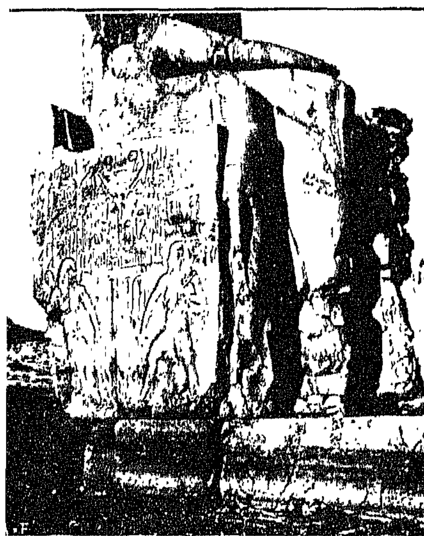
قضى أمنحتب ذلك الزمن العظيم ، ولم يعكر صفو السلم فى بلاده فتن أو حروب . ولكن حدث فى أواخر أيامه أن هوجمت الشام من جهتين ، فدخلها « الحثيون » من الشمال وأغار عليها من الصحراء الشرقية أقوام آخرون ساميون . وعند ذلك انشق ولاة الشام الى فريقين : فريق اتفق مع هؤلاء المغيرين ، وساعدهم على دخول البلاد ، وفريق بقى على الولاء لفرعون مصر فبادر باخباره بالخطر الذى يتهدد دولته . ومات

---

* كانت تخرج من هذين التمثالين اصوات بديعة فى الصباح . ولكن لما حاول الرومان ترميم التمثالين أيام حكمهم فى مصر بطل خروج تلك الأصوات ولم يعد يسمع منها شيء









(١) طريق الكباش (رسم لسكجيان) و(٢) تمثالا ممنون و(٣) قاعدة احدهما و(٤) دهليز الاربعة عشر عمودا بالاقصر
(رسم محمد افندى على سعودى) وكلها من آثار امنحتب الثالث

« أمنحتب » بعد أن حكم ٣٦ سنة ، ولم يتمكن من صد اعدائه

وكانت مصر فى هذه الأزمة فى أشدّ الحاجة الى رجل حازم قوى يسهر على ما فيهِ صالح الدولة ، ويعمل على تماسك أجزائها ، ولكن الذى خلف «امنحتب الثالث» هو ابنه «أمِنْحُتِب الرابع» المعروف « بإخْناتُون » (١٣٧٥ — ١٣٥٨ ق. م) ، وكان شديد التغلغل فى العقائد الدينية، كثير التعمق فى الفلسفة الخيالية ، فانقطع لتحقيق مسائلها ، وتوفر على النظر فى أصولها ، فشغله ذلك عن تدبير دولته ، وتهاون فى صد الغزاة الذين أغاروا على الشام قبيل تولّيه الملك . وما زال نفوذه فيها يتقاصّ شيئاً فشيئاً حتى كاد يتلاشى بالمرة عند وفاته فى سنة ١٣٥٨ ق م

شُغل « إخناتون » طول حياته بالسعى وراء توحيد الديانة المصرية وحمْل الأمة على عبادة معبود واحد هو الشمس، فان المصريين عبدوا الى زمن حكمه عدة معبودات كان أعظمها عند توليه العرش هو «أَمُون» . وكان أجلّ معبد لهذا المعبود بمدينة « طيبة » عاصمة البلاد . أدرك هذا الملك خطأ تعدُّد الآلهة ، واعتقد بوجود معبود واحد مسيطر على العالم بأسره ، وقال انهُ هو الشمس التى تتوقف عليها حياة كل شىء ، وأطلق عليهِ اسم « أَتُون » . ولشدة رغبته فى نشر مذهبه ونسخ ما عداه من المذاهب نقل عاصمة البلاد من « طيبة » موطن عبادة «أَمون» ، و بنى له حاضرة جديدة سماها «أَخيتاَتُون» تقرُّباً لمعبوده «أَتون» ، وموقعها الآن «تل العمارنة*» .

* وُجدت هنا الخطابات الأثرية الشهيرة المعروفة بخطابات « تل العمارنة » وهى خطابات على قطع من الفَخَّار ومحررة بخط بابل « المِسْمارِى » تبودلت بين امنحتب الثالث والرابع و بين ملوك بابل وقبرس وغيرهما ، وهى من أهم الآثار التاريخية

ولما رأى ان اسم « امنحتب » مندمج فيهِ اسم « أَمون » غيَّر اسمه وسمَّى نفسه « إخناتون » ، ومعناه « روح أَتون » . ثم عمل على محوِ النقوش من جميع الآثار القديمة التي عليها اسم « أَمون » حتى التي نُقش عليها اسم والده

واستغرقت هذه الأمور كل أوقات « إخْنَاتُون » فلم يدع وقتاً للالتفات لشؤون دولته فأخذت في الانحلال السريع ، فاستولى الحثيون على مدن سورية الشمالية ، وأغار غيرهم من الأمم السامية على أطرافها الجنوبية . كل ذلك بالطبع جعله مُبغَّضاً في نفوس الأمة على اختلاف طبقاتها ، فحنق عليهِ كهنة أمون لما لحقهم من الأذى ، وسخط عليهِ جنود والده لما رأوا من انحطاط الدولة على يديهِ ، ونفرت منهُ العامة لأنهم لا يرضون بغير دينهم بدلاً

توفي « اخناتون » سنة ١٣٥٨ ق . م فخلفهُ بضعة ملوك من نسله حكموا مدداً قصيرة حاولوا فيها الاستمرار على نشر مذهبهِ ، ولكنهم لم يفلحوا . وبوفاة آخرهم سنة ١٣٥٠ ق . م أُعيدت الديانة القديمة الى أصلها ، وعبد الناس معبوداتهم الأولى . وقد اشتدت كراهة القوم لاخناتون من بعده حتى انهم لقبوه « بمجرم اخيتاتون » ، وأزالوا النقوش من جميع آثاره ، وأعادوا اسم « أمون » في كل مكان ، فركدت بذلك تلك العاصفة الدينية التي أثارها ، ولم يبقَ الاَّ اصلاح شؤون البلاد وجمع شتات الدولة واعادة مجدها . وهذا ما عمل عليهِ ملوك الأسرة التاسعة عشرة كما سيأتي بيانهُ

﴿ الأسرة التاسعة عشرة ﴾

(١٣٥٠ — ١٢٠٥ ق.م)

بعد ان انقرض نسل « اخناتون » قبض على الملك رجل يدعى « حَرْمَحَب » (١٣٥٠ — ١٣١٥ ق . م) وكان فى أول أمره قائداً حربياً .
ولما جلس على العرش وجَّه عنايته لاصلاح ما نتج عن اهمال أسلافه ، فقام بكثير من الاصلاح الداخلى ، وبعث بعدة جيوش الى بعض الممالك المجاورة لمصر . ويعدّه بعض المؤرخين المؤسس للأسرة التاسعة عشرة

وبوفاته جلس على سرير الملك « رَمْسِيس الأوّل » (١٣١٥ — ١٣١٤ق.م) ولم تُعرَف علاقته بحرمحب ، بل يحسبه آخرون من المؤرخين المؤسس لهذه الأسرة . وقد تولى الملك وهو طاعن فى السن ، ولذلك لم يتمكن فى المدة القصيرة التى حكم فيها من القيام بكل ما فى نفسه من الآمال الكبيرة . وأهم أعماله انهُ بدأ تشييد ذلك البهو العظيم بمعبد الكرنك المعروف ببهو الأعمدة نسبةً الى العَمَد الهائلة المصفوفة بهِ ، وهى التى بعظم حجمها وفخامتها جعلت هذا البهو من أفخر وأجمل الآثار المصرية

وبعد وفاته تولى الملك ابنه « سِيتِى الأوّل » ، فبدأ أعماله باخضاع أهل البدو الذين أغاروا على فِلَسطين ، ثم استأنف المسير حتى وصل الى لبنان ، فخضع له الفينيقيون ، وأهدى اليه أمراء الشام شيئاً كثيراً من خشب الأرز . ثم واصل السير حتى التحم جيشه بالحِثِيين . ولكن لثبوت قدمهم فى هذه الجهة اذ ذاك عقد محالفة مع ملكهم وبذلك انتهت حروبه .
ولما عاد الى مصر وجَّه عنايته فى السنة التاسعة من حكمه الى الأعمال



(سيتى الأول)
عن جثته المحنطة بدار الآثار المصرية
رسم ف . د . بيريز

الداخليـة ، فأصلح الطريق الموصل لمناجم الذهب بصحراء النوبة الشرقية، واستتم العمارة التى بدأها والده بمعبد الكرنك ، وأصلح ما شوّهه الملك « اخناتون » من المعابد والهياكل ، وشيَّد له معبداً فى «أبِيدُوس» وناوُساً فى وادى مقابر الملوك ، وكلاهما أجمل شىء فى نوعهمـا سواء أكان ذلك من جهة الهندسة أم الزخرف . ومما ينسب اليـهِ أنهُ حفر خليجاً يُوصل البحرين الأبيض والأحمر مستمداً من فرع النيل الشرقى

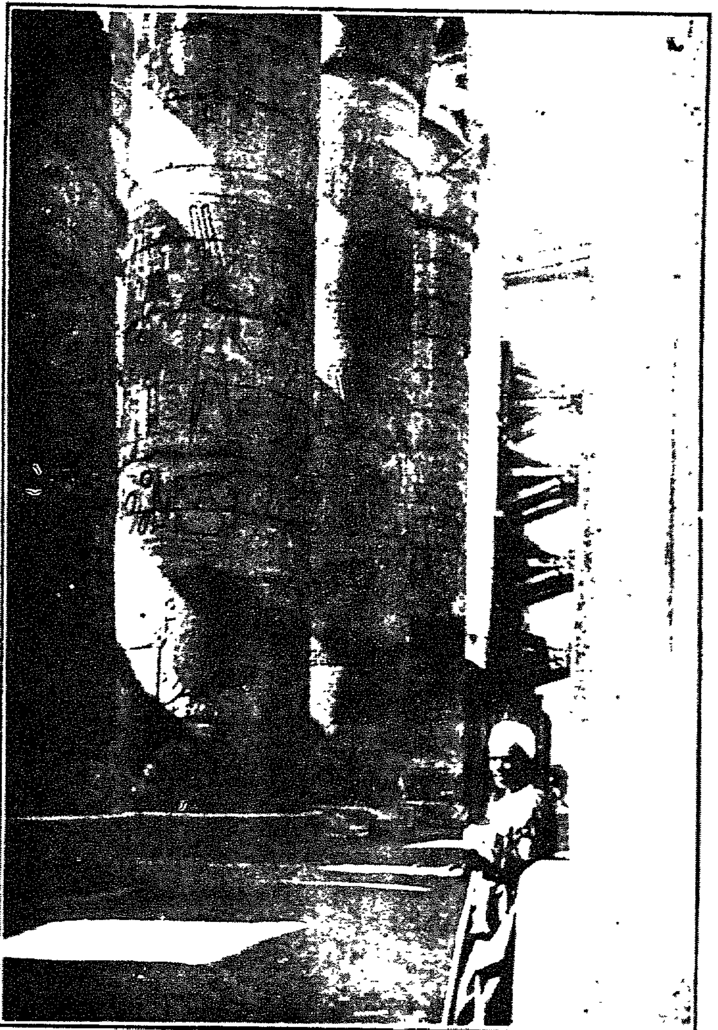
﴿ رمسيس الثانى وحروبه ﴾

(١٢٩٢ — ١٢٢٥ ق م)

ادعاء رمسيس

خلف «رمسيسُ الثانى» والدَه سيتى الأول وهو صغير السن . ويُعرف أيضاً برمسيس الأكبر لما اكتسبهُ من الشهرة الفائقة التى جعلت كثيراً من الناس يزعمون أنهُ أعظم ملوك مصر . والذى كوَّن له هـذه الشهرة الكبيرة تلك المبانى العديدة التى شيدها فى جميع أنحاء البلاد ، ونقش عليها أخبار حروبه وانتصاراته التى ظهر بعد أنهُ بلا شك مغال فيها

ولم يكتفِ « رمسيس » بنقش اسمه على المبانى الكثيرة التى شيدها بنفسه ، بل كان يمحو من كثير المبانى التى شيدها الملوك السابقون أسماءَ



بهو الاعمدة العظيم بالكرنك
(رسم محمد افندى على سعودى)



صورة خيالية لبهو الاعمدة في ايام رونقه

مشيديها وينقش عليها اسمه ، رغبةً فى الشهرة وطمعاً فى تخليد ذكره فى التاريخ

ولما تولى رمسيس الملك وجد أن الدولة العظيمة التى كوّنها جدّه الأكبر « تحتمس الثالث » محاطة بالأخطار، وأن الحثيين غلبوا على معظم الشام ، فعزم على تجديد مجد مصر واسترداد ما فقدته من أملاكها ، فاتبع فى سياسته الحربية نفس الخطة التى اتبعها تحتمس الثالث ، وهى البدء بالاستيلاء على الشواطئ ليكوّن له أنزالاً على البحر تسهّل المواصلة بينه وبين مصر. وفى السنة الرابعة من حكمه نفذ ما فى عزمه فغزا هذه الجهات ، ونقش على أحدى الصخور المطلة على نهر « الكلب » ما يدل على وصوله الى تلك البقعة

وفى أثناء ذلك كان ملك الحثيين يشتغل بجمع جيش عظيم من جميع أنحاء الشام ليحارب بهِ مصر ، واستمال لذلك جميع ملوك الشام الذين كانوا أعداءً لمصر فى قديم الزمان ، فانضمت اليهِ ملوك «أرواد» و « قادش » و « بلاد النهرين » و « حلب » وغيرها من الولايات السورية ، وضمّ اليهِ رجالاً من ولاياتهِ التى فى آسيا الصغرى . ولم يكتفِ بذلك بل استجلب بمال خزائنه الجنود المرتزقة من آسيا الصغرى وجزائر البحر الأبيض . أما رمسيس فلم يألُ جهداً فى جمع جيش يضاهى جيش عدوه عَدَداً وعُدَداً ، وألحق بهِ الجنود المرتزقة من بلاد النوبة وسَرْدَانية وقسّمه الى أربعة أقسام جعل نفسه قائداً لأحدها . وسار فى مقدمة الجيش فاصلاً بهِ من مصر فى السنة الخامسة من حكمهِ أى حوالى سنة ١٢٨٨ ق. م . فأوردهُ بعد شهر نهر «أورُنْت» (العاصى)، وسار شمالاً متتبعاً مجرى النهر حتى وصل

قادش

الى التلّ المشرف على ذلك السهل العظيم الذى فيهِ «قادش» حيث نصب معسكره . فمكث فى هذا المكان عدة أيام، وكانت طلائع جيشه تخبره كل يوم أنهم لم يقفوا للعدو على أثر . وعقب ذلك أتى الى المعسكر المصرى اثنان من أهل البدو وقالا : إنهما شردا من الجيوش الحثية، وأن ملك الحثيين تقهقر شمالاً الى حلب . فصدق ذلك رمسيس، وقوّاه عنده ما أخبره بهِ طلائعه من عدم رؤيتهم شيئاً يدل على أن العدو على مقربة منهم، فنهض فى الحال، وأخذ قسم الجيش الذى يقوده بنفسه، وأسرع نحو قادش بعد أن أمر باقى الجيش أن يلحق بهِ، وعند ذلك اتضح أن ملك



(رمسيس الثانى فى مركبته الحربية)

قادش هو الذى أرسل ذينك البدويين ليغررا برمسيس . فلما رأى ان حيلته قد أفلحت غيّر وجهة سيره، وفاجأ رمسيس على غير استعداد،

مهارة رمسيس وشجاعته

ففصل بينه وبين معظم جيشه . ولولا شجاعة رمسيس الذاتية التى أدهش بها الأعداء لقضت عليهِ فرق العجلات الحثية قضاءً عاجلاً، ولكنهُ تمكن بتلك الشجاعة النادرة من مقاومة الأعداء حتى تلاحقت بهِ بقية

جيوشه فنجا من الخطر المحدق به، وصدّ جيوش الأعداء . وبالرغم من ذلك كانت خسارته بلا شك أكبر من خسارة أعدائه . ولم يكد يفرغ من صدهم حتى جمع ما بقى من جيشه وعاد الى مصر

خروج املاك مصر عليها

رجع رمسيس الى مصر عقب هذه الواقعة توًّا بدون أن يحاول محاصرة قادش . فأثّر ذلك فى ولاة الشام وفلسطين ونزع من قلوبهم خشية فرعون ، فخرجوا عليه ، وامتدّ الخروج جنوباً حتى وصل حدود مصر

ولذلك ابتدأ بعدُ باسترجاع دولته الأسيوية من جديد ، فقضى ثلاث سنوات فى إخضاع فلسطين . وفى السنة الثامنة من حكمه سار بجيش جرار حتى وصل وادى الأُورُنت مرة أخرى . وهنالك أوقع بالحثيين . ثمّ غزا « بلاد النهرين » ففتح جانباً عظيماً منها ، ونصب بهـا تمثالاً له . ولم يلبث الحثيون أن أثاروا عليه أهل هذه الجهات مرة أخرى ، فقمعهم جميعاً وخضعت له بلاد النهرين وشمالى سورية وأرواد وبعض جهات من وادى الأُورُنت . ثم استمرّت الحروب بينه وبين الحثيين حتى كانت السنة الحادية والعشرون من حكمه . وكان ملك الحثيين قد توفى ، وخلفه أخوه ، فعقد محالفة مع رمسيس على أن يمسكا عن الحرب ، وأن يكونا صديقين الى الأبد ، وحدّدا فى المحالفة حدود أملاكهما

عقد محالفة مع الحثيين

وفى السنة الرابعة والثلاثين أى فى سنة ١٢٥٠ ق . م . حضر ملك الحثيين الى مصر لمشاهدة عجائبها وزوّج احدى بناته لرمسيس

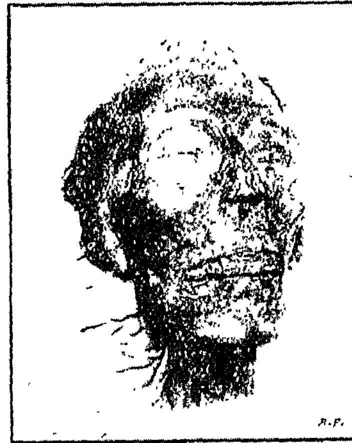
ومن وقتئذٍ لم يخض رمسيس ميدان القتال واكتفى فى المناوشات الصغيرة التى نشبت بينه وبين اللوبيين وأهل النوبة بارسال قوّاده للقيام بها ، وتفرّغ هو للأعمال الداخلية

أما النتيجة النهائية لحروب رمسيس فهى أنه استردّ معظم أملاك مصر الأسيوية التى فتحها تحتمس الثالث ، ولم يفقد شيئاً من ممتلكاته فى الجنوب ، بل بقيت حدود مصر ممتدة جنوباً الى « نباتا » بالقرب من الجنادل الرابعة ، وزاد نفوذ مصر فى النوبة فى أيامه

اهم المبانى التى شيدها رمسيس

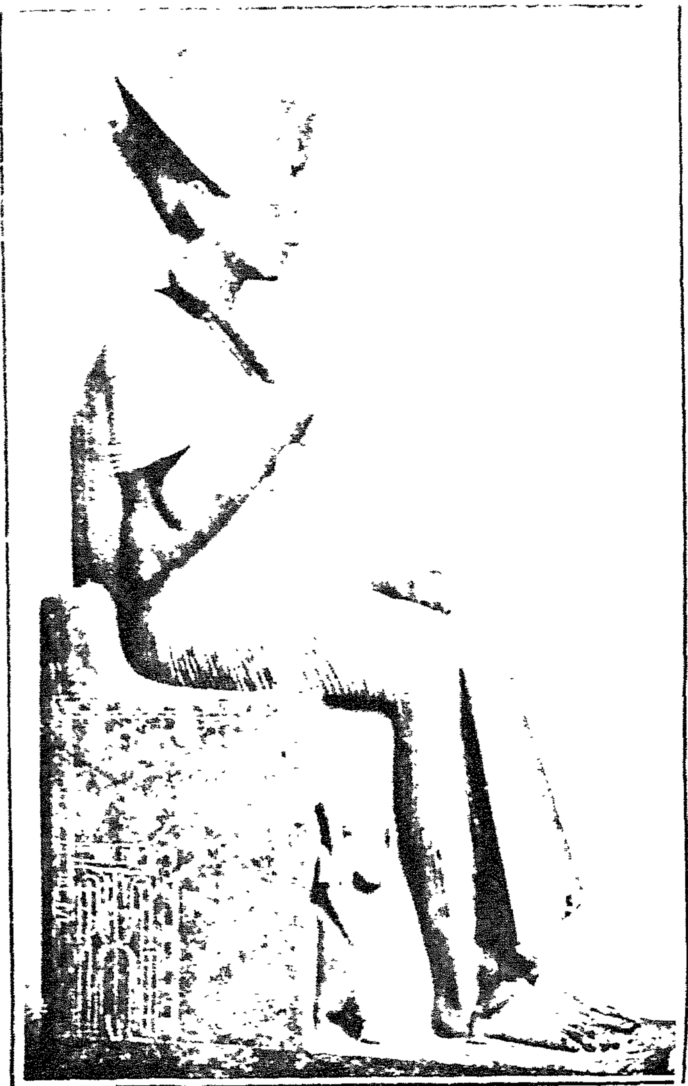
قلنا ان رمسيس شيد عدداً عظيماً من المبانى فى جميع أنحاء البلاد . وأهم ما قام بهِ من ذلك انه أتم المعبد الذى بدأه والده بطيبة وبنى لنفسه هنالك معبداً جميلاً يعرف «بالرَّمِسْيُوم» ، وأتمَّ البهو ذا الأعمدة الذى بدأه جده رمسيس الأول بمعبد الكرنك

وقد اكثر رمسيس من اقامة المسلاَّت وتزيين مبانيهِ بالتماثيل ، ولا سيما تماثيله ذوات الحجم الهائل التى من أهمها التمثال الذى أقامه بمدينة «تَنِيس» (صان) بالوجه البحرى ، وكان علوه نحو ٢٧ مترًا ووزنه نحو ٩٠٠ طن ، والتمثال الذى ما زالت بقاياه بالرمسيوم وكان وزنه نحو ١٠٠٠ طن . وقد عثر حديثاً على تمثال له آخر هائل بالبدرشين ، وهو غاية فى الجمال . وله تمثال من المحبب بدار عاديات «تورين» بايطاليا لا يزل حافظاً لرونقه الى الآن

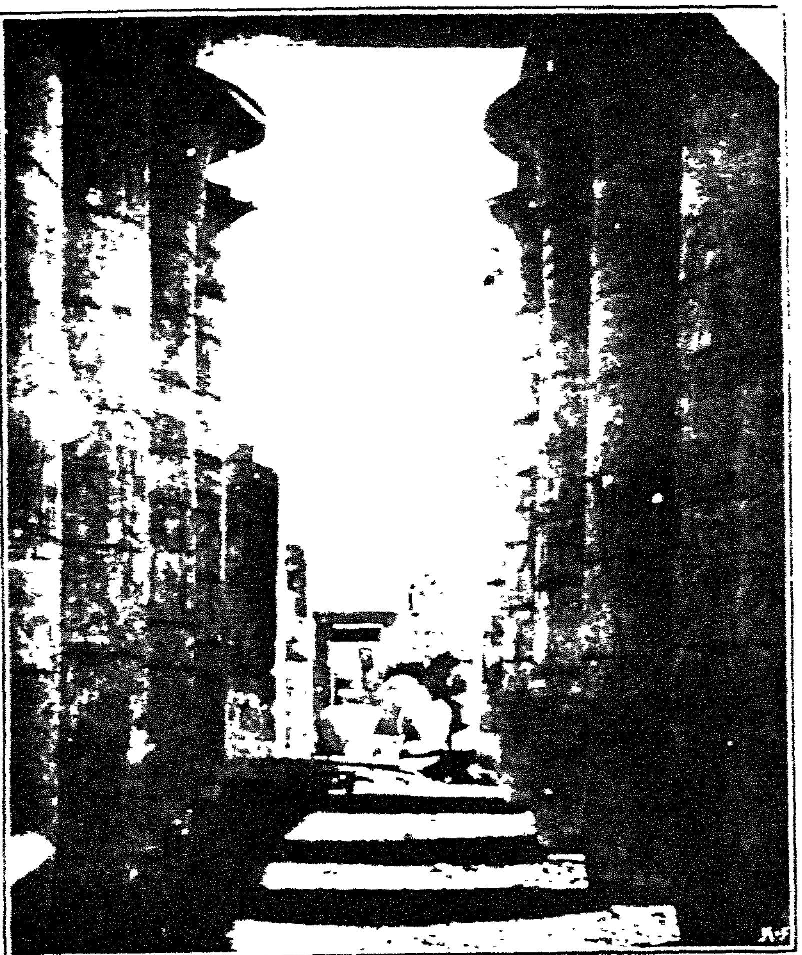


(رمسيس الثاني)
عن جثته المحنطة بدار الآثار المصرية
رسم ف . د . بيريز

ولما كان همّ رمسيس تدبير أملاكه الكثيرة فى آسيا نقل مقرّ ملكه الى مصر السفلى . وبقيت « طيبة » العاصمة الدينية للبلاد . وكثيرًا ما



تمثال رمسيس الثاني (بدار آثار تورين)



الرمسيوم (رسم الكجيان)

كان يذهب اليها . وبانتقاله الى الوجه البحرى أرجع الى كثير من بلاده رونقها القديم ، فصارت « تنيس » مدينة عظيمة زاهرة ، وشيد بها معبداً من أفخر المعابد . وشيد رمسيس بلداناً جديدة بالوجه البحرى ، منها بلدة فى شمالى عين شمس تعرف آثارها الآن « بتَلّ اليَهُودِيّة »

ومات بعد أن حكم ٦٧ سنة . وقد بلغ اعجاب خلفه بِهِ مبلغاً كبيرًا جداً ، حتى ان عشرة منهم سمّوا أنفسهم باسمه على التوالى

الفصل السابع

ابتداء اضمحلال مصر

تمهيد

فقد المصريون بالتدريج بعد عصر « رمسيس الثانى » تلك الملَكة الحربية التى رُبّيت فيهم منذ أيام « تحتمس الثالث » وغيره من مؤسسى الدولة الحديثة . فاضطُر الملوك فى الدفاع عن بلادهم الى استخدام الجنود المرتزقة والأُجَراء من الأجانب (وذلك من بوادر الانحلال فى الأمم) ، واقتصروا على خطة الدفاع بعد ان كان مأرب الذين من قبلهم توسيع نطاق الدولة وبسط نفوذها على غيرها من البلدان . ويا ليتهم تمكنوا من مجرد المحافظة عليها، فقد عملت على ضعف نفوذ الملِك عدة عوامل بعضها داخلية وبعضها خارجية أفضت الى وهن الدولة ذاتها. فمن العوامل الداخلية ان الكهنة أخذوا يبتزّون شطراً عظيماً من الثروة ، وقبضوا على جانب كبير من السلطة ، كما قبضت الجنود المرتزقة على جانب آخر. ومن العوامل الخارجية ان البلاد المجاورة لمصر نمت وازداد عدد سكانها ، فعمدوا الى

فتح بلاد جديدة يبتغون فيها الرزق ، فانهالت الغارات على مصر من كل جانب ، فهاجمها اللوبيون من الغرب ، وزحف عليها سكان جزائر البحر الأبيض من الشمال ومن الشرق أيضاً عن طريق الشام . وظهر فى هذا العصر ملك قوى يدعى « رمسيس الثالث » قضى حياته فى رد هؤلاء الأعداء . ولما أن توفى لم يقدر أخلافه من الملوك الضعفاء على صدهم ، فهوت الدولة الى حضيض الاضمحلال بعد أن بلغت من المجد درجة لم تبلغها أمة من قبل

منفتاح

خلف رمسيس الثانى ابنه « مِنِفْتاح » فحارب حروباً كثيرة لحماية المُلْك ، فأطفأ نيران الثورة فى فلسطين وسورية بعد أن صدّ هجمات اللوبيين الذين اتفقوا مع سكان بعض جزر البحر الأبيض وهاجموا مصر من الغرب ، فردّهم على أعقابهم ، وغنم منهم غنائم كثيرة ، وأسر عدداً كبيراً من رجالهم

وكان « منفتاح » مولعاً بالمبانى ، ولم يكتفِ بما أمكنه تشييده ، بل فعل ما فعله أبوه من قبله ، اذ كان يمحو أسماء الملوك من الآثار التى شيدوها وينقش اسمه مكانها . وقد فعل ذلك بكثير من آثار والده نفسه ، فكأنَّ أباه قد لاقى جزاءه على يد ولده . وقد قيل ان « منفتاح » هذا هو فرعون موسى ، وأنهُ الذى خرج فى عهده بنو اسرائيل من مصر ، غير ان ذلك ما زال مفتقراً الى اثبات

وحكم بعد منفتاح « سيتى الثانى » ، ولم يتمّ فى أيامه شىء عظيم . وحدث بعده نزاع كبير فى شأن من يخلفه أفضى الى تقسُّم السلطة بين الأشراف وعمال النواحى ، وكثرت الفوضى والمجاعات ، وجلس على سرير

الملك عدة أشخاص حكم أحدهم بعد الآخر مدداً وجيزة . فانتهز اللوبيون هذه الفرصة وزحفوا على الوجه البحرى مرة أخرى ، الى ان استولى على الملك رجل قوى يدعى « ستنخت » ، فاستأصلهم من مصر وأعاد السكينة فى البلاد ، غير انهُ توفى بعد سنة أو سنتين ، فخلفهُ ابنهُ «رمسيس الثالث» الذى هو فى اعتبار اكثر المؤرخين أول ملوك الأسرة العشرين

رمسيس الثالث وحروبه

تولى « رمسيس الثالث » والدولة تهددها الأخطار من كل جانب ، فتمكّن بجدّه وشدة بأسه من حفظها من الخطر وإعادة جانب كبير من مجدها

وكان يقطن جزائر البحر الأبيض فى ذلك العهد أقوام يسميهم المصريون «سكان البحر» أخذوا يفدون على مصر السفلى من «أقريطش» (كريت) و«صقلية» وغيرهما ، ثم تحالفوا مع اللوبيين على غزو الوجه البحرى . وكان « رمسيس » قد نظّم الجيش وعزّزه بالأشداء من الجنود المرتزقة ، فسار اليهم فى السنة الخامسة من حكمه ، وهزمهم شرّ هزيمة فى البرّ والبحر

وكان قوم آخرون من « سكان البحر » قد زحفوا على الشام بعجلاتهم الحربية ومعهم نساؤهم وأولادهم وبضائعهم وماشيتهم ، كأنهم ينوون الاقامة فيها ، ووصلوا فى فتوحهم الى نهر الفرات بعد أن اصطلموا الحثيين وخرّبوا بلادهم . ثم همّوا بالزحف على مصر . فقاد رمسيس جيشاً وأسطولاً فى السنة الثامنة من حكمه ، وسار لملاقاتهم ، فهزمهم برّاً على نهر « العاصى » وبحراً على الشواطئ الفينيقية . فخضعوا له ودفعوا اليهِ الجزية ، ولم يحاولوا الخروج عليهِ بعد ذلك قط

وفى السنة الحادية عشرة من حكمهِ أغار اللوبيون على شمالىّ مصر

من الغرب ، وكان بعض قبائل المغرب قد أجلاهم اليها ، فردّهم « رمسيس » على أعقابهم بعد أن ألحق بهم خسائر كبيرة ، ولم يحاولوا بعد ذلك غزو مصر وان كانوا لم يمسكوا عن القدوم اليها طلباً للرزق بالخدمة فى الجيش وغير ذلك

وفى السنة الثالثة عشرة من حكمه ذهب «رمسيس» ثانية الى بلاد الشام ليتمّ إخضاع تلك الجهات . ثم نظّم ممالكه الاسيوية وحصّن حدودها[1] . وبذلك عادت السكينة الى بلاد الدولة . ثم استراح بعد هذه الحروب الأربع والتفت الى شؤون بلاده الداخلية

رمسيس الثالث والكهنة

ولم يكن « رمسيس الثالث » حاكماً داهياً بقدر ما كان قائداً حربياً محنّكاً ، فقد كان للكهنة نفوذ كبير عليه ، فوهب المعابد كثيرًا من الثروة والأراضى فوق الكثير الذى حازوه بالتدريج من قبله ، حتى أصبحت ممتلكاتهم فى أيامه تقدّر بنحو ١٥ ٪ من مجموع الأراضى المصرية ، ولم تقل مواليهم عن ٢ ٪ من عدد سكان مصر ، وكان لهم ١٦٩ مدينة فى مصر وسورية و بلاد الكوش . وكان أعظم هؤلاء الكهنة ثروةً كهنة « أمون » بمدينة « طيبة » ، فقد كان لهم ما لا يقل عن ثلثى ما لمجموع الكهنة . وقد ساعدهم ذلك فى عهد الملوك الضعفاء الذين خلفوا «رمسيس الثالث» على ابتزاز كثير من السلطة السياسية ، حتى انتهى بهم الأمر الى تكوين أُسرة ملكية منهم . وسنأتى على بيان ذلك فيما بعد[2]

أدّى ازدياد قوة الكهنة بالطبع إلى اضمحلال قوة الملوك . فاستعانوا

---

(١) الراجح انها لم تمتد شمالاً وراء نهر العاصى

(٢) قارن ذلك بحالة كهنة « رع » فى الدولة القديمة

على ذلك بالاكثار من الجنود المأجورة . وقد كان هؤلاء الجند والكهنة سبباً فى كثير من الحروب التى نشبت بعد فى مصر

« اشتراك الكهنة وامراء تنيس فى الملك »

(١٠٩٠ — ٩٤٥ ق . م)

ضعف نفوذ الملك فى أيام رمسيس الثانى عشر حتى ان «سِمنْدِس» أحد أمراء « تنيس » تمكن من الاستيلاء على جميع مصر الشمالية ، وجعل نفسه ملكاً عليها فكان بذلك مؤسس الاسرة الحادية والعشرين

فلم يسع « رمسيس الثانى عشر » الا أن يتراجع الى « طيبة » . ولازدياد قوة الكهنة هنالك لم يكن له من الأمر سوى صبغة رسمية . ولما انتهت أيامه خلفه رئيس الكهنة « حِرْحُور » ملكاً على الصعيد . وكان ذلك سنة ١٠٩٠ ق م . وفى هذه الأيام كانت مصر قد فقدت نفوذها فى مستعمراتها سوى بلاد النوبة ، حتى ان «حرحور» عند ما أرسل مندوباً الى بلاد لبنان ليحضر شيئاً من خشب الأرْز لم يعامَل المندوب معاملة حسنة فى الطريق ، ولما قابل أمير الجهة التى أرسل اليها امتنع عن اعطائه الخشب ، ثم قبل اعطاءه اياه على شرط أن يأتيه ببعض الهدايا النفيسة من مصر

المحافظة على جثث الملوك

وكان ملوك « تنيس» فى هذه الأيام يعترفون بزعامة رئيس الكهنة بطيبة . وقد تزوّج منهم من خلفوا « حرحور » ، فتمكنوا من الحصول على الالقاب الملكية ، وبعضهم تمكن من الاستيلاء على جميع مصر . وكان من أهم شواغل هذه الاسرة المحافظة على جثث ملوك مصر الاقدمين

لِما رأوه من عبث نباشي القبور بها . ولما ان أعيتهم الحيلة فى نقلهم من مقبرة الى اخرى وضعوها فى مكان خفى بالقرب من معبد « الدير البحرى » وهنالك بقيت نحو ثلاثة آلاف من السنين بدون أن تصل اليها يد السرقة ، حتى جاءت نهضة البحث عن الآثار القديمة فى عصرنا ، فكُشف مكانها وانتهى الأمر بنقلها الى دار العاديات المصرية بالقاهرة حيث هى الآن

﴿ حكم اللوبيين فى مصر ﴾

(٩٤٥ — ٧١٢ ق . م)

قضى المصريون فى عصر اضمحلالهم زمناً طويلاً وهم يستخدمون فى جيشهم جنود اللوبيين . وكان قادة هؤلاء الجنود من بنى جنسهم فاستوطنوا المدن الكبيرة ، وصيروا لهم مالاً وعَتادا ، فى حين كان الحكام الوطنيون يضعف شأنهم يوماً فيوماً . وما زال اللوبيون يزدادون قوة وهؤلاء ضعفاً حتى قام « شِشُنْق الأول » (شيشاق) أحد قواد الجند اللوبيين المأجورين ، وقبض على زمام الملك فأسس بذلك الأسرة الثانية والعشرين سنة ٩٤٥ ق م . وكان مقر حكومته « بُوبَسْطة » (تل بَسْطة) بشرقى مصر السفلى . وفى أيامه انتعشت مصر بعض الشيء . وعاد لها بعض نفوذها فى فلسطين . ولكن ملوك هذه الأسرة لم يستطيعوا ادخال القواد الآخرين فى طاعتهم ، فانّ هؤلاء كوّنوا لهم عصبيات فى اكبر بلاد الشمال . وآل الأمر بالتدريج الى وجود ولايات عديدة بمصر يحارب بعضها بعضاً على الدوام . وما زالت الامة على هذه الحالة ، تئنّ تحت عبء

الخلل والفوضى وغلبة المغيرين من النوبة وغيرهم حتى انتهى العهد اللوبى ، وانقضت أيام الاسرة الثانية والعشرين والثالثة والعشرين والرابعة والعشرين

﴿ إغارة الإتيوبيين والأشوريين ﴾

(٧٢٢ — ٦٦١ ق . م)

ارتقاء الاتيوبيين على يد المصريين

تمّ للمصريين فى أيام الدولة الحديثة غزو بلاد النوبة الشمالية غزواً كاملا حتى ان سكان تلك الجهات تمصّروا ، بل وُجد بينهم كثير من السلائل المصرية . وما زالوا يرتقون ويتنورون حتى شعروا بحقوقهم ، وأحسوا بأنهم مساوبون خيرات بلادهم العظيمة وذهبها الكثير . فبقُوا يتدرّجون فى مراقى الرقى الى ان استقلوا بالملك ، وكوّنوا لأنفسهم مملكة قائمة بذاتها ، مقرّها « نباتا » بالقرب من الجنادل الرابعة . وعند ذلك ظهر ملكهم بجميع مظاهر الفراعنة المصريين ، وشيد المبانى ونقش النقوش على الطراز المصرى . ثم استفحل أمرهم واستطار شرهم ، فتمكن فى سنة ٧٢١ ق . م . « بِعَنْخى » أحد ملوكهم من الاستيلاء على الصعيد الى هِرقْلُو بُوليس بجنوبىّ الفيوم . وفى أثناء ذلك كان ملوك الأسرة الثالثة والعشرين يزدادون فى الضعف فلم يبق للملك (أُسُرْكُون الثالث) سوى منطقة « بسطة » . وكان فى كل مدينة كبيرة من مدن الوجه البحرى أمير ينازعه فى السلطة . فظهر من بين هؤلاء الأمراء رجل قوى يدعى (تَوْنَخْت) ، وهو أمير « سايس » (صا الحجر) * . فأخضع جميع الأمراء المجاورين له فى الجزء الغربى من مصر السفلى ، ثم أغار على الصعيد حتى

* بين طنطا وكفر الزيات

استولى على مدينة «هِرْمُوبُوليس»[1]. وعند ذلك أرسل اليهِ « بِعَنْخِي » جيشاً أرجعه الى أرضه . ثم شرع بعنخي فى الزحف على الشمال فنزل على منف واستولى عليهـا بعد عناء كبير فى البرّ والبحر . وعند ذلك جاء اليهِ ملوك المقاطعات المختلفة ، وأظهروا له الطاعة ، ومن بينهم « أُسُرْكون الثالث » المنتمى الى الأسرة الثالثة والعشرين والذى لم تزد مكانته إِذ ذاك عن مكانة غيره من الأمراء . أما «تونخت» فامتنع أولاً عن تقديم الطاعة ، ولكنهُ قَبِل ذلك أخيرًا وأصبح الحاكمُ على جميع مصر فرعوناً نوبياً . وبعد

استيلاء النوبيين على مصر

أن جلا « بعنخي » بجيوشه عن مصر وعاد الى نباتا عاصمة دولته ثار «بُخُورِيس» بن تونخت أمير صا الحجر، فجمع السلطة فى يده نازعاً ما بقى من الرمق فى الأسرة الثالثـة والعشرين . واستولى على سرير ملك مصر السفلى حوالى سنة ٧١٨ ق . م . وقد اعتُبِر « بخوريس» مؤسساً للأسرة الرابعة والعشرين ، وان لم يعلم لها ملك غيره وبعد جلاء بعنخي من مصر بنحو عشر سنين ظهرت سلطة النوبة فى الشمال مرة ثانيـة ، إذ قام « سَبَاكُون » أخو بعنخي وخليفته ، وثبَّت قدم النوبيين فى مصر ، فبدأ بذلك عصراً حكم فيهِ الملوك النوبيون بدون انقطاع ، وبهذا اعتُبِر مؤسساً للأسرة الإتيوبية أو الأسرة الخامسة والعشرين

﴿ إغارة الأشوريين[2] ﴾

دولة الاشوريين

كان الأشوريون فى هـذه المدة قد قويت شوكتهم ، وامتدت فتوحهم فاستولوا على الشام وفلسطين ، وأصبحت حدود مصر مهدَّدة

(١) بالقرب من مدينة المنية الحالية (٢) ويقال لهم « الأثوريون » أيضاً

باغاراتهم . فلما أدرك «سَباَ كُون» هـذا الخطر أوعز الى ملوك الشام بالخروج عن طاعة الأشوريين ، فتمكن «سَرْجُون» ملك «أشور» فى ذلك الوقت من اخماد الثورة فى الشام وبابل والجزء الشمالى من دولتـه . وتوفى بعد أن ترك لابنهِ «سَنَحَاريب» فى سنة ٧٠٥ ق . م دولةً من اكبر الدول السامية التى ظهرت فى التاريخ

استيلاء الاشوريين على مصر

ومن ذلك الوقت حدثت عدة معارك بين المصريين والأشوريين بسبب مساعدة مصر لثوار الشام الى ان كانت سنة ٦٧٠ ق . م . فدخل مصر «أشور آخيِ الدِّين» ملك أشور بجيش قوى منظَّم ساقه حتى أناخ بهِ على منف واستولى عليها . ففرّ «طَهْرَاقَة» الملك الاتيوبى فى ذلك الوقت وتمّ استيلاء الأشوريين على مصر . ونصَّب «أشور آخى الدين» ولاةً وطنيين على أقاليم مصر المختلفة ، أعظمهم «نِخَاو» وهو من نسل تونخت ، وجعل فوقهم والياً أشورياً وعاد الى بلاده

فلم يلبث «طهراقة» ان رجع من الجنوب وجمع حوله جيشاً عظيماً أباد بهِ الحامية الأشورية . فأعدّ الأشوريون حملة أخرى دخلت مصر فى أيام ملكهم «أشُورْ بانيبَال» ففرّ «طهراقة» الى طيبة ، واكتفى بتولى حكم الصعيد . ثم خلفـه بعد وفاته ابن أخيه (تَنْدَمَان) ، فقوبل بترحاب فى أعلى الصعيد ، ثم استولى كذلك على «منف» الى ان أخرجه حوالى سنة ٦٦٠ ق . م أشور بانيبال من مصر السفلى وتبعه الى الصعيد حتى مدينة طيبة فدمرها . فكانت هذه آخر قوة كبيرة أرسلها الأشوريون الى مصر

الفصل الثامن

النهضة المصرية

(٦٦٠ — ٥٢٥ ق . م)

الاسرة السادسة والعشرون

لما توفى «نخاو» أمير صا الحجر ومنف خلفه ابنه «إِبْسَمتِيك الأول» (٦٦٣ — ٦٠٩ ق . م) والياً على أملاك والده تحت إشراف الأشوريين . فلما رأى أن دولة أشور مشتغلة بإخماد الثورات وتذليل البلاد المجاورة الخارجة عليها ، مثل « بابل » و « عيلام » ، وبلاد العرب ، وأنها آخذة فى الاضمحلال ، شرع فى تقوية سلطانه ، واستعان بملك « ليديا » (بآسيا الصغرى) على التخلص من حكم الأشوريين . ثم تغلب على باقى الأمراء المصريين فكان بذلك مؤسس الأسرة السادسة والعشرين

ابسمتيك الاول

ويعتبر « ابسمتيك » من أقوى فراعنة مصر وأعظمهم . ففى أيامه نهضت مصر من سباتها ، وتخلصت من الضعف الذى لحقها من الفتن الداخلية والغارات الأشورية . إلاّ أنها لم تكن فى أيام هذه النهضة كما كانت فى النهضات السالفة . إذ أصبحت الأمة فى ذلك الوقت عديمة الميل للاشتغال بالأمور الحربية . ولم تولّد فيها الغزوات الأخيرة حباً للحرب كما

الضرورة التى دعت الى استخدام الجند المأجورة فى عهد ابسمتيك

ولدت ذلك فيها غزوة الرعاة . ولذلك أدرك إبسمتيك أن لا حيلة له فى تحقيق أمنيته وإرجاع مجد آبائه العظام الى بلاده إلاّ بالاستعانة بالجند المرتزقة فكوّن جيوشاً من الأشداء معظمهم من بلاد الإغريق القديمة وجزر

البحر الأبيض . وما فتئ يستعين بهم حتى أمن إغارة الأشوريين واستولى على بعض جهات فلسطين

الحضارة المبتكرة فى زمن ابسمتيك

أراد إبسمتيك أن يعيد للبلاد مجدها ، غير أنهُ لم يقتصر على إحياء الحضارة القديمة بأنواعها ، بل عمل على الانتفاع بحضارة الأمم التى أخذت فى الظهور ، وأربت على المصريين فى الابتكار والابتداع . فظهرت فى الفنون والصنائع دقة لم تعرف من قبل ، وزال من الرسم والتصوير تلك الرموز والقيود الرسمية التى كانت تذهب فى الأزمنة الأولى بكثير من رونق الصور وروعتها

﴿ استيطان الأغريق الأوائل فى مصر ﴾

رأى إبسمتيك ضرورة الاختلاط بالأمم البحرية النازلة على شواطئ البحر الأبيض ممن ارتقت حضارتهم، واتسعت تجارتهم، وراجت صناعتهم، ولذلك جعل مقره مدينة « سايس » (صا الحجر) بشمالىّ مصر وسهل لهم التجارة فى بلاده ، فأصبح الوجه البحرى مورداً ترد اليهِ التجار من البلاد الفينيقية والسورية وخاصة الإغريقية

ورود الاغريق الى مصر فى زمن ابسمتيك

وقد ذكرنا فيما تقدم أن « سكان البحر » الذين منهم الإغريق كانوا يردون إلى مصر منذ القرن الثامن ق . م ولكن مجيئهم إذ ذاك لم يكن بهذه الكثرة ولم يقابل بذلك الترحاب الذى قوبل بهِ فى عصر إبسمتيك

وفى هذا الوقت كان الإغريق آخذين فى الانتشار والاستعمار . فبعد أن ملكوا شبه الجزيرة الإغريقية وجزر الأرخبيل نزلوا فى عدة أماكن على شواطئ البحر الأبيض . وكانوا كلما حلوا بجهة أوجدوا بها حركة تجارية

وشيدوا المعامل الصناعية . فرأى إبسمتيك أن مجيئهم الى بلاده واستيطانهم بها مما يفيد البلاد ، فرحب بهم ومنحهم أراضى يقيمون بها بالقرب من « بسطة » ، وكان لهم أيضاً بمنف حىّ خاص بهم ، فاستوطنوا بمصر ونشروا فيها تجارتهم وشيدوا مصانعهم . فهذا العدد العظيم ، مضافاً اليه جند الإغريق المأجورون بالجيش ، لم يخلُ أمرهم من التأثير فى حالة البلاد . غير أن تأثيرهم الأكبر كان فى الملوك لا فى الأمـة ذاتها ، وذلك لشدة تعصبها وتمدّحها بمجد أجدادها السالفين . وقـد بلغت شوكة الإغريق فى مصر درجة كادت تضعف سلطان الملك . على أن المصريين أنفسهم كان لهم تأثير محسوس فى الإغريق ، فقـد نقل هؤلاء عنهم شيئاً كبيرًا من أصول التصوير وعمل التماثيل ، كما نقلوا كثيرًا من علمهم وفلسفتهم ولا سيما ما يختص بالإلهيات

تأثير الأغريق فى مصر

ازدياد شوكة الأغريق فى مصر

تأثير مصر فى الحضارة الأغريقية

النهضة المصرية فى عهد الأسرة السادسة والعشرين

بعد أن توفى إبسمتيك خلفه ابنه « نخاو » (٦٠٩ — ٥٩٣ ق م) فتبع خطة أبيه فى السعى وراء استرجاع مجد مصر لاسترداد الممالك التى كانت لها فى أيام تحتمس الثالث ورمسيس الثـانى ، فاستمر فى ادخال الإغريق فى مصر وترقية الفنون والصنائع ، وزاد كثيراً فى عدد الجيش ، وبنى اسطولاً حربياً للبحر الأبيض ، وآخر للبحر الأحمر . وفى أول سنة من توليته شرع فى استرداد ممتلكات مصر فى سورية . ولما كانت دولة الأشوريين اذ ذاك فى أقصى درجات الضعف والاضمحلال تمكن من غزو جميع سورية واسترداد جميع الأملاك الأسيوية التى امتلكها اجداده من قبل . ولكن من سوء الحظ لم تبق هذه البلاد فى يده طويلاً ،

محاولة البابليين الاستيلاء على مصر

وفى أقل من سنتين تمكن البابليون والميديّون * من التغلب على دولة اشور واقتسام أملاكها فكانت سورية من نصيب « نَبُو بُولَصَّار » ملك البابليين ووالد «نَبُوخَذْ نُصُر » (بُخْتَنَصَّر) المشهور ، فأرسل ابنه بجيش لمحاربة نخاو فهزم المصريين بجهة « قرقيش » (٦٠٥ ق م) ، ولولا رجوع « بختنصر» قائد الجيوش البابلية الى بلاده بسبب وفاة والده لدخل البابليون الديار المصرية . ومن بعد هذه الواقعة لم يحاول « نخاو » استرداد الأراضى الأسيوية وتفرغ للاصلاحات الداخلية

ومن أعماله انه شرع فى كرْى الخليج الموصل بين البحرين الأبيض والأحمر عن طريق فرع النيل الشرقى الذى انشأه سيتى الأول ورمسيس الثانى ولكنه لم يتمكن من اتمام عمله

الطواف حول افريقية

ومن أعماله أيضاً أنه أرسل عدداً من الملاحين الفينيقيين للطواف حول إفريقية ، فأتموا السياحة في ثلاث سنوات

وبعد وفاته خلفه « ابسمتيك الثانى » ، ولا يعلم عن أيامه شىء هام سوى انه غزا بلاد النوبة حتى بلغ الجنادل الثانية ، ولم يكن لذلك نتيجة باقية

ثم خلفه «أبْرِيس» (وهو فرعون المعروف على الآثار باسم حَفْرَع) . وهذا الملك ورث عن أجداده الشجاعة وعلو الهمة وحب الفنون الجميلة ، وقد شيد بمدينة «سايس» معبداً من أجمل المعابد ونصب أمامه عدداً من التماثيل الضخمة وأصنام أبى الهول . وفى أول حكمه اشترك فى غارة على البابليين لم يجن من ورائها ثمرة سوى الاستيلاء على بعض المدن الفينيقية، وفى

---

* انظر الفصل التالى

أواخر أيامه أرسل قوّة لمساعدة اللوبيين على الإغريق المستعمرين لمقاطعة «قِيرينيقيا» بشمال إفريقية (برقة)، ولم يرسل طبعاً فى هذه الحملة أحداً من الإغريق المأجورين ، فانهزمت الجنود الوطنيــة شر هزيمة واختاروا « أحمِس الثانى » ملكاً للبلاد بالرغم من مقاومة جند «ابريس» اليونانيين

استيطان الاغريق بمدينة نقراطيس

ولما تولى «أحمس الثانى» سنة ٥٦٩ ق . م لم يحنق على الجند اليونانية بل نقلهم الى منف وجعلهم حرساً له . ثم عضد الحركة التجارية وأباح لتجار الإغريق الاستيطان بمدينــة « نُقْراطِيس » (نُقْراش)، فكانت بمثابة مستعمرة لهم، ومنها انتشروا فى جميع أنحاء مصر واتجروا مع المدن التى على شواطئ البحر الأبيض

وكان فى أول أيامه على خلاف مع البابليين ، فأصلح ما بينه وبينهم ، واتفق معهم ومع الليديين وغيرهم من الأمم الغربيــة (٥٤٧ ق . م) على مقاومة دولة « فارس » التى ابتدأت فتوحها إذ ذاك تمتد شرقاً وغرباً ، ولكن اتفاقهم لم يفلح فأسقط «كُورِش» ملك الفرس دولةَ بابل ، وغُلِب الميديون على أمرهم . ولولا أن أحمس لحقتــهُ المنية فى سنة ٥٢٥ ق . م . لرأى بعينه الجيوش الفارسية تقرع أبواب بلاده

عصر احمس الثانى

وكان أحمس من أحزم ملوك مصر وأكثرهم نشاطاً ، وفى أيامه استولى المصريون على جزيرة قبرس فدفعت لهم الجزية ، وكانت البلاد فى عهده فى رقىّ ونعيم حتى قال هيرودوت انهُ كان بمصر وقتئذ ٢٠٫٠٠٠ مدينة

ومن أعماله أنهُ نقّح القوانين المصرية ، ولما حضر «صُولون» المشرّع الإغريقى الى مصر فى تلك الأيام اختار بعض تلك القوانين وعمل بمقتضاها فى « أثينا »

الفصل التاسع

الفرس وفتحهم لمصر

﴿ تمهيد ﴾

منشأ الفرس

الفرس أُمة شرقية ذات حضارة قديمة استوطنت «ايران» وأنشأت بها دولاً فى زمن غير معروف ، وأول ما عرف من أمرهم يقيناً انهم كانوا خاضعين لسلطان « الميديّين » ، وهم أمة قريبة منهم جداً فى الجنسية كانت تمتد بلادهم شمالىّ بلاد الفرس وغربيها ويحدّها من الشمال الشاطئ الجنوبى لبحر «قَزْوِين». غير أنهُ فى أواسط القرن السادس قبل الميلاد (٥٥٠ ق . م) قام من بين الفرس رجل يدعى «كُورِش» تغلب على ملك الميديين وأسس دولة الفرس المعلومة التاريخ . ومن يوم انتصاره انتقلت العظمة والسلطان من الميديين الى الفرس

الميديون

الليديون

وبعد ان استولى « كورِش » على « ميديا » أخذ فى بسط سلطانه على ما جاوره من البلاد ، وما زال كذلك حتى وصلت فتوحه الى أبواب بلاد « اللّيدِيّين» . والليديون هم أُمة كانت تشغل جزءاً كبيرًا من آسيا الصغرى ، وكانوا على جانب عظيم من الحضارة والتقدُّم ولهم شهرة فائقة فى الصنائع والموسيقى والتنعم والبذخ ، ولملكهم « كرِيسُوس » (قارُون) صيت هائل فى الغنى ، حتى ليضرب بهِ المثل فى ذلك. فلاقى كورش صعوبة كبيرة فى التغلب عليهم ولكنهُ تمكن بعد من ذلك بفضل قوته ومهارته

استيلاء الفرس على ليديا

الحربية ، فانضمت ليديا أيضاً الى بلاد الدولة الفارسية سنة ٥٤٦ ق . م

وفى سنة ٥٣٨ ق . م تغلب على البابليين وضم بلادهم الى دولته ، وما زال يوسع نطاق هذه الدولة العظيمة حتى صارت تمتد من شواطئ « البسفور » غرباً الى نهر « السند » شرقاً . وقد لُقِّب كورش «بالأكبر» و « بمؤسس الدولة الفارسية العظيمة » لهذه الأعمال العظيمة التى قام بها

وتولى الملك بعده ابنه « قَمْبِيز » . ومنْ بعده « دارا الأول » وكان أيضاً ملكاً عظيماً ، فقام بتتميم ما بدأه « كورش » فوطد السكينة فى البلاد واستولى على « البَنْجَاب » فى الهند وعلى بعض البلاد التى شمالى بلاد الإغريق

استيلاء الاسكندر على فارس

ثم تولى بعده « إجزرسيس » (أَرْتَخْشِشَا) ومن بعده بفترة قصيرة «أَرْتجزِرْسِيس الأول»(أَرْتَخْشِيَارِش) ، ثم«دارا الثانى» ثم«أرتجزرسيس الثانى» ثم « أرتجزرسيس الثالث » ثم « دارا الثالث » وهو آخر ملوك الدولة الفارسية القديمة . وفى أيامه استولى الاسكندر على فارس سنة ٣٣٠ ق . م كما سيأتى بعد*

ولنرجع الآن الى علاقة مصر بفارس فنقول :

---

* وبعد ذلك بقيت فارس مدة من الزمن تابعة لغيرها أو مجزأة تحت حكم ملوك الطوائف حتى سنة ٢٢٧ بعد الميلاد حيث عاد لها استقلالها أيام الدولة السَّاسانية وأخذت فى توسيع نطاق ملكها فصارت دولة عظيمة . ثم أخذت فى أسباب الضعف بعد أيام « كِسْرَى أنو شَرْوَان » ، أى من أواخر القرن السادس بعد الميلاد . وما زالت كذلك حتى استولى عليها العرب فى القرن السابع

﴿ اغارة الفرس على مصر ﴾

عند وفاة احمس خلفه ابنه «ابسمتيك الثالث» ، وفى أيام هذا الملك شرع الفرس فى غزو مصر بعد أن أعدوا لذلك المعدات الكبيرة ، فجاء ملكهم « قمبيز » بجيش جرّار لفتح البلاد التى طالما تاقت نفس سلفه الى اخضاعها . وكانت مصر اذ ذاك منيعة التحصين ، ويقول مؤرخوا الإغريق أنفسهم ان أحد الجنود اليونانيـة خان المصريين ودلّ الفرس على أسهل الطرق التى يمكنهم منها أن يدخلوا البلاد ، فهوجمت مدينة « بِلُوز »(الفَرَما) بحراً ، وزحفت الجيوش الفارسية على مصر براً ، وبعـد مقاومة شديدة بجهتى بلوز ومنف سقطت البـلاد ، وأخذ « قمبيز » ابسمتيك أسيراً ، فانتهت بذلك أيام الأسرة السادسة والعشرين

استيلاء قمبيز على مصر

وبعد أن استولى قمبيز على مصر فى سنة ٥٢٥ ق . م أعـدّ ثلاث جيوش تقصد ثلاث جهات مختلفة : الأولى « قَرْطاجَنَّة » والثانية واحة أمون (سيوة) والثالثة بلاد النوبة . فلم تفلح الأولى بسبب امتناع الفينيقيين عن العمل مع أنهـم كانوا أهم رجال سفن الجيش الفـارسى . وكانت الثـانية طامة كبرى على قمبيز ، اذ أن الجيش الذى ارسله فيها وقدره ٥٠،٠٠٠ مقاتل هلك فى الصحراء ولم يسمع عنه شىء . أما الثالثـة فتمكنت من غزو بلاد النوبة ، إلا أنها عند عودتها صادفتها عاصفة رملية بالقرب من الجنادل الأولى كادت تقضى على جميع رجالها

وكان « قمبيز » فى أول أمره سالـكاً ملـكاً حسناً فى معاملة المصريين يحترم دينهم وعاداتهم ، ولكنه لما لحقته كل هذه الخسائر ، ورأى شماتة

المصريين به أخذ منه الغضب كل مأخذ ، فخنق على البلاد ومن فيها ، وغيّر معاملته لهم بالمرة ، فبدت منهُ القسوة بجميع ضروبها وكرّ على المعابد والهياكل فهدّمها ، وقتل بيده العجل أبيس أثناء أحد الاحتفالات الكبيرة . وعند عودته الى فارس مات فى الطريق سنة ٥٢١ ق . م

دارا الأول

ولما تولى ملك فارس « دارا الأول » زار مصر وأراد أن يصلح ما أفسده قمبيز ، فأبدى احتراماً كبيرًا لديانة المصريين ومعبوداتهم وشيّد هيكلاً عظيما للمعبود أمون بواحة سيوة الكبرى . وعضد التجارة وشيد كثيراً من المدارس وفتح الخليج السالف الذكر الموصل بين النيل والبحر الأحمر ، وأصلح الطريق بين « قِفْط » وشاطئ البحر الأحمر المار بوادى الحمامات . وكانت الضرائب التى ضربها على المصريين ثقيلة إلا أنها كانت تجبي بسهولة لتوافر الخيرات بالبلاد

طرد الفرس من مصر

ورأى المصريون فى آخر أيامه ما لحقه من الخسائر فى واقعة « مَرَتون » فى حربه مع الإغريق* فخرجوا عن طاعته ، وطردوا الفرس من البلاد بقيادة أحد الأمراء الوطنيين سنة ٤٨٦ ق . م

غزو الفرس لمصر من جديد

ولما تولى « إجزرسيس » ملك فارس غزا مصر من جديد ، فأصرّ المصريون على الثورة مرة أخرى ، وفى أيام خلفه « ارتجزرسيس » ثاروا على الفرس بمساعدة ملك « لوبيا » واسطول إغريقى ، فأخمدوا ثورتهم بعد قتال طويل

الأسرة السابعة والعشرون (فارسية)

وبعد ذلك بقيت البلاد هادئة فى زمن « اجزرسيس الثانى » ومعظم أيام « دارا الثانى » الى أن هلك فتمكن المصريون بمساعدة الإغريق من

---

* راجع حروب الفرس مع الإغريق

التخلص من حكم الفرس ، وكان ذلك سنة ٤٠٥ ق.م. وتعرف ولاة الفرس هؤلاء بالأسرة السابعة والعشرين

﴿ الأسرة الثامنة والعشرون الى الأسرة الحادية والثلاثين ﴾

خروج الفرس مرة ثانية

طرد « أمِرْتوس » (أمنروت) الفرس من مصر واستولى على سرير الملك ست سنين ولم يخلفه أحد من نسله ، بل آل الملك بعده إلى ملوك الأسرة التاسعة والعشرين ومن بعدهم الى الأسرة الثلاثين التى أسسها « نِخْتَنِبُو الأول » (نَقْطانِب) . ولم تكن مصر على جانب عظيم من القوة فى الفترة التى بين خروج الفرس وبين أيام هذا الملك ، ولكنها نهضت فى عصره من رقادها نهضة لم تكن إلا بمثابة صحوة الموت ، اذ أنهُ فى أيام آخر ملوك هذه الأسرة المدعو « نختنبو الثانى » تمكن الفرس سنة ٣٤٠ ق م من دخول مصر مرة أخرى بعد أن غابوا عنها ٦٥ عاماً . وبذلك انتهت أيام الفراعنة بعد أن حكموا في وادى النيل نحو ٤٠٠٠ سنة ، ولم تقم لهم بعد ذلك قائمة

غزو الفرس لمصر مرة ثالثة

انتهاء دولة الفراعنة

فكأنَّ مصر قد علّمت العالم سياسة المُلْك ونشر الحضارة فأظهرت فيه أمماً قوية عديدة ، لكنها هرِمت بعدُ ، وأصبحت غير قادرة على الجولان في ذلك المضمار الذى يتسابق فيه أبناؤها بما لهم من قوة الشباب وجديد الهمة . وهكذا حال الأمم تصعد ثم تنخفض : « فما طار طير وارتفع ، الا كما طار وقع »

الفصل العاشر

كلمة في الحضارة المصرية القديمة

ان الآثار الكثيرة المنبثة فى جميع أنحاء الدنيا تفصح بأجلى بيان أن قدماء المصريين بلغوا فى الحضارة درجة لم تسبقهم اليها أمة من الأمم القديمة . وهى وان كانت لا توازى حضارة العصور الحاضرة المشيدة على دعائم العلم وتذليل قوى الطبيعة تعتبر بلا شك عظيمة جداً بالنظر لوجودها فى تلك الأزمنة الغابرة . ولم تكن قاصرة على ما يكون الغلب فيه للقوة والسلطة والصبر والمثابرة ، كتشييد الصروح الشاهقة ، وشقّ الأنهار واقامة السدود (الخزانات) بل أضافوا الى ذلك أنواع الحضارة الأخرى ، من مظاهر التنعم والرفاهية والتأنق وإيثار السرور ، وحب العلم ، والميل الى الفنون والأشياء الجميلة . ونفصل هذه الأمور بعض التفصيل فنقول :

﴿ الزراعة وتربية الحيوان ﴾

عند قدماء المصريين

موافقة البلاد للزراعة

كانت الزراعة ، ولا تزال ، هى الوسيلة الطبيعية لمعيشة المصريين وسعادتهم . ولذلك كان أشرافهم يشرفون بأنفسهم على الزُّرّاع ويعملون بأيديهم كل ما يؤدّى الى طيب الزرع وخصب التربة

حاصلات مصر القديمة

ولم تكن طرق الزراعة تختلف كثيراً عما هى عليه الآن ، وكان أهم ما يزرعون القمح ثم الكتّان والذرة وحبوب أخرى . وكانوا يُعنَوْن بالحدائق والبساتين ، وكان لها عندهم نظام دقيق تكثر به الفواكه وتفرُه ، وكان العنب

والبلح اكرم الثمار التى اشتهرت بها مصر فى تلك الأزمان الخالية

أمَّا ريّ الأرض فكانوا يستعملون فيهِ طريقة الأحواض فى الأرض التى يعلوها النيل ، وطريقة الدلو والدالية (الشادوف) فى غيرها

اشهر حيواناتها

وكان لهم عناية عظيمة بتربية الحيوان ، ويقتنون من قُطعان البقر والغنم والمعْزِ ما لا يزيد عليه الا الإوزّ والدَّجاج ، وكانت الحمير من دوابهم المشهورة ، يسخرونها في كثير من الأعمال . أما الخيل فلم يُعرَف أنهم استعملوها قبل عهد الرعاة . وقد ظهر الآن لعلماء أوربا أن مهارة المصريين فى التفريخ الصناعى لبيض الدَّجاج ليست قاصرة على اختراعهِ فقط ، بل ان طريقتهم لا تزال أفضل الطرُق مع ما بلغتهُ الأمم الحديثة من التقدم فى العلوم الطبيعية

التفريخ الصناعى

﴿ الصنائع ﴾

نسج الكتان

كان قدماء المصريين يُحسنون كثيرًا من الصنائع مثل صناعة نسج الكَتّان الرقيق والصفيق وصباغة الأنسجة وصناعة الخزَف والزُّجاج وسبك المعادن من النُّحاس والشَّبَه (البرنز) والفضة والذهب . ولم يرد للحديد ذكر فى آثارهم

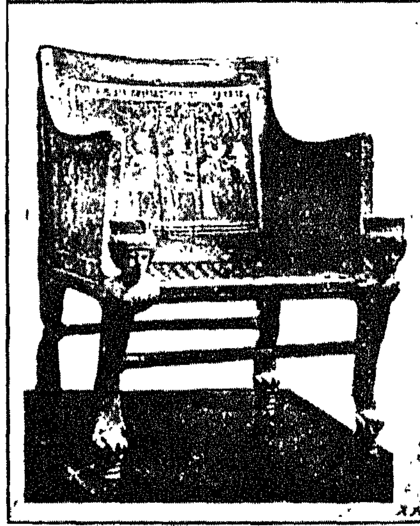
صناعة الحلى

وكان لهم مهارة غريبة فى صناعة الحِلِى . وفى دار العاديَّات بالقاهرة بعض حلى أمراء الأسرة الثانية عشرة فى حالة من الاتقان لا تمتاز عنها الحلى التى تصنع فى العصر الحاضر

النجارة

وكذلك كانت صناعة النجارة ، فلم يكد ينقصهم شيء من الآلات المستعملة فيها الآن ، فيتخذون المصنوعات الكبيرة الحجم من خشب

الجُمّيْز ونحوه ، والأثاث النفيس من الأخشاب الفاخرة المجلوبة من الممالك المجاورة ، كآبنوس السودان وأرْز لُبنان وغيرهما *



(كرسى مصرى قديم)
بدار الآثار المصرية رسم ف . د . بيريز
(مثال من دقة فن النجارة عند قدماء المصريين)

صناعة الجلود

وكانوا يُحسنون صناعة دبغ الجلود ويُدخلونها فى كثير من أثاث المنازل ، فيتخذون منها المساور والمخدّات ومقاعد الكراسى والأرائك ، ويصنعون منها سيوراً لربط الجثث المحنطة منقوشة نقشاً جميلاً ، ويزينون بالجلد الملوّن كثيرًا من الآلات كالقيثار وغير ذلك مما لا ينقص عما تُستعمل فيه الجلود الآن . ومن أهم الصناعات التى أجادها المصريون

* وقد عُثر بين آثارهم على صورة جميلة بها طائفة من النجارين يشتغل كل منهم فى العمل المختص به ، ويرى الناظر فيهم شخصاً مشتغلاً بقدر على نار يظهر انها قدر اذابة الغراء

صناعة الورق المتخذ من نبات البَردى ، فكانوا يشقّون سوقه شرائح يوضع بعضها بجانب بعض ، ثم يوضع كذلك فوقها طبقة أخرى شرائحها مقاطعة للأولى ، وتُلصق الطبقتان بالغراء وتُكبسان وتُصقلان . وبقيت هذه الطريقة مستعملة الى أوائل القرن الثالث من الهجرة ، وكان ورقها يسمى « القِرطاس المصرى » صناعة الورق

وقد برع المصريون فوق ذلك فى صناعات كثيرة ، مثل بناء السفن والقوارب ، لقلة طرق المواصلة عندهم غير النيل ، ومثل عمل التماثيل والأصنام من الخشب والحجر والطين والجص ، وصناعة الآلات الموسيقية والآنية المتخذة من المعادن وحجر المرمر والرخام ، وصنع الآلات الحربية وغير ذلك مما أثبت بلا شك عظم تأثير مصنوعاتهم فى تقدم الفنون الجميلة الإغريقية

﴿ التجارة ﴾

تعوّد المصريون التجارة من أقدم أزمانهم ، فكان النيل والترع غاصة بالقوارب التى تحمل الحاصلات المختلفة ، ويجتمعون فى أسواق لا يقل ازدحامها عن ازدحام أسواق الوقت الحاضر ، غير انهم لم يعرفوا استعمال النقود فى بادئ الأمر بل كانوا يستبدلون بعض السلع ببعض . ثم اتخذوا من الذهب والفضة حلقاً وسبائك وقضباناً يتعاملون بها فى تبادل الأشياء الكبيرة ، فكانت على ما نعلم أول نوع استعمله الانسان من النقود استعمال النقود

وما زالت تجارتهم فى نموّ حتى سلكوا البحار ، ونظموا سير القوافل ، ووصلوا النيل بالبحر الأحمر ، وبعثوا بالبعوث البحرية للاستكشاف عن جول البحار

البلاد المجهولة ، حتى صارت سفنهم تسلك البحار من المحيط الهندى الى بحر ايجة

المواد التى اتجروا فيها

وكانوا يجلبون من النُّوبة والسودان الذهب وريش النَّعام والآبنوس والعاج والجلود ، ومن بلاد « بُنت » وما وراءها المُرّ وأنواع الصموغ العطرية والأخشاب ذات الرائحة الذكية ، ومن الشام خشب الأرز ، ومن طورسينا المعادن وبعض الأحجار الكريمة

ويحملون الى الممالك المجاورة لهم مصنوعاتهم من خزف وزجاج وكَتَّان وورق ، وقد وجدت آثارها فى جزيرتى قبرس ورودس . وارتقوا فى التجارة الى استنباط طرُق مسك الدفاتر ، وضبط المحاسبات ، وكتابة العقود والمشارطات والوصول والصكوك ، والنَّظِرة بها الى آجال مختلفة ، وغير ذلك من ضروريات التجارة الراقية

﴿ العلوم والمعارف ﴾

لا يزال الباحثون يزيدوننا كل يوم علماً جديداً بعظم مبلغ المصريين من العلوم والمعارف ، وسيدوم الحال على ذلك دهراً طويلاً . فتلك آثارهم ومبانيهم الضخمة ، ونقوشهم البديعة ، وكتاباتهم العجيبة فى الصوّان من غير أن يستعملوا الحديد والفولاذ أو يعرفوا الآلات الرافعة التى تُستعمل الآن ، تدلنا على درجة نبوغهم فى كثير من العلوم والفنون

الفلك

والمصريون من أقدم الأمم التى اشتغلت بعلم الفلك لصفاء جوّهم ، وان لم يتفق كثير من آرائهم فيه مع العلم الحديث . وقد أجمع مؤرخو اليونان ان أمتهم لم تأخذ هذا العلم الا عن المصريين ، وانهم كانوا يشتغلون به فى

وقت لم ينافسهم فيهِ الاَّ الكَلْدانِيون . وقد عُثر فى بعض المقابر على آلات للرصد ومصوَّرات عجيبة لشكل السماء ومواقع نجومها ، كما عُثر لهم على بعض حسابات دقيقة تدل على نبْغهم فى علم الميقات والتقويمات . فهم أول من حسب طول السنة بالتقريب ، وكان ذلك سنة ٤٢٤١ ق . م وهو أوّل تاريخ مُدوّن معروف . ويقال إن الهرم الأكبر كان له عندهم فائدة كبرى فى حساب حركات الكواكب

العلوم الرياضية وفن الهندسة

أما العلوم الرياضية فالظاهر انهم لم يبلغوا مبلغاً عظيماً فى النظرى منها ، سواء أكان فى علم الحساب أم الهندسة النظرية ، ولكنهم ضربوا بسهم وافر فى الفنون العملية المتعلقة بها كفن الهندسة والعمارة . وحسبنا دليلا على ذلك ان «مينا» تمكّن فى ذلك العهد البعيد (٣٤٠٠ ق . م) من بناء سدّ عظيم حوّل بهِ مجرى النيل ، وأن « مرنرع » و «أسرتسن الثالث» حفر كل منهما قناة فى صخر الصُّوّان ، الأول سنة ٢٥٧٠ ق . م . والثانى سنة ١٨٨٧ ق . م . وأن « امنمحعت الثالث » شيَّد ذلك الخزان العظيم الذى ادّخر بهِ جزءاً كبيرا من مياه الفيضان وأحيا بلاداً شاسعة فى أقليم الفيوم

الكيمياء

وأما علم الكيمياء وخلط المعادن فقد كانت لهم فيهِ قدم راسخة : يدل على ذلك اتخاذهم من الشَّبَه (البرنز) آلات صلبة يتيسر لهم بها قطع أحجار الصوّان ، وكذلك تحنيط الموتى تحنيطاً أبقى أجسادهم ألوفاً من الأحقاب ، ثم تركيب الأصباغ الثابتة التى لا تتألف الاَّ بعد دراية عظيمة بخواص الحُموض والأملاح والأصداء والعضويات

الطب

وساعدهم علمهم بالكيمياء فى صناعة الطب والجراحة ، فلم يفضلهم

فيهما من الأمم القديمة الاَّ اليونان بعد عصور طويلة ، وإن كانت دياناتهم قد عاقتهم عن فهم تركيب الانسان فهماً صحيحاً بتحريمها التشريح

الفلسفة والقوانين

وهم كانوا مصدر العلوم الفلسفية والقوانين الإدارية ، وعنهم أخذتها الأمم المجاورة لهم . وقد وفد اليهم من واضعى القوانين «ليكُرْغ» و«صُولُون» ، ومن الفلاسفة « فِيثاغُورس » و « أَفْلاطون » و « إِقْليدِس »

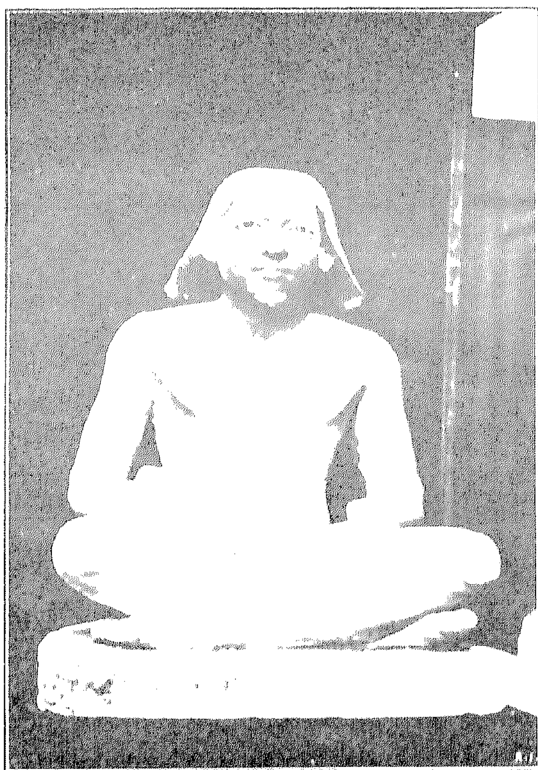
ومما يُؤسَف له أن مُعظَم علم المصريين لم يُحفظ حتى يصل الينا ، لأن أكثر علمهم كان عملياً يتوارثهُ الولد عن والده بدون تدوين الاَّ ما ندر ، لقلّة الجامعات والمدارس المفتحة الأبواب للخاصة والعامة بالنظام المعروف الآن . نعم ان « مَنف » و « طيبة » و « عين شمس » كانت مهداً للعلوم والمعارف ، ولكنها كانت قاصرة على أولاد الملوك والأمراء وأبناء بطانتهم ، أو على الكهنة وتلاميذهم

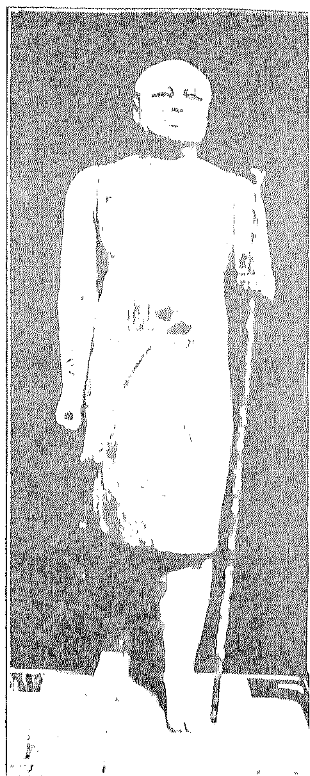
﴿ المبانى ﴾

من أهم ما اشتهر به المصريون مبانيهم العظيمة الدالة على عظيم سلطانهم ، وسعة حضارتهم ، ورفيع رتبتهم فى العلوم عامةً ، وفن العمارة خاصة

مميزات المبانى المصرية

ولم تكن مبانيهم بالطبع فى مبدأ عصورهم بهذه الفخامة والعظمة ، بل كانت تُبنى باللبن والآجر . ثم اقتلعوا الأحجار العظيمة خصّوا بها بناء أهرامهم ومعابدهم ونحتوا منها مسلاَّتهم ، وضنُّوا بها على بناء مساكنهم ، فلم يبقَ منها الاَّ بقايا متخربة . ومما تمتاز بهِ مبانيهم ان قواعدها غالباً مستطيلة أو مربعة وأعلاها أضيق من أسفلها ، ولم يحاولوا زُخرُفها بتدوير زواياها أو اقامة القباب والمنائر والأبراج عليها . وبالرغم من كل ذلك تمتاز





١





٣

نماذج من التماثيل المصرية

(١) شيخ البلد و (٢) الكاتب : (رسم محمد افندى على سعودى)
(٣) رع نفر و (٤) الاميرة نفرت وزوجها : (رسم ف. د. بيرزا)

مبانيهم بأن منظرها مشعر بعظم القوة، وضخامة السلطان، وسعة العلم، ودقة الصنع

﴿ التصوير وصناعة التماثيل ﴾

طروء الرمز والاصطلاح فى التصوير

كان للمصريين ولَع عظيم بالرسم والتصوير، وميل الى استعمال الأصباغ الزاهيـة التى يتألف من اجتماعها منظر أنيق لا يُكل البصر ولا يُفرّقه . وكان لهم ذوق سليم فى رسم النبات والحيوان ، وكانت صوَر الأناسيّ وتماثيلهم غاية فى الاتقان وملاءمة الطبيعة، غير انهُ طرأ عليها بعد عهد الأسرة الخامسة شيء من الاصطلاح والرمز أضاع بعض رَوعتهـا وتناسُبها وان لم يذهب باتقانها . ومن أبدع التماثيل التى وصلت الينا من تلك العصور البعيدة علاوة على تمـاثيل الملوك الذين تكلمنا عليهم : (١) التمثال الخشبي المعروف بشيخ البلد . (٢) تمثال «رَع نُفر» أحد كهنة منف . (٣) الأميرة المصرية القديمة « نفِرْت » وزوجها . (٤) تمثال الـكاتب . وجميعها من عهد الدولة القديمة ومحفوظ الآن بدار الآثار المصرية

﴿ الـكتابة واللغة ﴾

لا يكاد يوجد شك فى ان الكتابة المصرية أقدم كتابة فى العالم . والأرجح ان الفينيقيين أخذوها عن المصريين ببعض تغيير، وعن الفينيقيين أخذت الأمم . فكانت أساساً لكتابة جميع الأمم المتمدينة فى العصر الحاضر

تدرج الـكتابة الهيروغليفية

وتشتهر الـكتابة المصرية باسم « الـكتابة الهيروغليفية » ، وكانت فى أول أمرها مكوّنة من صور الحيوان والنبـات والأشياء المتداولة : كل

صورة منها رمز لمعنى أو معنيين أو أكثر . ثم دخل عليها بعض تنقيح واختصار ، فنشأت منها الكتابة « الهِيراطِيقِيَّة » ، ثم هُذّبت هذه أيضاً ونشأت الكتابة « الدّيمُوتيقيَّة » ، غير انهما لم تنسَخا الأولى ، وبقيت تُستعمل فى النقش على المبانى والآثار الدينيـة . وقُصِرت الحديثتان على المكاتبات التجارية والتأليف وكل ما ينبغى فيهِ السرعة

أما اللغة المصرية فقد تقلَّبت فى أطوار عديدة انتهت باللغة القِبْطِية الأخيرة التى بقيت الى حوالى القرن الرابع عشر بعد الميلاد . وبالرغم من اختلاف تلك اللغات كان لهم لغة رسمية تحاكَى فى كل عصر من عصورهم فى معظم كتاباتهم الأثرية . ويظهر من ألوف أوراق البَردى التى عُثر عليها ومن نقوش هياكلهم انهُ كان لهم لغة ذات آداب راقية وشِعر رقيق نظموا بهِ كثيراً من القصص والأغانى ، وكتبوا كتباً شتى ، غير أن معظم ما وصل منهـا الينا ليس إلاَّ قطعاً مشتتة لا يتأتى تأليف كتاب واحد منها . وأهم مجموعة وصلت الينا هو « كتاب المَوْتى » المشتمل على معتقَداتهم وأخبار آلهتهم ومواعظهم وزواجرهم

اللغة المصرية وآدابها

« العادات والأخلاق »

وصل الينا كثير من عادات قدماء المصريين من أشهرها :

انهم كانوا يتوارثون الحِرَف والصنائع ، ويتناولون ما ينقى المعدة كل شهر ، ويتزوجون بالأخت ، ويرمون فتاة مزينة فى النيل قرب مدة فيضانه قرباناً له ، فأبطل عمرو بن العاص هذه العادة ، ويجمعون بين التمتع بطيب العيش والتخشُّن فيهِ ، وينهَون عن الانهماك فى الترف

ومن عاداتهم صنيع الولائم فى المواسم والأعياد ونحوهـا فى وقت الظهر، فيحضرها الرجال والنساء، فيأكلون ويشربون على سماع الموسيقى وغناء الرجال والنساء، ثم يدخل الراقصون والراقصات فتعزف الموسيقى ويصحبها تصفيق الأيدى حتى ينتهى الرقص

حب الموسيقى

وكان المصريون فى حياتهم المنزلية يميلون الى التمتع بالطعام الجيد، والى فرش منازلهم بالأمتعة الثمينة وترتيبها على أحسن نظام. وكان اكثر المصريين يُحَلِّقون لحاهم وشواربهم، وربما أبقى الملِك أو العظيم عُثْنُونًا فى ذَقَنِه. وكانت الملوك والأشراف يتزينون بالشعور المستعارة ويُعْنَون بترجيلها وتجعيدها. ومن العامة مَن يحلق رأسه ويلبس قلنسوة، ومَن يرسل شعره على كتفيه

المعيشة المنزلية

أما أخلاقهم فيستدل من كلماتهم المأثورة « ان أحسن الرجال فى نظرهم مَن كان قوى الجأش والإرادة، مستقيماً، محترماً لنفسه، مجتنباً أخلاَّء السوء، نشيطاً، صادقاً، لا يعرف الغش ولا التمويه، حازماً، متبصّراً، حافظاً لكرامة نفسه بلا تكبر ولا تعاظم ». وكانوا يميلون الى الثقة بأنفسهم، وحب أعاظم الرجال وتقليدهم، ويمقتون الحسد بوجه خاص

افضل الاخلاق فى نظر المصريين

﴿ التربية والتعليم ﴾

كانت الأمهات يقمن بأمر تربية الأطفال، فاذا شبُّوا أُرسلوا الى الأساتذة ليتعلموا ما اختير لهم من صناعة أو علم. ومما أُثر عنهم قولهم للصبي: « انصرف الى العلم وأحبه كما تحب أمك، إذ لا شيء أثمن من العلم. ولا تصرف يوماً فى اللهو والكسل وإلا ضُرِبت بالسوط». وقولهم:

بعض نصائح للاطفال

«لا تنسَ احترام من هم أسنّ منك أو أكبر منزلة ، ولا تجلس وهم واقفون»

وكان أبناء الملوك والأمراء والأشراف يُعلَّمون فى مدارس تُنشأ فى منازلهم ، ويضم اليهم من فى سنهم من أبناء خواصهم

قيمة المرأة عند المصريين

وكان للمرأة من العناية والتعليم والحقوق ما للرجل تقريباً : بدليل ان منهنَّ من شغلْنَ المناصب العامة وتولَّينَ الملك*

الالعاب الرياضية

وكان المصريون لا يهملون أمر الرياضة البدنية . فكانت الكُرة يلعبها الصغار والكبار، وكان للصغار ألعاب أخرى منتظمة ، كما كان الكبار يحبون الصيد والقنص والمصارعة ، التى نرى منها نموذجاً بديعاً على مقابر بنى حسن

« الحكومة وحالة السكان »

كانت الحكومة المصرية القديمة فى جميع أطوارها ملَكية غير دستورية . وكان الملك فيها ممجَّداً محبوباً ، تعتقد الأمة انهُ الواسطة بينها وبين الآلهة . وهو القابض على كل شىء : فهو الذى بيده التشريع والقضاء ، وهو الذى يضرب الضرائب فيفرض منها ما شاء (وذلك مخالف بالمرَّة لشكل الحكومة عند الإغريق والرومان) . وكان يتخيَّر له من بين رجاله وزيراً يكل اليهِ الإشراف على جميع مصالحه ودواوينه

وقد تخلَّلت تلك الآلافَ من السنين فَتَراتُ كاد الأمراءُ والأشرافُ فيها يسلبون الملك بعض سلطته ، كما رأينا عند الكلام على العهد

---

* من ذلك ان « نِيتُوكريس » و « حتْشبسوت » جلستا على سرير الملك وان امرأة أخرى تقلدت منصب رياسة كهنة « أمون » فى أيام النهضة المصرية

الإقطاعى ، ولكن انتهى الأمر باسترداد الملك لسلطته فصار كما كان : المليك المُمَلَّك

طبقات السكان

أما سكان البلاد فكانوا على عدة طبقات : الأولى طبقة الأشراف ، وهم الذين كان يقلدهم الملك مناصب الحكومة ، وكانوا يعيشون فى سعة وبَذخ ، ولبعضهم من القصور والخدم والحاشية ما يضارع به الملك . وأما الطبقة الوسطى فكانت فى العصور الأولى مكوّنة من الصنّاع ، كالصاغة والزّجّاجين وغيرهم . وفى عهد الدولتين الوسطى والحديثة زاد عدد هذه الطبقة وكثرت ثروتها ودخلت فيها طائفة الكتبة . وأما الطبقة الدنيا فكانت أشبه بالموالى فى البلاد مع انهم هم المولّدون فعلا لثروة الأمة والبُناةُ الحقيقيون لأهرامها . على انهُ لم يكن هناك فاصل مانع بين هذه الطبقات ، فكثيرا ما كانت تتدرَّج الأفراد من طبقة الى أُخرى ، وقد حدث ان رجلاً من غير حملة الألقاب تدرَّج حتى تولى عرش الملْك . وفى عهد الدولة الحديثة دخل عدد كبير من الطبقة الوسطى فى الجيش ، فاكتسبوا لأنفسهم مالاً وجاهاً عظيمين ، وكوّنوا منهم أُسرات شريفة

﴿ الديانة ﴾

تنوعت ديانة قدماء المصريين على طول السنين ، فكانوا فى أول أمرهم يعتقدون بوجود إله واحد عظيم حىّ باق ، ورمزت له كل قبيلة برمز خاص ، ثم رمزوا لصفات هذا الإله الواحد برموز صارت بعدئذ معبودات ثم عبدوا الكائنات الطبيعية التى لها تأثير فى حياتهم ، كالشمس والقمر والأرض والنيل ، ورمزوا لصفات كل منها باشكال خاصة صارت معبودات

أيضاً ، حتى نسوا التوحيد وصار قاصراً على الكهنة . ثم اعتقدوا بحلول الآلهة فى أجساد الحيوان . فعبد كل قوم ما رأوا أن روح الإله حلت فيه كالقط والكلب والتمساح ونوع من العجول يسمى « أبيس » وهو أهم معبوداتهم الحيوانية *

وكان لكل من هذه المعبودات منزلة أكبر فى بعض الجهات منها فى غيرها . وكثيراً ما حدثت فتن ومشاحنات بين سكان الجهات بسبب تفضيل بعض هذه المعبودات على بعض . وأكبر المعبودات فى الجملة ما كان مقره حاضرة المُلْك

وكانوا يصورون هذه الآلهة بصور مختلفة : منها ذات الرءوس البشرية ومنها ما رأسه رأس بهيمة ، وما رأسه رأس طير . ويلقبونها باسماء مختلفة منها « فِتَاح » للإله الأعظم ، و« رَعْ » و « أمُون » لإله الشمس و « أوزِيريس » للشمس عند الظلام . وجعلوا لكل منها معابد وأوثاناً خاصة . وكان أهم معبد لرَع بمدينة « أون » (عين شمس) ، كما كانت « طيبة » مقر عبادة « أمون » ، و « منف » مقر عبادة « فتاح » . وكان تشييد هذه المعابد وتدوين الحوادث عليها من أكبر مطامع الفراعنة ومفاخرهم

---

* العجل أبيس هو فى اعتقادهم الحيوان الذى تمثل فيه المعبود « فتاح » وكانوا يختارونه من بين مولودات البقر باجتماع عدة أوصاف فيه كسواد جلده ووجود شامة بيضاء مثلثة الشكل على جبهته . وكان يوم الاهتداء اليه يوم سرور عام ، كما كان يوم موته ابتداء حزن عام يستمر الى العثور على عجل آخر فيه جميع الصفات المطلوبة . وكانوا يحتفلون بدفنه احتفالاً عظيماً ، ولهذه العجول مقبرة هائلة ما زالت تشاهد بسقارة الى الآن

وكان قدماء المصريين شديدى التمسك بدينهم يعتقدون ببعث الأجسام بعينها ، ولذلك بالغوا فى تحنيط أجساد موتاهم وحفظها فى مقابر منيعة . ويرجون الثواب ، ويخشون العقاب فى اليوم الآخر ، فكان للدين تأثير شديد فى عاداتهم وأخلاقهم وعلومهم ومبانيهم وصناعتهم . ومن اهتمامهم العظيم بالدين وأمر الآخرة أن صار اكبر رغبة لأى شخص منهم أن يحتفل بدفنه احتفالا عظيما

الفصل الحادى عشر

كلمة فى الفينيقيين

الفينيقيون أمة سامية قديمة كانت تنزل ساحل الشام من سفح لبنان الى البحر الأبيض المتوسط . وقد ابتدأ ظهور مدنيتهم فى عهد الدولة الوسطى من قدماء المصريين

موافقة البلاد الفينيقية للتجارة

ولما كانت بلادهم وسطاً بين الشرق والغرب وشواطئها كثيرة الفرض والمرافئ الصالحة لرسوّ السفن وانشاء الموانى التجارية ، انتفع الفينيقيون بهذه المزايا ، فتقدموا فى التجارة والملاحة حتى فاقوا غيرهم فيهما . ولما ضاقت بلادهم بهم اضطروا الى الهجرة الى غيرها ، فانشئوا لهم مستعمرات عديدة فى الممالك التى يعاملونها ، غير ناظرين إلى امتلاكها السياسى والحربى ، بل ينزلونها بالاتفاق مع أهلها مسالمة ، فكانت أشبه بأسواق ومحطات تجارية منها بممتلكات خارجية . ولشدة عنايتهم بالتجارة لم يهتموا بحالتهم الحربية أو السياسية ، فخضعوا لحكم المصريين ،

ثم الأشوريين والبابليين ، ثم الفرس ، ومن بعدهم اليونان ، ثم الرومان

وجود عدة حكومات صغيرة بفينيقية

ولم تكن « فينيقية » مع صغر حجمها خاضعة لحكومة واحدة بل كانت كل مدينة بضواحيها وقراها حكومة صغيرة قائمة بذاتها . وكثيراً ما كانت تلك المدن تعترف بالزعامة لأقواهـا . وقد تولى هذه الزعامة

اهم المدن الفينيقية

بالتناوب مدينتان عظيمتان : « صَيْداء » ، ثم « صور » . وبذلك كان تاريخ عظمتهم يرجع الى عهدين : العهد الصَّيْداويّ (٢٢٠٠ — ١٢٠٠) وفيه احتكروا تجارة المشرق براً وبحراً الى سنة ١٥٠٠ ق . م ، فنافسهم اليونان فى بحر الأرخبيل وأجلوهم عن جزائره وكثيرٍ من مستعمراتهم الشرقية ، فانتهز الفلسطينيون فرصة ضعفهم فاستولوا على مدينتهم «صيداء» وخرَّبوها ، والعهد الصوريّ (١٢٠٠— ٥٧٤ ق . م) وفيه خَلَفَتْ «صور» صيداء ، إلاَّ أنهم حوّلوا وجهتهم التجارية إلى الغرب حتى جزائر برطانية إلى أن أخضعهم الأشوريون ثم البابليون تحت قيادة بُخْتُنَصَّر ، ثم الفرس ثم الاسكندر ، ثم البطالسة ، وعلى أيدى هؤلاء انتهى تاريخهم من سورية وتجدد فى أفريقية

﴿ الفينيقيون والتجارة ﴾

كان الفينيقيون يسلكون مشارق الأرض ومغاربهـا براً وبحراً إلى جميع الأمكنة التى يمكنهم أن يتجروا فيها . فكانت قوافلهم تصل الى أشور وإلى بلاد العرب ومصر ، وسفنهم لا ينافسها فى التجول فى البحار سوى سفن « قَرْطاجَنَّة » التى هى احدى مستعمراتهم المستقلة بذاتها . فكانوا يتاجرون شرقاً مع الهند ، وغرباً مع اسبانيا وبرطانيه ، بل مع

بعض الجهات التى على شواطئ البحر البلطيق . وقد سبق في الكلام على مصر ذكر طوافهم باسطولهم حول سواحل أفريقية ، فهم بذلك أقدم أمم الأرض البحرية التجارية . وكانوا يتّجرون بحاصلات بلادهم وحاصلات جميع البلاد التى يذهبون اليها . فكانوا يجلبون إلى فينيقية التوابل والأفاويه والصموغ من بلاد العرب ، والعاج والآبنوس والمنسوجات من الهند ، وخيوط الكتان والغلال من مصر ، والصوف والخمر من دمشق ، والأقمشة المطرزة من بابل ونينوى ، والفخار من بلاد اليونان ، والخيل والعجلات من أرمينية ، والنحاس من شواطئ البحر الاسود ، والرّصاص من اسبانيا والقصدير من جنوب برطانيـة ، ثم يرسلونها إلى البلاد التى تطلبها مع ما اشتهرت به فينيقية ذاتها من الحاصلات ، وخصوصاً الأصباغ وخشب الأرز والزجاج

اتجار الفينيقيين في حاصلاتهم وحاصلات غيرهم

المستعمرات الفينيقية

وهذه التجارة الواسعة دعت الفينيقيين كما قدّمنا الى اتخاذ أنزال عديدة لهم فى جهات مختلفة ، كقبرس ورودس وجزائر بحر الأرخبيل وصِقلّيَة وجزائر البَلْيار وكِيلِيكيا (فى الجنوب الشرقى من آسيا الصغرى) وبعض جهات اسبانيا ، وأهم ذلك جميعاً « قَرْطاجَنّة » التى أسسوها فى شمالىّ أفريقية على مقربة من تونس الحالية فى القرن التاسع ق . م

ولقد تقدمت هذه المدينـة تقدماً عظيما فيما بعد وصارت حاضرة لمملكة عظيمة ، نافست الرومان زمناً طويلاً . وسيأتى ذكرها عند الكلام على الرومان

﴿ الفينيقيون والمدنية ﴾

كان الفينيقيون على جانب عظيم من الإقدام والنشاط ، فضربوا بسهم وافر فى التجارة والملاحة ، وقد سبق الكلام عليهما . وكانت لهم أيضاً شهرة ذائعة فى بعض الصناعات كالتَّعْدين والصياغة والحياكة والتطريز وتركيب الأصباغ وعمل الزجاج وبناء السفن . غير أنهم لم يكن لهم باع طويل فى استنباط قواعد العلوم والمعارف ، وان كانوا قد خدموا الحضارة بنقلهم آراء بعض الأمم وعلومها الى بعض

نشر الفينيقيين للحروف الهجائية

وأعظم خدمة خدمها الفينيقيون للعلم والمدنية نشرهم الحروف الهجائية بين الأمم . ولم يُعرَفُ بعد بالجزم عمن نقلوا تلك الحروف ، ورأى بعض المؤرخين أنهم نقلوها عن المصريين . على أنهم استخدموا فى حُسْبانهم حروفاً علموها للإغريق ، ومن هؤلاء انتشرت فى الأمم الأوربية الاخرى مع تعديل قليل



ملخص

أهم الحوادث التاريخية فى عهد الفراعنة

مصـــــــــر	التاريخ ق . م	البلاد الأجنبية
ابتداء استعمال التقاويم (أول تاريخ معروف فى تاريخ العالم)	٤٢٤١	
العهد الذى لا شك فى وجود حضارة فيه بمصر السفلى والعليا	٤٠٠٠	
ابتداء حكم «مينا» وتوحيد مملكتى الشمال والجنوب	٣٤٠٠	
الأسرتان الأولى والثانيـة — مدة حكمهما ٤٢٠ سنة ومقر ملكهما « طينة » — مقابرهما بجهة ابيدوس — استخراج المعادن من شبه جزيرة سيناء	٣٤٠٠ — ٢٩٨٠	
الأسرة الثالثة — مدة حكمها ٨٠ سنة ومقر ملكها « منف » — بنى « زوسر » هرم سقارة المدرّج — أرسل « اسنفرو » أسطولا الى لبنان	٢٩٨٠ — ٢٩٠٠	
الأسرة الرابعة — مدة حكمها ١٥٠ سنة ومقر ملكها « منف » على الأرجح — آثارها : أهرام الجيزة وأبى رواش	٢٩٠٠ — ٢٧٥٠	
أهم ملوكها : خوفو بانى الهرم الأكبر بالجيزة	٢٩٠٠ — ٢٨٧٧	
خفرع « « الثانى « منقرع « « الصغير «	٢٨٦٩ — ٢٧٧٤	
ازدياد نفوذ كهنة « رع » بعين شمس		
الأسرة الخامسة — مدة حكمها ١٢٥ سنة ومقر ملكها « منف » — آثارها : أهرام بوصير وسقارة	٢٧٥٠ — ٢٦٢٥	
أهم ملوكها : أوسركاف — وصوله الى الجنادل الأولى	٢٧٥٠ — ٢٧٤٣	
سحورع — أول حملة الى بلاد « بنت »	٢٧٤٣ — ٢٧٣١	
أوناس	٢٦٥٥ — ٢٦٢٥	
الأسرة السادسة — مدة حكمها ١٥٠ سنة ومقرها « منف » — آثارها أهرام بسقارة	٢٦٢٥ — ٢٤٧٥	
أهم ملوكها : ببى الأول (خمس بعثات الى سينـا وبعثة الى فلسطين — نفوذه فى شمالى النوبة)	٢٥٩٠ — ٢٥٧٠	
مرنرع الأول (قنـاة فى الجنادل الأولى — خضوع أمراء النوبة)	٢٥٧٠ — ٢٥٦٦	
ببى الثانى (أطول حكم فى التاريخ — غزوة فى شمالى النوبة — علاقات تجارية مع السودان وبلاد بنت ولبنان وجزائر بحر ايجة)	٢٥٦٦ — ٢٤٧٦	

مصـــــر	التاريخ ق . م	البلاد الأجنبية
الأسرات السابعة والثامنة والتاسعة والعاشرة — اضطراب واضمحلال فى عهد ملوك ضعفاء — ابتداء نمو « طيبة »	٢٤٧٥ — ٢١٦٠	
الأسرة الحادية عشرة — مدة حكمها ١٦٠ سنة ومقرها « طيبة » — استولت على القوة شيئاً فشيئاً خصوصاً فى عهد « سنخرع منتوحتب » وهو آخر ملوكها	٢١٦٠ — ٢٠٠٠	قيام دولة أشور ظهور أول أسرة من ملوك بابل
الأسرة الثانية عشرة — مدة حكمها ٢١٣ سنة ومقرها « لشت » ومدينة بالفيوم	٢٠٠٠ — ١٧٨٨	ارتقاء دولة بابل وجود ميناء فينيق عظيم
أهم ملوكها: (١) امنمحت الأول (بلوغ نظام الاقطاع أكمل الدرجات — هرم بجهة لشت)	٢٠٠٠ — ١٩٧٠	
(٢) أسرتسن الأول (غزو بلاد الكوش — هرم بجهة لشت)	١٩٨٠ — ١٩٣٥	« حمور ابى » ملك بابل (١٩٠٠)
(٣) امنمحت الثانى (هرم بجهة دهشور) } تقدمت البلاد تقدما عظيما	١٩٣٨ — ١٩٠٣	
(٤) أسرتسن الثانى (هرم بجهة اللاهون)	١٩٠٦ — ١٨١٧	
(٥) أسرتسن الثالث (قناة جديدة فى الجنادل الأولى — اخضاع بلاد النوبة الى الجنادل الثانية — غزوة فى الشام — اضمحلال قوة أمراء الأقاليم — أقدم شيء وصل الينا من الأدبيات المصرية . كتاب الموتى — هرم بجهة دهشور)	١٨٨٧ — ١٨٤٩	
(٦) امنمحت الثالث (نمو كبير فى موارد الثروة — تنظيم النيل — قصر لابرنت — انشاء أراض بالفيوم — هرم بجهة دهشور)	١٨٤٩ — ١٨٠١	
(٧) امنمحت الرابع } اضمحلال الدولة	١٨٠١ — ١٧٩٢	
الملكة سبكنفرورع } الوسطى وسقوطها	١٧٩٢ — ١٧٨٨	محاربة الحثيين لملك بابل وغزوهم بلاده
من الأسرة الثالثة عشرة الى السابعة عشرة — مدتها ٢٠٨ سنوات — اضطراب كبير وحروب داخلية — مدة حكم الهكسوس (١٦٧٥ — ١٥٨٠ ق . م .) تقريبا	١٧٨٨ — ١٥٨٠	
الأسرة الثامنة عشرة — مدة حكمها ٢٣٠ سنة ومقرها « طيبة »	١٥٨٠ — ١٣٥٠	اضمحلال دولتى أشور وبابل

٭ وضع هذه العلامة قبل إسم الملك يدل على أن جثته الآن بدار الآثار المصرية

مصـــــــر	التاريخ ق . م	البلاد الأجنبية
أهم ملوكها: ٭ أحمس الأول (طارد الهكسوس حوالى ١٥٨٠ واستئصال شأفة الملاك من الأمراء وارجاع الأراضى الى الملك — أول جيش قائم — غزوة بالشام)	١٥٨٠ ١٥٥٧	خضوع غربى سورية لمصر
٭ أمنحتب الأول (غزوة بالشام) تحتمس الأول (غزو بلاد السكوش والشام الى وادى الفرات)	١٥٠٧ — ١٥٠١	
تحتمس الثالث وحتشبسوت (تشييد مبان عظيمة . أرسلت الملكة بعثة الى بلاد بنت)	١٥٠١ - ١٤٤٧	تحالف الحثيين
٭ تحتمس الثالث وحده (١٧ غزوة بآسيا من ١٤٧٩ الى ١٤٥٩ ق . م قهر ملك قادش ومد أملاك الدولة من وادى الفرات الى الجنادل الرابعة نمو الاسطول المصرى —— انشاء مبان عظيمة بالكرنك —— ازدياد عظيم فى ثروة البلاد)	١٤٧٩ - ١٤٤٧	الحثيون والاشوريون والبابليون يعلنون ولاءهم لتحتمس الثالث — زهاء الموانى الفينيقية
أمنحتب الثانى (حفظ كيان الدولة)	١٤٤٨ ١٤٢٠	
٭ تحتمس الرابع (« « «)	١٤٢٠ ١٤١١	
٭ أمنحتب الثالث (أزهى عصور الدولة الحديثة — بلوغ « طيبة » أعظم مبلغ من الفخامة انشاء معابد هائلة . خطابات تل العمارنة —— ابتداء هجرة الأجناس السامية الى الشام وفلسطين —— اغارة الحثيين على شمالى الشام)	١٤١١ ١٣٧٥	
اخناتون (انقلاب دينى ونشر مذهب التوحيد —— هجر « طيبة » وانشاء « اخيتاتون » (تل العمارنة) —— خطابات تل العمارنة غزو الأجناس السامية لمعظم الشام وفلسطين —— انحلال أملاك الدولة فى آسيا - خلل عام وسقوط الأسرة الثامنة عشرة	١٣٧٥ - ١٣٥٨	
الأسرة التاسعة عشرة . مدة حكمها ١٤٥ سنة ومقرها « مدينة رمسيس »	١٣٥٠ ١٢٠٥	
أهم ملوكها : حرمحب (الرجوع الى الديانة القديمة وعبادة	١٣٥٠ — ١٣١٥	

مصـــــر	التاريخ ق . م	البلاد الأجنبية
« أمون » — اعادة تنظيم الحكومة)		
رمسيس الأول (بدء البهو العظيم بالكرنك)	١٣١٥—١٣١٤	
* سيتى الأول (استرجاع فلسطين — استمرار فى تشييد البهو العظيم — استخراج الذهب من مناجم النوبة)	١٣١٣—١٢٩٢	ازدياد نفود الحثيين فى الشام
* رمسيس الثانى (حروب فى آسيا خصوصاً مع الحثيين من ١٢٨٨ الى ١٢٧١ — اتمام البهو العظيم بالكرنك — مبان هائلة فى جميع أنحاء البلاد)	١٢٩٢—١٢٢٥	
* منفتاح (غزوة فى الشام — قهر اللوبيين)	١٢٢٥—١٢١٥	تأهب اللوبيين للزحف على شمالى مصر
* سيتى الثانى (اخراج بنى اسرائيل من مصر؟)	١٢١٥—١٢٠٩	
الأسرة العشرون — مدة حكمها ١١٠ سنة ومقرها « مدينة رمسيس »	١٢٠٠—١٠٩٠	
أهم ملوكها: *رمسيس الثالث (٤ حروب مع اللوبيين وسكان البحر فى سنة ٥ و٨ و١١ و١٣ من حكمه — ازدياد نفوذ الكهنة)	١١٩٨—١١٦٧	زحف «سكان البحر» على الشام وقهرهم الحثيين
الأسرة الحادية والعشرون — مدة حكمها ١٤٥ سنة ومقرها «تنيس» — اشتراك الكهنة وأمراء تنيس فى الحكم	١٠٩٠—٩٤٥	استمرار زحف اللوبيين شرقا
عهد اللوبيين	٩٤٥—٧١٢	
الاسرة الثانية والعشرون — مدة حكمها ٢٠٠ سنة ومقرها « بوبسطة » — قيام دولة مستقلة بالنوبة فى آخر هذا العهد	٩٤٥—٧٤٥	
الأسرة الثالثة والعشرون — مدة حكمها ٢٧ سنة ومقرها « بوبسطة »	٧٤٥—٧١٨	اتساع نطاق مملكة أشور غربا حتى وصلت الى البحر الابيض المتوسط
عهد الاتيوبيين والأشوريين	٧٢٢—٦٦١	حكم أشور آخى الدين (٦٨١ — ٦٦٨) واتساع دولة أشور اتساعا سريعا
استيلاء « بعنخى » الاتيوبى على الوجه القبلى — اضمحلال أمير بوبسطة وظهور أمير « سايس » (صا الحجر) — خضوع الجميع للاتيوبيين	٧٢١	
الأسرة الرابعة والعشرون — أسسها أمير « صا الحجر » بعد انجلاء الاتيوبيين — تولى ملكها ملك واحد ٦ سنوات بمدينة صا الحجر ثم عاد الاتيوبيون وأبادوها	٧١٨—٧١٢	
الأسرة الخامسة والعشرون (اتيوبية) — مدة حكمها ٥٠ سنة	٧١٢—٦٦٣	

مصـــــــر	التاريخ ق٠م	البلاد الأجنبية
ومقرها « نباتا » -- دخول « أشور آخى الدين » (ملك أشور) مصر (٦٧٠) -- رجوع الاتيوبيين وابادتهم للحامية الأشورية (٦٦٣) استيلاء الأشوريين على البلاد ثانية وطردهم الاتيوبيين نهائيا (٦٦١ ٦٥٤)		حكم أشور بانيبال ملك أشور (٦٦٨ ٦٢٦)
النهضة المصرية	٦٦٠ --- ٥٢٥	حكم « نبوبولاصار » ملك بابل (٦٢٦ --- ٦٠٥)
الأسرة السادسة والعشرون -- مدة حكمها ١٣٨ سنة ومقرها « سايس »	٦٦٠ --- ٥٢٥	سقوط دولة أشور ٦٠٨ --- ٦٠٦)
أهم ملوكها : (١) ابسمتيك الأول (أقام مدة تحت حماية الأشوريين عهد نهضة عظيمة ورق استيطان الاغريق بمصر)	٦٦٣ ٦٠٩	استقلال دولة بابل ٦٠٦
(٢) نخاو (محاولة البابليين الاستيلاء على مصر وقهر « بختنصر » لنخاو بجهة قرقيس (٦٠٥) ضياع الشام من يد المصريين الطواف حول افريقية)	٦٠٩ ٥٩٣	حكم بختنصر ملك بابل (٦٠٥ ٥٦٢) تأسيس كورش لدولة الفرس (٥٥٠ ق٠م٠)
(٣) أحمس (عصر زهاء ورق ازدياد استيطان الاغريق بمصر تنقيح القوانين المصرية)	٥٦٩ ٥٢٥	حضور صولون المشرع الاغريق الى مصر
(٤) ابسمتيك الثالث حكم بضعة أشهر ثم دخل الفرس مصر	٥٢٥	

الباب الثانى
عهد الاغريق والرومان

الفصل الأول
كلمة فى الاغريق
وحروبهم مع الفرس

أمة الإغريق أقدم أمم أوربا حضارة ، ومن حضارتهم أخذت أوربا كثيراً من أصول مدنيتها الحاضرة . وأقدم ما يُعرف من تاريخها مقتبس من أشعار «هوميروس» الشاعر الإغريقى القديم . ولا نعرف يقيناً العصر الذى وجد فيه ذلك الشاعر الكبير ، وانما الأرجح ان العصر الذى وصفه فى اشعاره والذى عاش لا محالة زمناً منه يمتد من سنة ١٠٠٠ الى سنة ٨٠٠ ق . م . ولا ريب ان اكثر الحوادث التى دوّنها فى شعره خرافية ، وهى مع ذلك توقفنا على حقائق جمة من أحوال الإغريق فى تلك الأيام ، فمنها أن البلاد كان يحكمها ملوك يساعدهم مجلس من الأعيان ويعرضون أحكامهم العامة على هيئة مختارة من جميع الأمة ، وأن الرجال كانوا يحترمون النساء (وإن كانوا لم يمنحوهن الحرية التامة) ، وأنه كان بالبلاد عدد عظيم من العبيد يُسخَّرون فى أشق الأعمال ، وأنه كان للإغريق معبودات عدّة

هوميروس الشاعر الاغريقى القديم

التاريخ المستمد من شعر هوميروس

تمثّل القوى الطبيعية . وكان القوم فى تلك الأيام يُعجَبون بالحرية والجمال وأصالة الرأى

وبعد أن انقضى عصر «هوميروس» جاء عصر مظلم لا نعرف عنه شيئاً ولا نسمع فيه لبلاد الإغريق ذكراً فى التاريخ حتى سنة ٦٠٠ ق م. وفى هذا العهد الجديد تراها مغايرة فى كثير من الوجوه لما كانت عليه فى العهد الهوميرى . فتأخرت حالة المدن العظيمة واصبحت قرى صغيرة ، ودخلت البلادَ شعوب جديدة ، وفنِىَ جانب كبير من فروسية تلك الأيام الأولى . ونذكر الآن شيئاً من حالة بلاد الإغريق منذ ابتداء التاريخ الصحيح فنقول :

ابتداء التاريخ الاغريق الصحيح

كانت بلاد الإغريق فى أول الأمر عبارة عن ولايات عديدة منفصل بعضها عن بعض بلا علاقة سياسية تربطها . ولما كانت بلاد الإغريق جبلية ، تقسمها الجبال الشاهقة الى وديان كثيرة ، تكونت فيها بالطبع عدة ولايات بقيت بسبب هـذه الجبال وصعوبة المواصلات متقاطعة مدة طويلة . ولم يكن ما يسمى ببلاد الإغريق قاصراً على شبه جزيرة اليونان ، بل كانت تشتمل أيضاً على نواحٍ كبيرة من ايطاليا وجزيرة صقلية وآسيا الصغرى . فكلما حل الإغريق بارض جال بفكرهم أنها جزء من بلادهم ، وأينما ذهبوا كونوا لهم ولاية مستقلة حول كل مدينة كبيرة أو صغيرة . وكانت لتلك المدن حكومات وجيوش قائمة بذاتها ، وكثيرًا ما كانت تضرب كل ولاية نقوداً لها مغايرة لنقود الأخرى

وجود عدة ولايات متقاطعة فى بلاد الاغريق

أما نظام الحكومة فى هذا العهد الجديد فقد تغير نوعاًما عن نظيره فى عصر هوميروس ، فاصبحت « إسبرطة » وحدها تقريباً هى الولايةالتى

بقيت فيها الحكومة الملكية ، وكان فيها دائماً حاكمان . وأما الولايات الأخرى فبعضها كان يحكمها عدد من الأعيان وبعضها كانت القوة فيها للأمة . ولم تتغير الحالة الاجتماعية كثيرًا عن عهد « هوميروس » فلم يزل مركز المرأة مستقلاً ، والرّق مباحاً ، حتى انه فى بعض المدن الكبيرة مثل « أثينا » و « كورَنْثة » كان عدد الأرقاء اكثر من عدد الأحرار

الحالة العمومية

وبقيت المعبودات كما هى منذ أيام هوميروس . وكان للإغريق عدة أماكن يؤمّونها من جميع الولايات لمناجاة الآلهة واستفتائها ، وأهمها معبد « أبُولُون بجهة « دلفِى » على سفح جبل « بِرْناسِيس » ، فكان اجتماعهم هذا بمثابة رابطة تربط جميع الإغريق ولذلك سموه بالجامعة الهِلاّنية نسبة الى « الهِلاّنيين » أو « الإغريق »

معبودات الاغريق

ومن الروابط الأخرى التى كانت تربطهم « الألعاب الأُولِمْبِيَّة » ، وهي ألعاب رياضية كانوا يعقدون لها حفلة كل أربع سنوات بأرض « أُولِمبيا » بمقاطعة « بِلُوبُونِيز » تكريماً للمعبود « زِيُوس »* وهو اشهر معبوداتهم

الالعاب الاولمبية

« ولايات بلاد الإغريق »

الولايات الشهيرة التى كانت تتألف منها بلاد الإغريق الأصلية هى:

(ا) « إِسبَرْطة » و « أرْجُوس » و « مِسِّينية » بالجزء الجنوبى ، وكان يسمى « بلوبونيز » (مورَة)

(ب) « كُورنْثة » على برزخ كورنثة

* ويسمى أيضاً « زفس »

(ح) « أثينا » و « طيبة » فى الجزء الأوسط من شبه الجزيرة

اسبرطة

وكانت « اسبرطة » أهم ولايات بلوبونيز وكانت أهم عنايتها موجهة الى الأمور الحربيـة ، ولولا نبوغها فى ذلك لما أمكنها المحافظة على بسط كلمتها على الولايات المجاورة لها التى خضعت لسلطانها . ولم تكن اسبرطة أقوى ولاية حربية فى بلوبونيز فقط ، بل فاقت أيضاً جميع ولايات الإغريق الأخرى ، والفضل فى ذلك لنظامهـا العسكرى الذى لا يفرّق بين السلم والحرب من حيث تعليم الجند وتمرينهم . وأول من خط للإسبرطيين هذه الخطة « ليكُرْغ » ، وهو رجل حكيم عاش فى القرن الثامن قبل الميلاد

ليكرغ

اهتمام اسبرطة بالامور الحربية

وكان أجلّ عمل فى حياة كل رجل سليم البنيـة منهم اعداد نفسه للأعمال العسكرية ، فيعيشون عيشة خشنة ، ولا يفترون عن القيـام بالألعاب الرياضية التى من شأنهـا اعدادهم لتأدية واجبهم الحربى الذى يشعرون به

اثينا

أمّا « أثينا » فلم تُعْنَ بالأمور الحربيـة الى هذا الحد ، ولكنها استعاضت من ذلك الالتفات الى الوسائل الأخرى الداعية الى الحضارة العالية والرقى الأدبى العظيم

حكومة الاعيان فى اثينا

وكانت « أثينا » فى أول أمرها يحكمها ملك ، فلم يدم ذلك فيها كما لم يدم فى غيرها ، ووقعت السلطة فى أيدى الأعيان ، وما زالوا يجمعون السلطة فى أيديهم حتى وصل إرهاقهم الأمة الى حد لا يطاقـ . فهمّوا بأن ينالوا حقوقهم بالقوة ، ولم يلبثوا أن ظهر المشرّع العظيم « صولون » ، فسن فى أوائل القرن السادس قبل الميلاد (سنه ٥٩٤ ق . م .) قوانين جديدة للحكومة قلّل بها من استبداد الأعيان ، وان لم يسلبهم جميع نفوذهم.

صولون

وكان المبدأ الذى جعله نصب عينيه أن يكون معظم السلطة فى أيدى أصحاب المصالح الحقيقية الذين يفقدون شيئا عند الانقلابات العظيمة. وقد سن صولون قوانين أخرى غير الخاصة بنظام الحكومة. فسن قوانين خاصة بالحياة والحقوق الشخصية والزواج والرق وغير ذلك. وقد قدم الى مصر فى أيام أحمس الثانى، فيقال انه اقتبس شيئا من قوانينها

ولم يستمر هذا النظام طويلا بسبب سخط بعض الطبقات، فالتفوا حول أحد الزعماء المدعو «بزستراتس» وجعلوه ملكا مستبدا بالسلطة. فعدل فى حكمه، وجمع حوله الأدباء والعلماء وعضدهم، ووسّع مدينة أثينا وزاد فى جمالها، ولكنه سلب جانبا عظيما من حرية الشعب فخلعوه. ولما تولى ابنه «هِبْياس» ثار به أهل أثينا وطردوه منها

﴿ علاقة فارس بالولايات الإغريقية ﴾

(الحروب الفارسية)

استيلاء الفرس على المدن الاغريقية بآسيا الصغرى

علمنا فيما سبق كيف أسس «كورش» مملكة فارسية عظيمة، وكيف وسع نطاقها «دارا» الأول الذى تولى الملك فى سنة ٥٢١ ق. م. وقد كان للإغريق اذ ذاك عدة مدن على شواطئ آسيا الصغرى تغلّب عليها ملك «ليديا». ولما خضع هذا الحكم الفرس أصبحت تلك المدن الإغريقية خاضعة أيضا لفارس، وما لبثت هذه المدن طويلا حتى شعرت بظلم الفرس، فتألّبت كلها وشقّت عصا الطاعة على فارس فى سنة ٥٠٠ ق. م. فأرسل أهل أثينا السفن والجيوش لمساعدة اخوانهم الإغريق وتمكنت الأحزاب من احراق «سارذة» عاصمة بلاد ليديا سنة ٤٩٩ ق. م.

وبعد أن استمر القتال ست سنوات أخمد «دارا» الفتنة، ثم تمكن من غزو شاطئ (إيُونيا) بأكمله. ثم نهض الى معاقبة أهل أثينا على تدخّلهم بين دولته العظيمة وبين من خرج عليها من رعاياها، وعلى ذلك ابتدأت الحروب بين الفرس والإغريق. فأرسل الفرس جيشاً الى بلاد الإغريق في سنة ٤٩٢ ق. م، ففشلوا وانهزمت جيوشهم براً وعبثت بسفنهم العواصف في بحر ايجة

اسباب الحروب الفارسية

وقعة مرتون

وبعد ذلك بسنتين، أي في سنة ٤٩٠ ق. م، أرسل الفرس جيشاً آخر أقوى من الأول وأنزل الأسطول الفارسي جيوشه بالقرب من «مرَتون» في الجهة الشرقية من مقاطعة «أتّيكا» بقصد الزحف على أثينا. ولكن الجيش الأثيني مع عدد قليل من رجال «بلاتى» (احدى المدن الصغيرة المجاورة لأثينا) وبقيادة «ملْتِيَادِس» قابل الجيش الفارسي في «مرَتون» وهزمه شر هزيمة على كبر عدده، فكان لهذه المعركة اكبر تأثير في تاريخ أثينا والإغريق، بل في تاريخ الشرق والغرب، اذ أخذت «أثينا» بعدئذٍ ترقى معارج السعادة حتى صار لها شأن أيّ شأن، وبها سلمت بلاد الإغريق من الوقوع في اسر الفرس

وكان في عزم «دارا» مهاجمة الإغريق مرة أخرى لولا أن لحقته منيّته في سنة ٤٨٥ ق. م فترك ذلك لابنه «إجزْرْسيس»

مصر ايام الحروب الفارسية

وكانت مصر في ذلك الوقت عمالة فارسية، فخرجت على فارس في أواخر أيام «دارا» وبقيت الثورة قائمة حتى تولى «اجزرسيس»، فبدأ باخمادها. وبعد أن تم له ذلك وجّه همته إلى غزو بلاد الإغريق

وفي سنة ٤٨٠ ق. م خرج «اجزرسيس» بنفسه ومعه جيش جرار

لم تر الدنيا مثله من قبل، اذ كان عدده على أقل تقدير نحو الف الف مقاتل.
فمر هذا الجيش الكبير من آسيا الى أوربا على قنطرة من السفن عابراً
« هلِسْبُنْت » (الدردنيل)، ثم اخترق ولاية « طَراقِية » و « مقدونية »
و «تِساليا » بقصد النزول على «اتّيكا» من الشمال ، حيث يمكنه دخول
أثينا وتخريبها ، وهو غاية أمنية اجزرسيس . فعلم الإغريق ان الفرس
سيمرون من مأزق « ترموبيل» لأنه هو الممر الظاهر الذى يمكن الجيوش
أن تخترق الجبال منه . وترموبيل هذا ممر ضيق واقع بين جبل (أُوتيا)
وبين المستنقعات الممتدة على شواطئ خليج « ماليا » ، فاجتمع معظم
الولايات الاغريقية تحت لواء « اسبرطة » ، ووضعوا عدداً من رجالهم فى
هذا الممر لحمايته ، فارسل اجزرسيس أقوى رجاله لسحق هذا العدد
القليل الذى جرُؤ على الوقوف فى طريقه . ولكن الإغريق (وفى مقدمتهم
الإسبرطيون) حاربوهم مستبسلين ، ودافعوا دفاعاً ضُربت به الأمثال .
فخار الجيش الفارسى ، ووقف بلا حراك . فبينما الفريقان على هذه الحالة
اذ دلّهم رجل خائن من الإغريق أعمى قلبه ما أعطاه الفرس له من المال
على طريق آخر من وراء الجبال ، فما شعر الإغريق الا والفرس على قمة
الجبل يزحفون عليهم . وعند ذلك أمر ملك اسبرطة الذى كان يقود الجيش
الاغريقى بان يبقى معه الاسبرطيون ، وأن يتراجع رجال الولايات الأخرى
لحماية « أثينا » . وهنا حارب الاسبرطيون (وعددهم ٣٠٠ رجل) بشجاعة
أدهشت الفرس ، غير أن الشجاعة وحدها لا تظهر على وفرة العدد . نعم
قاوم الاسبرطيون كل المقاومة وافنوا عدداً عظيما من الفرس ، ولكن ذلك
لم يؤثر فى جيشهم الجرار اذ وقفوا على بعد من الاسبرطيين وجعلوا

وقعة ترموبيل

شجاعة الاسبرطيين

يرمونهم بالسهام وهم واقفون لا يتزعزعون حتى ماتوا عن آخرهم عدا واحداً أو اثنين

وبالرغم من أن الإغريق هُزموا فى هذه المعركة التى تعرف بمعركة « تِرْمُوبيل » أظهروا للفرس أنهم رجال أشداء يموتون فى سبيل الدفاع عن وطنهم ، فخشى الفرس بأسهم ، وكان لذلك تأثير كبير فى المواقع التالية

وكانت واقعة «ترمو بيل» فى أغسطس سنة ٤٨٠ ق . م . وفى أثناء هذه الواقعة كانت السفن الإغريقية تحارب الأسطول الفارسى على الشاطئ الشرقى من القسم الأوسط من بلاد الإغريق فلما سمع « تِمِسْتُكْلِيس » قائد الاسطول الاثينى بان الفرس أخذوا ممر ترمو بيل وأنهم يزحفون على أثينا انحاز باسطوله الى الجنوب حتى وصل الى خليج « سَلَامِيس » فى الجنوب الغربى من اتّيكا . ولما لم يجد « تمستكليس » سبيلاً إلى مقاومة الفرس فى أثينا نقل جميع سكانها على السفن الى جزيرة سلاميس والى جهات أخرى ، فلما دخل الفرس فى أثينا وجدوها خالية من السكان ، فسلبوا ما فيها ثم أحرقوها

وقعة سلاميس

وعند ذلك التقى الأسطول الفارسى بالأسطول الإغريقى بالقرب من جزيرة سلاميس ، وهنالك تمكن الإغريق بمهارتهم وخفتهم من قهر الاسطول الفارسى ، فحزن « اجزرسيس » لهذه الكارثة وعاد الى بلاده تاركاً جزءًا عظيما من جيشه فى تساليا . وكانت واقعة سلاميس فى سبتمبر سنة ٤٨٠ ق . م

وقعة بلاتى

وفى سنة ٤٧٩ ق . م . حصلت معركة بين الإغريق و بين الجيش الفارسى الذى تركه اجزرسيس بقيادة « ماردُنْيُوس » فقهر الإغريق الفرس

وقعة ميكال

فى واقعة «بلاتى» ، وفى اليوم عينه انتصروا عليهم براً وبحراً بجهة «ميكال» على شاطئ آسيا أمام جزيرة « ساموُس » (سيسام)

فكانت هذه الوقائع الثلاث (سلاميس وبلاتى وميكال) فاصلة بين الفريقين . ولم يقدم الفرس بعدها على غزو بلاد الاغريق ذاتها . وبعد ذلك بسنتين جلوا عن جميع المواقع التى احتلوها بحر ايجة

❊ عصر بِرِكْلِيس ❊

أتى بعد واقعة « سلاميس » نصف قرن (٤٨٠ - ٤٣٠ ق . م .) كان أزهى عصر فى تاريخ أثينا ، لما امتاز بهِ من تقدم العلوم والفنون والمعارف ، ويمكن اعتباره من أزهى العصور فى تاريخ الدنيا عامة . ويسمى هذا العصر « عصر بِرِكْلِيس » نسبةً الى « بِرِكْلِيس » ذلك السياسى العظيم الذى كان فى أثنائه هو القائد لحركة الأعمال بأثينا

منشأ بركليس وصفاته

وُلد بركليس من أسرة كريمة ، وتربى تربيـة حسنة . وكان خطيباً مصقعاً وقائداً عظيماً وسائساً بعيد النظر . وكان شديد الحب لبلاده ، شاعراً بالواجب عليهِ لها ، أبىّ النفس لا يأتى الدنايا ، ولا يقصد الى شىء من غير وجوهه الشريفة

عرف أهل أثينا هذه الصفات العالية فى بركليس ، فامتلأت قلوبهم بمحبته . وما زالت مزاياه تزيد من نفوذه حتى صار أشبه بملك على الرجال بدون سلطة أو حقوق وراثية

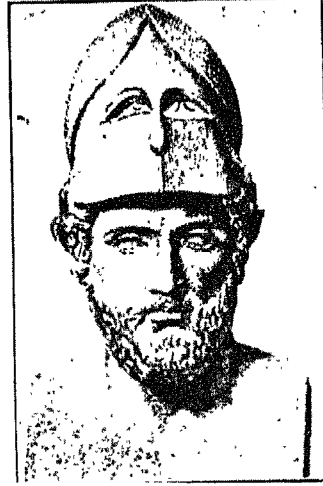
عنايته بالشعب

وكان من أجلّ رغباته تربيـة الشعب بأسره اعتقاداً بأن ذلك أهم الأسباب الداعية الى انتظام الحكومة . وكان بأثينا فى ذلك الوقت مكان

يدعى « الإكْلِيزيا » يجتمع بهِ رجال تلك المدينـة للمداولة فى شؤونهم . فأباح الدخول والمناقشة فيهِ لجميع أفراد الشعب ، بل كان يُؤجِر العامة على حضوره ، وعلاوة على ذلك سمح لهم بتذاكر يدخلون بهـا محال التمثيل بدون ثمن ، وكانت الأساطير التى تمثل بتلك المحال من أبلغ ما يكتب معنى وأسلوباً وتتناول البحث فى تاريخ الإغريق أو شؤون البلد العادية .

كثرة النوابغ فى عصر بركليس

فاستفاد الشعب من ذلك فوائد جمة ، وكثر عدد النوابغ فى هذا العصر ، من كُتَّاب ومصوّرين ومؤلفين وغيرهم .



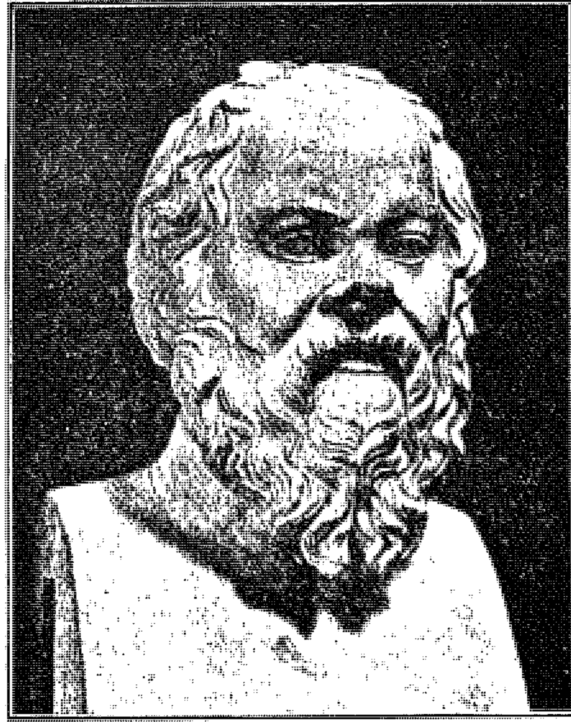
(بِرِكْليس)

والحق أن التاريخ لم يرَ عصراً مثل عصر بركليس : ظهر فيهِ على قِصَره ذلك العدد العظيم من النبغاء فى مكان واحد . ولو كان ذلك معيار الحضارة لقلنا ان أثينـا فى ذلك العصر بلغت مبلغاً من الحضارة لم تبلغه هى ولا غيرهـا فى عصر آخر .

مشاهير الرجال فى عصر بركليس

ومن أشهر مشاهير ذلك العصر « فِدْيَاس » المصوّر و « أُورِيبِيد » و « سُفُكْلِيس » الـكاتبان للروايات التمثيلية و « هيرودوت » المؤرخ و « سُقْراط » الفيلسوف استاذ « أفْلاطون » الفيلسوف اليونانى الشهير

ومعظم هؤلاء الرجال كانوا من أصدقاء بركليس . وقد كان بعض الفضل فى نبغهم لمعاشرتهم له والاستفادة من نصائحه الجميلة



(سُقراط)

جمال مبانى أثينا

أراد بركليس أن يظهر عظمة أثينا للعالم فشيد بهـا المبانى الشاهقة والمعابد العظيمة ، وزُيّن جميعها بالنقوش البديعة والتماثيل الجميلة بأيدى أمهر المصورين والنقاشين برياسة « فدياس » الآنف الذكر، وما زالت بقايا هذه النقوش والتماثيل يدرسها كبار المصورين فى الوقت الحاضر وينظرون اليها كأنها غاية فى بابها

ومما يؤسف له أن ذلك العصر الزاهر لم يدم طويلاً ، بل انقضى بانقضاء أيام بَطَله . ولا شك أن من العوامل التى ساعدت على انقضائهِ ما غرسه بركليس بيده من إشراك العامة فى إدارة شؤون المدينة وتسهيل

السبُل لهم الى حضور التمثيل والحفلات . فدب فى نفوسهم دبيب الترف والكسل ، وصاروا ينظرون الى الاشغال البدنية نظر الأنفة والازدراء . فأدَّى ذلك الى انحطاط الشعب ثم الى اضطراب الحكومة

﴿ الاسكندر الأكبر ﴾

وفتحه لمصر

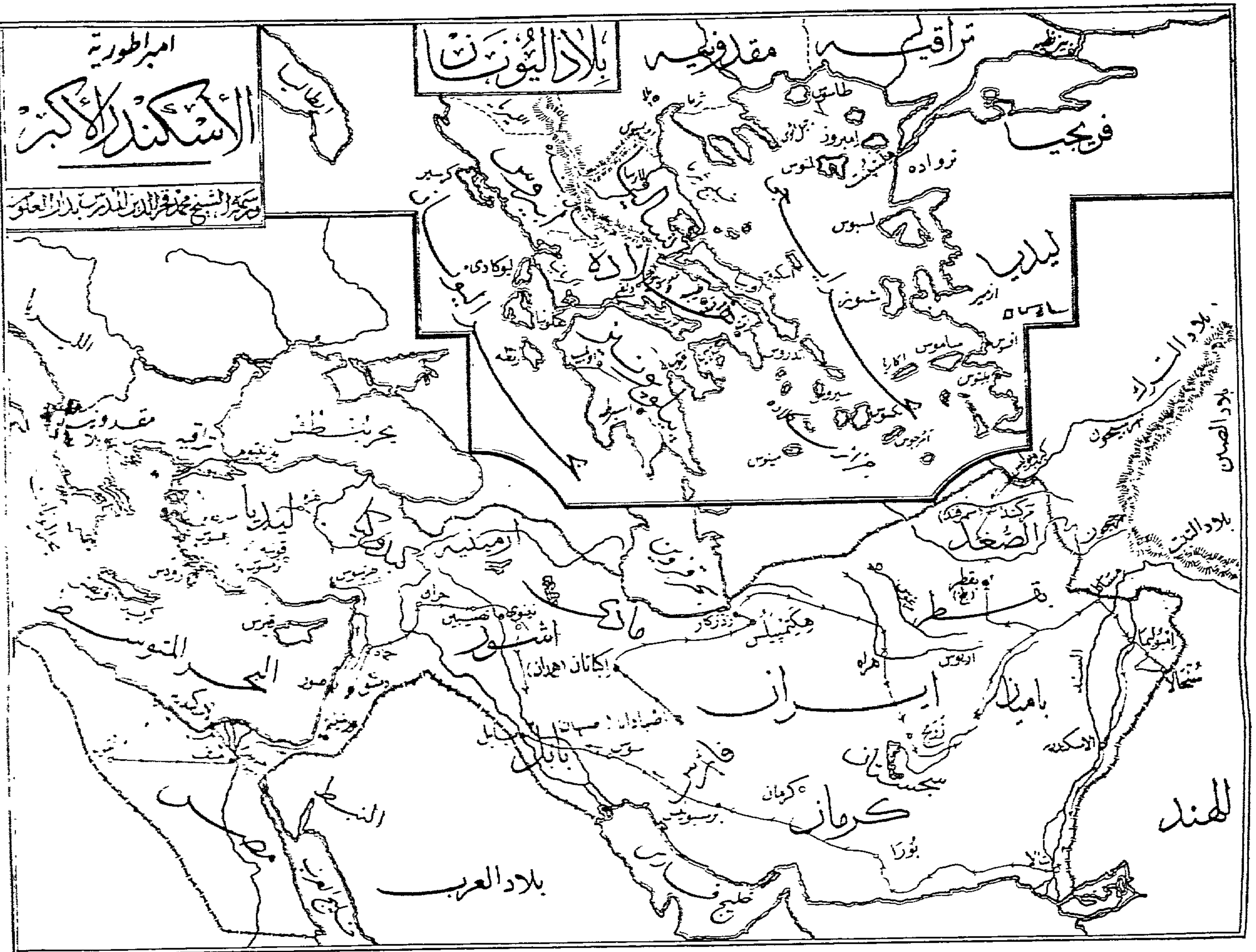
وقعت بلاد الإغريق بعد انتهاء عصر بركليس فى حروب أهلية طويلة وفتن عظيمة تعرف بحروب بِلُوبُونِيز نسبةً الى شبه جزيرة بلوبونيز ببلاد الإغريق (٤٣١ — ٤٠٤ ق . م) ، فعاقتها عن التقدم بل هوت بها الى هوَّة الاضمحلال . ولكن بينما هذه الولايات مشتغلة بالحروب والقلاقل كانت بلاد « مَقْدُونية » آخذة فى أسباب التقدم والظهور

فليب المقدونى

ومقدونية هذه هى البلاد التى فى شمالى بلاد الإغريق ، وأهلها شديدو القرابة للإغريق : أقوياء الجسم عظيمو البأس . وكانوا فى أول أمرهم رعاة للأغنام وزُرَّاعاً ، ولم يكن لهم ذكر هام فى التاريخ قبل أيام « فِلِيب المقدونى » (فِلِبِس) . وكان هذا الملك على جانب عظيم من الذكاء وقوَّة الجأش ، تعلم الفنون الحربية والسياسية فى طيبة ، ثم عاد الى بلاده فأدخل فيها حضارة الإغريق ، وانتهز فرصة غفلة الولايات الإغريقية فهمّ ببناء دولته العظيمة

واقعة قيرونة

بدأ فليب بتوسيع ملكه فى الشمال ، ثم وجَّه همته الى الجنوب ، فتغلب على جميع الصعاب التى اعترضته فى سبيله . وبانتصاره على الإغريق فى واقعة « قِيرُونَه » سنة ٣٣٨ ق . م . خضعت له جميع ولاياتهم . ومن



امبراطورية
الأسكندر الأكبر
بلاد اليونان
تراقيه
مقدونيه
فريجيا
ليديا
ترواده
لسبوس
ساموس
بحر بنطس
ليديا
ارمينيه
اشور
ماذي
هكتمبيلس
إيكاتان (همدان)
ايران
فارس
كرمان
سجستان
باميان
الصغد
بقطر
بابل
البحر المتوسط
مصر
بلاد العرب
الهند
بلاد الترك
بلاد الصين
برسبوليس
كرمان
بوزا

ذلك الحين اندمج تاريخ الإغريق فى تاريخ مقدونية

تغلب مقدونية على الاغريق

ولما استتب الأمر لفليب فى بلاد الإغريق أراد أن يغزو بلاد الفرس انتقاما لما فعله هؤلاء بأثينا فيما مضى ، غير ان المنيّة حالت بينهُ وبين مآربه فقتل سنة ٣٣٦ ق . م

وتولى الملك بعد فليب ابنه «الإسكندر» ، وكان عمره إذ ذاك عشرين سنة فقط . فأصغره الإغريق زعما منهم أنهُ لا يمكنهُ على حداثة سنه ادارة شؤون المملكة العظيمة التى جلس على أريكتها ، وأنهُ فى نظرهم مثل أبيهِ بعيد عن الحضارة الإغريقية ، وإنْ ربّاه أبوه أحسن تربية واختار لتعليمه «أرسْططاليس» الفيلسوف العظيم الذى كان أكبر رجال العلم فى ذلك العصر

استخفاف الاغريق بالاسكندر

استخف الإغريق بالإسكندر فثاروا عليهِ فى وقت واحد ، ولكنهُ برهن لهم وللعالم أجمع انه أشد بأسا وأكبر بطشا مما يظنون ، فأخمد ثورتهم قبل أن تستفحل ، وكانت «طيبة» زعيمة تلك الحركة فعاقبها أشد عقاب ، فعادت جميع الولايات الإغريقية الى السكون ، واعترف أهلها للاسكندر بالسلطان على جميع بلادهم

تغلبه عليهم

الاسكندر يأخذ بثأر الاغريق من الفرس

ولم ينظر الإسكندر الى البلاد الإغريقية نظرة الغالب القاهر ، بل نظرة الرئيس الممثل لهم أمام الأمم الأخرى الآخذ بناصرهم ، فلم يكد يستتب له الأمر فى هذه البلاد حتى شرع فى الاستعداد لغزو بلاد فارس للأخذ بثأر الإغريق والانتقام من الفرس على ما فعلوه بها فى غارات دارا واجزرسيس

خرج الاسكندر لغزو بلاد الفرس سنة ٣٣٤ ق . م . ومعه خمس وثلاثون الف مقاتل . وهذا الجيش وإن كان صغير العدد بالاضافة الى

المقصد الهائل الذى خرج من أجله فان حسن نظامه ومهارة قائده كفلا له نصراً قلّ أن يوجد له نظير فى التاريخ

الاسكندر بآسيا الصغرى

سار الاسكندر فى هذا الجيش إلى آسيا الصغرى فقابله الفرس عند نهر « غِرانيق » فقهرهم بعد قتال عنيف . ثم واصل المسير حذاء الشاطئ الغربى لآسيا الصغرى مستولياً على جميع المدن الإغريقية التى فى طريقه. ثم اتجه نحو أواسط آسيا الصغرى ، فلم يقف فى طريقه أحد من الفرس. ثم قصد بلاد الشام فلم يجد أى مقاومة



(الاسكندر الأكبر المقدونى)
عن تمثال بدار آثار الاسكندرية
رسم محمد افندى على سعودى

فى طريقه حتى وصل الى مدينة « إسُّوس » على الطرف الشمالى الشرقى من شاطئ البحر الأبيض المتوسط . وهنالك قابل جيشاً فارسياً عرمرماً يقوده دارا الثالث ملك الفرس سنة ٣٣٣ ق . م . ولكن كثرة العدد لم تجدِ نفعاً بجانب مهارة الاسكندر الحربية ونظام جيشه وقوته ، فشتت الاسكندر شمل الجيش الفارسى وفرّ دارا هارباً . وتعرف هذه الواقعة بواقعة «إسّوس»

وقعة اسوس

❋ الاسكندر الأكبر فى مصر ❋

الاستيلاء على صور

بعد أن هزم الاسكندر الفرس فى واقعة إسوس زحف على مدينة

«صور» فأخذها بعد عناء كبير، وبذلك تم استيلاؤه على الشام . ثم قدم الى مصر، وكان الفرس قد استدعوا حاميتها منها بسبب حروبهم مع الاسكندر. فلما وصل الاسكندر إلى « بلُوز » (الفرَما) فى سنة ٣٣٢ ق . م رحّب به المصريون لما سمعوه عن عدالة حكمه ولما لاقوه من الذل والهوان فى حكم الفرس. ففتحت له مصر أبوابها ودخلها بدون عناء ، بل ان الوالى الفارسى لم يجرؤ على مقاومته وقابله فى منف بترحاب . ومن ثم سار الاسكندر الى « واحة أمون » الكبرى (واحة سيوة) ودخل معبد أمون ، حيث لقّبه الكهنة بابن أمون . وعند ذلك أبدى احتراما كبيرا للديانة المصريين وقدم القرابين لمعبوداتهم ، ولكنه مع ذلك لم يهمل العادات والتقاليد الإغريقية ، فأدخل منها فى مصر الموسيقى والألعاب النظامية

دخول الاسكندر مصر

ولما رأى الاسكندر أن قرية « راقوتيس » (راقودة)* ذات موقع بحرى موافق مكوّن لميناء جيد بين شاطئ البحر الأبيض وبين جزيرة مجاورة له تدعى جزيرة « فاروس » انشأ عندها حاضرة جديدة له سماها « الاسكندرية » . ثم أمر بردم الماء بينها وبين الجزيرة المذكورة ، فنشأ من ذلك مرسيان جميلان

انشاء مدينة الاسكندرية

وما زالت مدينة الاسكندرية من أهم بلاد الدنيا الى وقتنا هذا . وكان السياح الإغريق يصفونها بانها « مدينة جميلة » . وكان الرومان يعتبرونها أول المدن فخامة وعظمة بعد عاصمة بلادهم

وبعد أن استتب الأمر للإسكندر فى مصر خرج الى فتوحه الأخرى فى الشرق ، فاخترق سورية مرة أخرى ومنها سار إلى « ميزوبوتاميا »

فتوح الاسكندر الاخرى فى الشرق

* هذه كانت قرية صغيرة بجوار موقع مدينة الاسكندرية الحالى

(أرض الجزيرة) حيث التقت جيوشه بجيوش « دارا » الجرارة ، فبدد شملهم فى واقعة « إِرْبِل » سنة ٣٣١ ، وفرّ «دارا» مقهوراً . فكانت هذه الواقعة الفاصلة ابتداء سقوط دولة الفرس

واقعة اربل سنة ٣٣١ ق٠م

الاستيلاء على عاصمة فارس

وعند ذلك رحب البابليون بالاسكندر راضين به مليكاً لهم ، ثم سار الاسكندر الى بلاد فارس ذاتها واستولى على عاصمتها « سيس » وغيرها من المدن وغنم منها ما لا يحصى من الذهب والفضة والأحجار الكريمة . وبعد ان استراح الاسكندر قليلاً واصل السير الى قاصية بلاد الفرس ، فاخترق الأقليم المعروف الآن بالأفغانستان والتركستان الروسية وما جاورهما . ثم عبر مضايق جبال «الهِمَلايا» مع جزء من رجاله الأشداء فدخل شبه جزيرة الهند واستولى منها على مقاطعة « البَنْجاب » . وكان يود مواصلة سيره شرقاً ، فامتنعت جنوده تعباً وخوفاً . فسار الى الجنوب متتبعاً نهر السند حتى وصل شواطئ المحيط ، ثم عاد الى بابل واخذ ينظم فيها أمور دولته العظيمة ، ولكنه أصيب بحمى قضت على حياته سنة ٣٢٣ ق . م . وكان عمره اذ ذاك ٣٢ سنة وثمانية شهور

الاستيلاء على بنجاب بالهند

وفاة الاسكندر

ولم يكن الاسكندر قائداً حربياً فقط ، بل كان سائساً ومديراً عظيما . وكان فى نيته توحيد الشرق والغرب وجعلهما دولة واحدة تحت سلطانه ، وشرع فى ذلك فعلاً فملأ البلاد الشرقيـة التى فتحها بالتجار اليونانيين والحضارة الإغريقية ، وتزوج بزوجة فارسية وأوصى قواده بذلك أيضاً اعتقاداً منه بان ذلك من أعظم الوسائل لامتزاج عناصر الشرق والغرب وتوحيد كلمتهم . وكان يهتم فى فتوحه باصلاح الأمور التجارية والعلميـة . ومن ذلك الأمر الأخير انه ارسل إلى استاذه أرسطاليس مجموعات نباتية

اعمال الاسكندر ونتائجها

وحيوانية وغيرها من البلاد التى فتحها ، من شواطئ البحر الأبيض الى حوض نهر السند ، لفحصها فحصاً علمياً . ومن أهم نتائج فتوحه انتشار الحضارة اليونانية فى الشرق ، وصبغ البلاد التى فتحها بالصبغة الإغريقية ، وما زالت تلك الصبغة ظاهرة فيها حتى تغلب عليها الإسلام فكان له فيها أثر آخر

الفصل الثانى

البطالسة

(٣٢٣ — ٣١ ق . م .)

لما توفى الاسكندر ترك وراءه ابناً صغيراً وأخاً غير شقيق ، فتولى هذان الحكم على دولته العظيمة بوصاية « بِرْدِكَّاس » (أحد قواد الاسكندر الخلصاء) . وعيّن لكل جزء من الدولة والٍ يحكمه ، فاختار مصر بطليموس الذى سُمّى فيما بعد بطليموس الأول

بطليموس الأول

و « بطليموس الأول » هو مؤسس دولة البطالسة التى تولت الحكم فى مصر منذ وفاة الاسكندر الى استيلاء الرومان عليها . وكان بطليموس من أعظم قواد الاسكندر ومن أخاص المقربين اليه ، لأنه تربى معه فى قصر فليب ملك مقدونية . وكان قد نفى من بلاده فى أيام فليب . فلما توفى أحضره الاسكندر وجعله أحد قواده السبعة الذين يحيطون بهِ فى الحرب ، ويقضون معه وقت السمر فى السلم . وكان بطليموس معروفاً بالحزم والحكمة والشجاعة . ولما تولى الحكم على مصر فى سنة ٣٢٣ ق . م

قوبل فيها بالسرور والترحاب . وقد شعر منذ ابتداء حكمه بمصر بمنافسة « بردكاس » له فى السلطة ، ولكنه تمكن بقوته ودهائه من التغلب على نفوذه حتى صار كملك على مصر مستقل بالسلطان فيها . وأول عمل يؤثر عنه انه أراد أن ينقل جثة الاسكندر من بابل الى مصر ، فعارضه بردكاس وقال : انه يريد نقلها الى مقدونية ، لكنه لم يفلح وجئ بالجثة الى مصر فى موكب فاخر ودفنت فى منف ثم نقلت فى أيام خلفه الى الاسكندرية ، ويُظن ان مكانها الآن النبي دانيال . ولما اشتد غيظ بردكاس منه أتى الى مصر بجيش كبير لمحاربتـه فقهره بطليموس ، ثم سخط رجال بردكاس عليه لسوء مسلكه معهم فقتلوه . ومع كل هـذا بقى بطليموس معترفاً بسيادة ابن الاسكندر وأخيه عليه ، وكان يكتب اسميهما على المبانى التى حسّنها أو زاد فيها

وفى سنة ٣٢٠ ق . م غزا بطليموس فينيقية وجزءاً من سورية واستولى على بيت المقدس . وقد قام بحروب كثيرة لتوسيع نطاق دولته انتهت باسترداد هذه البلاد السورية بعد فقدها واستيلائه على جزيرة قبرس . وصارت لمصر بذلك السيادة البحرية فى البحر الأبيض المتوسط

وفى سنة ٣٠٥ لُقّب « بملك مصر » ومن ذلك التاريخ لم يدخل فى حروب كبيرة ، وانصرف لتنظيم بلاده وترقية شؤونها ، فزاد فى مبانى الاسكندرية . ويقـال انه المؤسس لدار كتب الاسكندرية ودار تُحَفها المشهورتين . والذين ينكرون انه المؤسس لهما يقولون بأنه هو صاحب المشروع ، وأن الذى قام بتنفيذه هو ابنه بطليموس الثانى

ومن المعروف عنه أنهُ احترم ديانة المصريين ، ووفق بين دياناتهم

وبين الديانة الإغريقية ، وظهر من أجل ذلك معبود جديد يدعى « سرابيس » أعد له معبد « السّرابيُوم » بالاسكندرية الذى قيل انه كان أجمل بناء بتلك المدينة

وقبل وفاة بطليموس بسنتين تنازل عن الملك لابنه بطليموس الثانى الملقب باسم « فيلادلف »

بطليموس الثانى

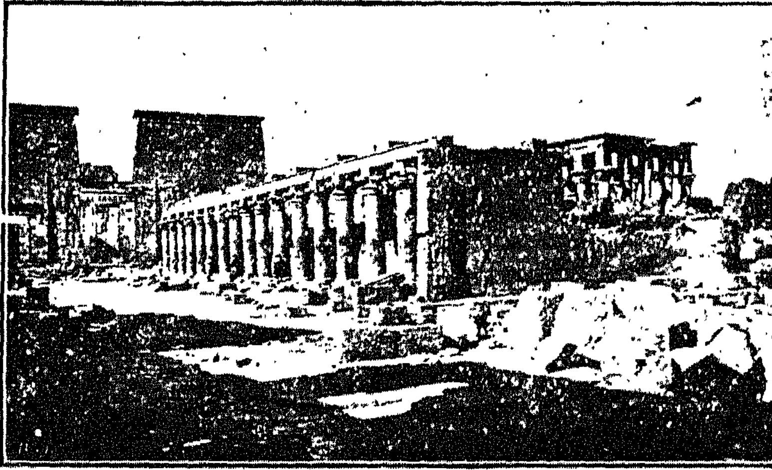
جلس بطليموس الثانى على سرير الملك ثمانية وثلاثين عاماً (٢٨٥ — ٢٤٧ ق م) لم يحدث فيها من الحروب أو الثورات ما هو جدير بالذكر ، فاتسعت فى أيامه ثروة البلاد وتقدمت التجارة وانتشرت العلوم والمعارف. فمن أعماله انه جدد الخليج القديم الذى حفرته الفراعنة من قديم الزمان ليوصل بين النيــل والبحر الأحمر ، وأعاد سلوك الطريق التجارية بين « قِفْط » والبحر الأحمر مخترقة وادى الحمـامات ، وشيد لها من المعاقل والمسالح ما جعل سير القوافل التجارية فيها سهلا مأمونا ، فتقدمت التجارة المصرية حتى وصلت الى بلاد العرب والهند شرقا ، وإلى اتيوبيا جنوبا . أما البحر الأبيض فكانت لمصر به تجارة ذات شأن مع بلاد الإغريق وكثير من البلاد الأخرى التى على شواطئه الكثيرة . وقد شيد بطليموس لهداية السفن منارة عظيمة بالطرف الشرقى من جزيرة فاروس اشتهرت فى التاريخ باسم « منارة الاسكندرية » ، ولعظم ارتفاعها كانت تسطع اشعتها ليلا من مسافة تربو على الثلاثين ميلا ، ومكانها الآن حصن « قايتباى »

ومن حرصه على نشر العلوم والمعارف والآداب انه وسع نطاق دار تحف الاسكندرية ودار كتبها ، وأمر بانجـاز أمرين عظيمين فى تاريخ الأدب : أولهما ترجمة التوراة من العبرانية الى الإغريقيــة ، وثانيهما حمله

« مانيتون » على تأليف كتابه الشهير فى تاريخ مصر القديم

ولم يهمل فيلادلف اقامة المبانى وتشييد الهياكل ، ومن أهم الآثار التى أقامها جزء كبير من معبد جزيرة « فيلة » المعروف الآن بقصر « انس الوجود » ، وهذا الجزء هو أجمل مبانى ذلك المعبد

ومن المعروف عن بطليموس الثاني انهُ سهل للإغريق انتجاع مصر وإنشاء أنزال جديدة بها ، وكان يهب لهم الأراضى لذلك ، وأهم مستعمرة لهم وقتئذٍ كانت بجهة الفيوم



(معبد فيلة قبل الخزان)

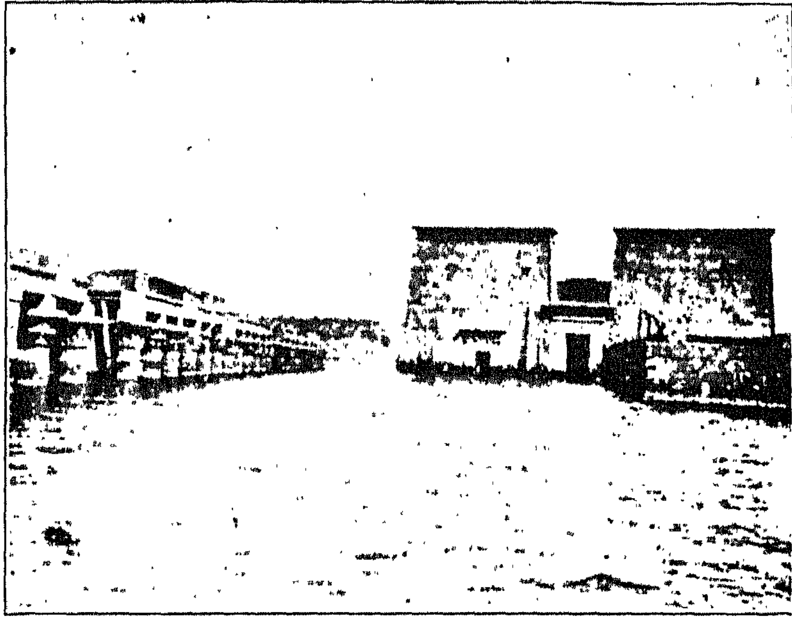
رسم لكجيان

بطليموس الثالث

وفى سنة ٢٤٦ ق . م . توفى بطليموس الثانى نخلفه ابنه « بطليموس الثالث » ، وفى أيامهِ امتدت أملاك مصر الى ما كانت عليهِ فى أيام الفراعنة ، فلم يلبث بعد تولية الملك أن ضم « قيرينيقية » (برقة) الى مصر . ثم نشبت الحرب بين مصر وسورية بسبب قتل أخته التى كانت متزوجة

بملك سورية وقتلتها زوجته الأخرى ، فزحف بطليموس على الشام بجيش عظيم وأمر اسطوله بالسير ازاء الشاطئ السورى ليساعد الجيش بالهجوم على المدن بحراً أثناء مهاجمة الجيش لها براً ، فخضعت له جميع سورية ، واستمر فى زحفه حتى وصل الى نهر الفرات سالكاً مسالك الفراعنة من قبله . وقد وُجد على بعض آثار هذا الملك انهُ وصل فى فتوحه أيضاً الى بابل وفارس وميديا . وعند عودته الى مصر رجع بغنائم ونفائس كثيرة ،

اتساع ملك مصر زمن البطالسة



(معبد فيلة بعد الخزّان)

رسم فزانى

وأحضر معهُ تماثيل المعبودات المصرية التى كان قد أخذها من مصر « قمبيز » وغيره من الملوك الأجانب الذين غزوا مصر زمن الفراعنة ، فزاد ذلك فى محبة المصريين له

ومضت على مصر برهة من الزمن كوّنت فيها دولة واسعة الأرجاء

تزيد سعتها على نظائرها أيام الفراعنة . فأصبحت ممتدة من شواطئ بلاد الإغريق شمالاً ، الى اتيوبيا جنوباً ، ومن قيرينيقية غرباً الى الحدود الهندية شرقاً

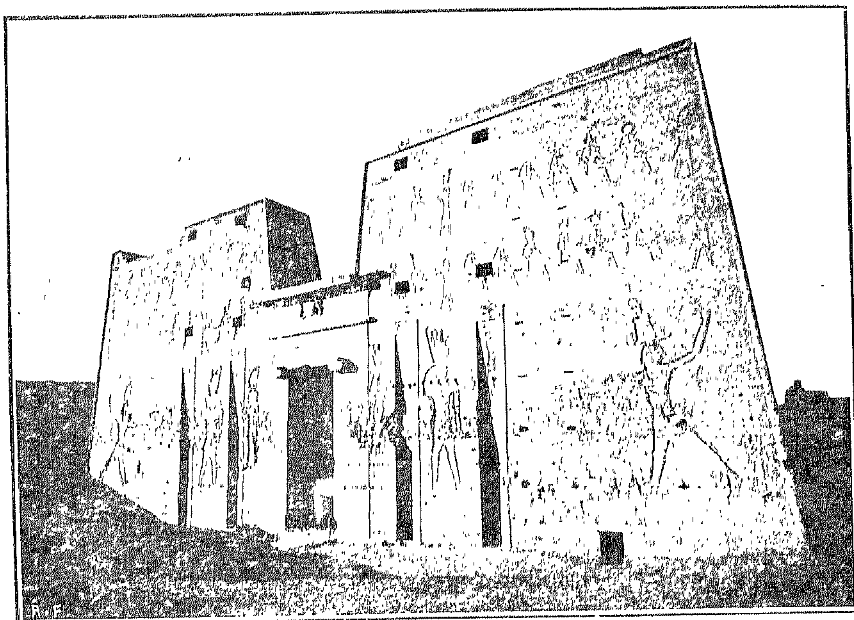
غير ان هذه الممالك لم يبق جميعها في يد المصريين ، بل استرد السوريون جميع الأراضي الشرقية من بلادهم ما عدا اقليما صغيرا ، واكتفى بطليموس بالمحافظة على ممتلكاته الغربية والبحرية ، ومدّ سلطانه في داخل بلاد النوبة

معبد ادفو

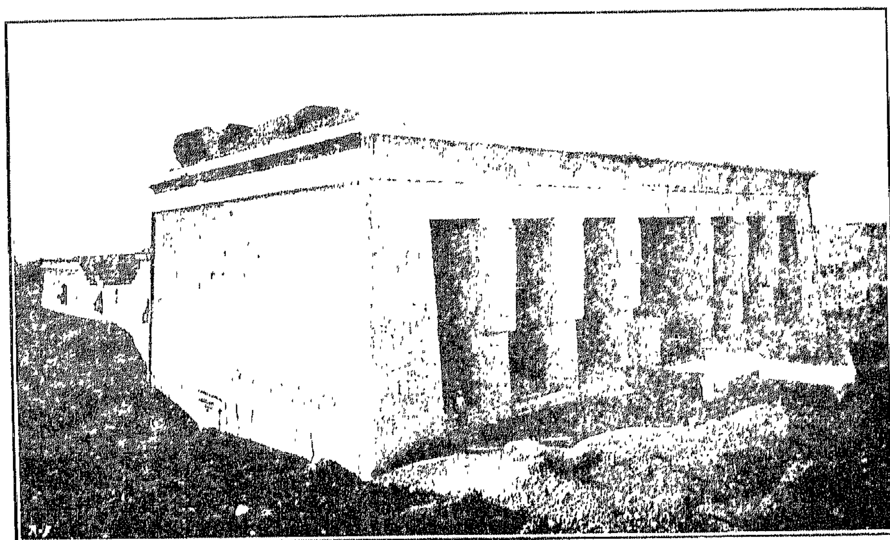
ولم يكن بطليموس الثالث محارباً شديداً فقط ، بل كان مولعاً بالأدب محباً لاقامة المباني وتشييد المعابد . وهو أول ملك من البطالسة شيّد مبانى عظيمة ذات أثر خالد فى التاريخ ، فهو الذى شيد « معبد ادفو » الذى ما زال حافظاً لشكله ورونقه الى الآن ، وهو ومعبد « دندرة » أحسن نموذجين حيّين للمعابد المصرية

﴿ اضمحلال البطالسة ﴾

وبعد بطليموس الثالث تولى الملك بطليموس الرابع فالخامس فالسادس . وفى أيامهم استولى الضعف على مصر ولم يبق لها من أملاكها سوى قبرس وقيرينيقية ، وكاد يُقضى عليها لولا حماية «رومية» لها . وكانت « رومية » إذ ذاك قد قويت شوكتها ، ورأت من مصلحتها حماية مصر . فبقيت منذ ذلك التاريخ صاحبة الشأن فى سياستها الخارجية حتى انتهت أيام البطالسة ، وغلبت عليها جملة . ولذلك لم تكن لمصر فى هذه الفترة منزلة سياسية فى العالم ، ومعظم الملوك الذين تولوا حكمها فى هذه المدة كانوا



معبد ادفو (رسم لسكجيان)



معبد دندره من الخارج (رسم لسكجيان)

مستضعفين، وكثيراً ما قتلوا اخوتهم وأقاربهم للانفراد بالملك، وان لم يُحدث ذلك اهمالاً كبيراً فى ترقية العلوم والمعارف أو فى تشييد المبانى والآثار

وما زالت مصر على هذه الحالة حتى كانت وفاة « بطليموس الثالث عشر » فخلفته ابنته « كِلْيُو بَطْرَة » الشهيرة فى سنة ٥١ ق . م . وسنأتى على ذكرها عند الكلام على علاقة « رومية » بالبطالسة

﴿ حالة مصر ﴾

فى زمن البطالسة

املاك البطالسة

كانت مصر زمن البطالسة على جانب عظيم من القوة والثروة ، ولم تقل أملاكها فى عهد معظم ملوكهم عن أملاك أعاظم الفراعنة الأقدمين . نعم اتسعت دولتهم فى عهد بعض ملوكهم اكثر من اتساعها فى زمن آخرين ، ولكن مصر لم تفقد طول مدتهم سيادتها فى الجملة على « برقة » وقبرس وسورية وفلسطين . أما أعظم أيام ثروتها وعظمتها فكانت فى عهد الأربعة البطالسة الأوائل . إذ كانت زمن « فيلادلف » أغنى مملكة فى العالم . وكانت عظمة القصر الملكى بالاسكندرية وفخامته وأبّهة المُلْك بِهِ أكبر ما رأت الدنيا الى ذلك الوقت

عظم ثروتهم وفخامة ملكهم

ولعصر البطالسة فى مصر من الخواص والمزايا ما يجعله مغايراً لعصور الفراعنة . وأهم هذه الخواص ظهور العنصر الإغريقى ماثلاً فى عظمة مصر ، بل ان حضارة ذلك العصر هى فى الحقيقة إغريقية الأصل ، ولم تؤثر فيها بقايا الحضارة المصرية القديمة الاّ فيما سمح بِهِ ملوك البطالسة عن قصد . فمثلاً كان ملوك البطالسة يظهرون فى الحفلات الرسمية بزى الفراعنة

مميزات عصر البطالسة

الأقدمين، وكانوا يقدمون الهدايا والقرابين للمعبودات المصرية ويشيدون المعابد والهياكل على الطراز المصرى القديم[١]، وأحسن مثال لذلك باب معبد « خُنْسُو » بالكرنك ومعبد إدفو ومعبد دَنْدَرة. كما كانوا يتزوجون بأخواتهم اسوة بالكثير من الفراعنة[٢]. كل ذلك إرضاءً للمصريين ورغبة فى أن ينسوهم أنهم محكومون بملوك غرباء عن بلادهم بعيدين عن نسل آبائهم وأجدادهم. كان ملوك البطالسة يظهرون بكل هذه المظاهر ولكنهم كانوا إغريقيين فى معيشتهم وعاداتهم الداخلية بل فى نظام حكومتهم وتشكيل جيوشهم

وكان المصريون فى أول الأمر بمعزل عن البطالسة، ولما كثر ورود الإغريق الى مصر، وانتشروا فى أنحاء البلاد، (انتشار تجار اليونان اليوم فى قرى الأرياف) زاد الاختلاط بين العنصرين، وتصاهروا، وتعلم معظم المصريين اللغة الإغريقية التى صارت اذ ذاك اللغة الرسمية للبلاد

العلوم والمعارف فى زمن البطالسة

وكان ملوك البطالسة يُعْنَوْنَ بترقية العلوم وإحياء الآداب. وقد أنشئوا لهذا دار كتب عظيمة بالاسكندرية ومدرسة جامعة كبرى كانت تعرف عندهم بدار التحف، وقد ذاع صيت الاسكندرية بهذين المعهدين

---

(١) كان معظم مبانى البطالسة على الطراز الإغريقى ولكنهم كانوا يقيمون كثيراً من المبانى لا سيما الدينية منها على الطراز المصرى القديم. ويشاهد فيما شيدوه من هذا النوع انهم كانوا يحاكون الفن المصرى، لكنهم لم يصلوا فى ذلك الى حد الاتقان الذى بلغه قدماء المصريين

(٢) كانت هذه عادة عند ملوك قدماء المصريين وكان القصد منها حفظ الدم الملكى فى الأسرة المالكة



باب معبد خنسو بالكرنك (رسم محمد افندى على سعودى)

حتى صارت كعبة للعلوم يؤمها طلاَّب العلم من جميع أنحاء العالم المتمدين

دارا الكتب والتحف بالاسكندرية

وبدار التحف كانت تتلقى العلوم الراقية على نظام شبيه بنظام الجامعات فى عصرنا . واختلف المؤرخون فيمن أسس هذا المعهد ، وأرجح الأقوال أن بطليموس الأول هو صاحب المشروع وأنهُ كان يذهب بنفسه الى البلاد الإغريقية ليجمع أعاظم الفلاسفة والعلماء من الإغريق ليذهبوا معهُ الى الاسكندرية ، فإن لم يكن المعهد قد فُتح فى زمنهِ فهو الذى أعدَّ له كل شيء ، وبفضل أعماله تمكن ابنه بطليموس الثانى من افتتاحه

وأما دار الكتب المشهورة فى التاريخ فقد جمع فيها ملوك البطالسة من كتب الأمم القديمة ما وصلت اليـهِ أيديهم ، وكانت قسمين : قسماً ملحقاً بدار التحف وهو الاكبر ، والقسم الآخر ملحق بمعبد السِّرابيوم ، ويقال ان القسم الأكبر كان بهِ نحو ٧٠٠,٠٠٠ كتاب

وقد ساعدت هذه المعاهد على ازدياد عظمة الاسكندرية ، فقصدها كبار العلماء والفلاسفة يدرسون بمدارسها ويشتغلون بالبحث والتأليف بمساعدة دارى كتبها وتحفها . ومن بين هؤلاء عدد كبير حفظ ذكرهم التاريخ ، منهم «إقليدِس» صاحب كتاب الأصول فى الهندسة ، ومنهم «إِيَراتُسْتِين» و «بطليموس» الجغرافيَّان و «هِبَّارْك» الفلكى و «أَبُولونيوس» النحوى وغيرهم

ومما يؤسف له ان تاريخ هذه المعاهد مظلم جداً ، واكثر ما نعرفهُ عنها غير مقطوع بصحته لعدم عثورنا على ما يثبت ذلك من الآثار

غير ان من المجزوم بهِ وجود دارى التحف والكتب ورئيس لكلٍّ منهما ازدادت عظمة وظيفته باتساع نطاقها . ومن المشهور أيضاً ان جميع

ما له اختصاص بهما ، من انتخاب قوَمة وعمّال ، ومن ترتيب ونظام ، كان اغريقياً لا مصرياًّ ، وان المصريين لم ينتفعوا بهما و بقوا بعيدين عنهما حتى اندثارهما بسبب إحراق دار الكتب

حراق دار كتب الاسكندرية

وقد اختلف المؤرخون أيضاً بشأن احراق هذه الخزانة العظيمة : فمن قائل ان يوليوس قيصر أحرقها مع أسطوله يوم بغته المصريون على غير استعداد ، ومن قائل انها أُحرقت بعده بنحو ١٠٠ سنة ، ومن قائل ان عمرو بن العاص أحرقها بأمر من الخليفة عمر رضى الله عنهُ ، ولكن كبار مؤرخى الافرنج ينكرون صحة هذا القول الأخير

لأدب فى زمن البطالسة

وكان لملوك البطالسة شغف زائد بالأدب ، وكانوا يكثرون من الاجتماع بأهله وتقريبهم منهم ، بل ان بعضهم كان يشتغل بنفسه بالكتابة والتأليف . فمن هؤلاء بطليموس الأول الذى كتب كتاباً فى تاريخ الاسكندر ، و بطليموس الرابع الذى ألف أُسطورة تمثيلية ، و بطليموس التاسع فانهُ مع ما اشتهر بهِ من سوء الخلق ألف كتاب «المذكرات» عن نفسه فى أربعة وعشرين جزءًا . وله انتقادات لشعر هوميروس

وقد كان لهذه العناية تأثير كبير فى ارتقاء الأدب الإغريقى وكثرة الكتابة والتأليف

صناعة والتجارة زمن البطالسة

لما استولت البطالسة على مصر أدخلوا بالبلاد كثيرًا من الإغريق انتشروا فى جميع أنحاء القطر ونشروا صناعتهم فيهِ فتعلمها منهم المصريون . وقد تمكن صنّاع العنصرين من الوصول بالصناعة الى الحد الذى يلائم تلك الحضارة العظيمة التى تحيط بهم

أما التجارة فقد وصلت الى درجة عظيمة جداً فى زمنهم ولا سيما

عهد بطليموس الثـانى (فيلادلف) إذ كانت التجارة عظيمة بين مصر والبلاد التى على شواطئ البحر الأحمر حتى بلاد « بنت » جنوباً . وكانت السفن المصرية تسافر من السويس الى عدن و بلاد العرب ، وقيل أيضاً انها كانت تصل الى بلاد الهند ، كما انهـا كانت تسافر الى بلاد عديدة على شواطئ قارة إفريقيـة . ومما ساعد على نموّ التجارة اصلاحُ طريق القوافل الموصل بين الوجه القبلى وشاطئ البحر الأحمر مخترقاً وادى الحمامات وتأمين السابلة فيهِ ، وكانت ترد الى مصر حاصلات بلاد النوبة و بلاد السودان الشرقية كما كانت ترد فى الأزمنة المتقدمة . وأما التجارة بين مصر و بين المستعمرات الإغريقيـة الأخرى المنتشرة على شواطئ البحر الأبيض فـكانت متواصلة ذات فائدة كبرى لمصر

ومن الأسباب المهمة فى رواج التجارة المصرية فى ذلك العصر وجود الـكثيرين من الاسرائيليين بالاسكندرية وتمتعهم هم وغيرهم من الماليين بمزايا تجعلهم لا يضنّون باستخدام أموالهم فى التجارة ، بفضل استتباب الأمن بالبلاد ووجود جيش وأسطول حربى يحميان مصالح التاجر ويضمنان لأمواله السلامة

الفصل الثالث

كلمة في الرومان (الروم)

كانت الرومان من أشد أُمم الأرض بطشاً ، وأوسعهم ملـكاً ، واكـثرهم تمدينًا . وقد بقى لحضارتهم بعد ان بادوا أثر كبير فى مدنية أوربا ،

ولا سيما الأمور المتعلقة بالقوانين وتشكيل الحكومة وغير ذلك مما نشروه من حضارة الإغريق . ولذا اعتُبرت دولتهم أعظم من كثير من الدول القديمة التي ظهرت في أزمان التاريخ

وسُمّيت هذه الدولة بدولة الرومان نسبةً الى « رُومِيَة » التي كانت مهدَ نشأتهم . ولسنا نعرف قطْعاً وقت بنائها ولا المؤسسين لها ، وان كانت الأقاصيص الخاصة بذلك كثيرة ، وكلها تشير الى ان مؤسسها هو « رُومِيلُوس » ، وأن تأسيسها كان في القرن الثامن قبل الميلاد

منشأ رومية

وكانت « رومية » في أول أمرها مدينـة صغيرة على نهر « التِّبْر » يسكنها قوم من اللاَّتِينيِّين ، ثم عظمت شيئاً فشيئاً . وكان اللاتينيون منتشرين أيضاً في القرى المجاورة لها ، فاتحدوا جميعاً تحت رياسة «رومية» للدفاع عن أنفسهم اذا هاجمهم غيرهم . ويُعرف ذلك « بالاتحاد اللاتيني »

﴿ أطوار تاريخ الرومان ﴾

ينقسم تاريخ الرومان الى ثلاثة أطوار :

١ — « طور الملَكية » . ويمتد من تأسيس « رومية » الى سنة ٥١٠ ق . م

٢ — « طور الجمهورية » . ويمتد من سنة ٥١٠ الى سنة ٣٠ ق . م

٣ — « طور الامبراطورية » . ويمتد من سنة ٣٠ ق . م الى سنة ١٤٥٣ م

طور الملكية

كانت حكومة « رومية » ، ملكية في العهد الأول ، فطغى بعض

ملوكها وظلم ، فأخرجه الرومان من المدينة وألّفوا حكومة جمهورية حوالى سنة ٥١٠ ق . م

طور الجمهورية

وكان القابضُ على زمام الأمور فى أيام الجمهورية رئيسين يدعى كل منهما « قُنْصُلاً » . ليمنع أحدهما الآخر محاولة الجور والاعتساف . وكانت تنتخبهما جمعية عمومية لمدة سنة واحدة . ومن حق هذه الجمعية النصح للقنصلين والنظر فيما يريدان سنّه من القوانين . وعلاوة على ذلك كانت تشمل هيئة الحكومة مجلساً آخر يقال له «مجلس الشيوخ» أو «السِّنَاتُو» وأعضاؤه من رؤساء أُسرات الأشراف ، غير ان رأيه كان استشارياً محضاً . وفى الأوقات الحرجة التى يُخشى على البلد فيها مما قد يقع من النزاع بين القنصلين كان يُعيّن لرياسة الحكومة شخص مطلق السلطة على الجيش يسمى « دِكْتاتُوراً » ، ولا تزيد مدة حكمه على ستة أشهر

النزاع بين طبقتى السكان فى رومية

وكان برومية فى أوائل أيام الجمهورية طبقتان من السكان : الأشراف ويسمون «البطارقة» ، والعامة ويسمون «البلِبْيان» (السوقة) وكانوا أذلاء محتقرين محرومين من اللّحاق بعمّال الحكومة ، وممنوعين من التزوّج بأحد من أُسرات البطارقة . وكان هؤلاء يستعبدونهم لشدة فقرهم واضطرارهم الى اقتراض المال منهم . فلما سئموا هذه الحالة هاجروا جملةً من « رومية » سنة ٤٩٤ ق . م . الى مكان يدعى « الجبل المقدس » حيث كانوا يريدون انشاء مدينة جديدة لهم . فهال الأشراف هذا الأمر ، لأنهم فقدوا بهِ طبقة العملة والخدمة وأصبحوا لا يستطيعون المعيشة فى هناء ، فخضعوا لمطالبهم وعيّنوا منهم حاكِمَيْن يسمى كل منهما «تِرِبيُونا» (أطْرَبُونا) للمحافظة على حقوقهم ، وكان من حق التربيون أن يمنع سن القوانين

المضرة بمصلحة البلِبْيان ، وكل من تعدَّى على حقهِ جوزى بالقتل . فعاد البلبيان الى « رومية » وأخذ الحاكمان المحافظان على مصالحهم يزيدان فى حقوقهم شيئاً فشيئاً : ففى سنة ٤٥٠ ق . م . دُوّنت القوانين بعد ان كانت مفهومة إجمالاً يتلاعب الأشراف فى تطبيقها كيف شاءوا . وفى سنة ٤٤٤ خُوّل للبلبيان حق انتخاب القناصل منهم اسوة بالأشراف ، وإن كان لم ينتخب أول قنصل منهم الاَّ سنة ٣٦٦ ق . م . وما زالت حقوقهم تزداد شيئاً فشيئاً حتى انتهى الأمر بمساواتهم بالأشراف من كل وجه سنة ٣٠٠ ق . م . وبالتدريج نُسِى الفرق بين الطبقتين

﴿ نموّ سلطان رومية وامتداده على غيرها من البلدان ﴾

غزو اتروريا

لما قويت حكومة الجمهورية أخذت فى توسيع نطاق «رومية» وبسط سلطانها على ما جاورها من البلدان . وكان يمتد على الشاطئ الغربى من ايطاليا شمالى « رومية » مقاطعة عظيمة تسمى « إتْرُوريَا » يُعرف أهلها بالإتْرُسْك ، وهم من أشد أعداء الرومان ، فنشبت بينهم حروب طويلة انتهت باستيلاء الرومان على « ڤِياى » أمنع حصونهم سنة ٣٩٦ ق . م ، فقضى ذلك على قوة « الإتْرُسْك » ، وأعقبهُ غلبة الرومان على جميع بلادهم بلداً فبلداً

هجوم الغاليين على رومية

وفى سنة ٣٩٠ ق . م حدث أمر أوقف فتوح الرومان وكاد يقضى على مجدهم . وذلك ان « الغاليين » (وهم جنس بربرى سكن ايطاليا شمالى نهر « بو ») زحفوا جنوباً نحو « رومية » ابتغاء السلب والنهب ، فبرزت

اليهم الجيوش الرومانيـة ولاقوهم على نهر « إلْيا » بالقرب من مدينة «رومية»، فدارت الدائرة على الرومان وولوا مدبرين الى المدينة ، فاقتحمها الغاليون عليهم قبل ان يستعد أهلها للدفاع عنها ، واستباحوها سلباً وتحريقاً ، ولم يمسكوا عن تدميرها جميعها الاَّ بعد ان الهاهم عنها أهلهـا بالكثير من المال

السمنيون

ولما انتعش الرومان مما أصابهم من الوهن بعد هذه الهزيمة عادوا الى السير فى طريق الفتح . وكان « السَّمْنِيُّون » اكبر أعدائهم فألَّبوا عليهم أكثر سكان ايطاليا من « الإِتْرُسْك » و « الغاليين » و « الإِغريق » ، وبذلك خاضت «رومية» سنة ٣٤٣ ق . م حروباً طويلة استغرقت اكثر من قرن ، وانتهى الأمر بفَلْج الرومان وفوزهم على جميع أعدائهم. فأصبحوا أرباب السيادة على شبه جزيرة ايطاليا الاَّ قليلاً

وبقيت بعد هذه الحروب مدينةٌ ذات ثروة هائلة فى جنوب ايطاليا تسمى « تارَنْتو » لم تخضع هى أو لواحقهـا من المستعمرات الإغريقية لنفوذ الرومان . واستنجدوا « بِيرُوس » ملك «أبيروس» (مقاطعة ببلاد الإغريق) . وكان بينه وبين الاسكندر قرابة ، فطمع «بيروس» فى تكوين دولة عظيمة بالمغرب تضارع التى أسسها قريبه بالمشرق ، فهمَّ الى مساعدة أهل « تارنتو » وقهرَ الرومان فى واقعة « هِرَقْلة » سنة ٢٨٠ ق. م. ثمَّ قهرهم ثانية فى « عَسْقَلاَن » سنة ٢٧٩ ق. م ، ولكنه خسر خسارة عظيمة يُضرب بها المثل أضاعت عليهِ ثمرة انتصاره . وفى سنة ٢٧٥ ق. م. هزمه الرومان فى واقعة « بَنَنْتُم » هزيمة قضت على آماله ، وتراجع بجيوشه من ايطاليا. وفى سنة ٢٧٢ ق.م سقطت «تارنتو» فى قبضة الرومان ، وبذلك

حروب بيروس

تمَّ استيلاء « رومية » على جميع أنحاء ايطاليا

ولما ان تمت لرومية السيادة المطلقة على شبه جزيرة ايطاليا ولَّتْ وجهها الى ما وراء ذلك ، فلم تجد أمامها أمة عظيمة تخشى اعتراضها فى طريقها سوى القَرْطاجَنِّيِّين

﴿ النزاع بين رومية وقرطاجنة ﴾

قرطاجنة

أسس الفينيقيون مدينة « قَرْطَاجَنَّة » على شاطئ أفريقية الشمالى بالقرب من موقع مدينة « تونس » الحالية فى القرن التاسع قبل الميلاد ، وأنشئوا حولها مستعمرة جميلة . ثم أخذت هذه المستعمرة فى التقدم حتى صارت دولة عظيمة شديدة البأس ، وأصبحت بعد أن ضعفت شوكة الفينيقيين أنفسهم فى الشرق أعظم دولة تجارية فى البحر الأبيض المتوسط . فكان القرطاجنيون أوفر من الرومان مالاً واكبر منهم أسطولاً ، ولأسطولهم السلطان الأعظم على البحر الأبيض من جزيرة صِقِلِّيَة الى الى مجاز جبل طارق . وكانوا يملكون فيه جزءًا من صقلية وسَرْدانِيَة وقُرْشُقَة وعدة ولايات على شاطئ اسبانيا . وأما أملاكهم فى افريقية فكانت تشمل معظم الأراضى المعروفة الآن بتونس والجزائر ومَرَّاكُش

﴿ الحروب البونية وأسبابها ﴾

يُعلم مما تقدم أنهُ لم يكن بد من حدوث تنافس بين دولتى قرطاجنة ورومية ، اذ الأولى لها السيادة على البحر الأبيض المتوسط والثانية آخذة فى توسيع نطاق أملاكها وتجارتها فى ذلك البحر ، فنشبت بينهما بسبب

هذه المنافسة حروب طويلة تسمى «الحروب البُونِيَّة» أو (البُونِيقِيَّة)، ومعناها الفينيقية لأن القرطاجنيين فينيقيو الأصل. وهى ثلاث حروب:

﴿ الحرب الأولى ﴾

(٢٦٤ — ٢٤١ ق. م)

استيلاء الرومان على صقلية

بدأت هذه الحروب بسبب تدخُّل الرومان فى جزيرة صقلية وارسال جنودهم اليها وقبضهم على مدينة «مِسَّانا» (مسِّينى). وهذه الحرب عظيمة الشأن من حيث كانت أُولى الحروب البحرية التى دخلت فيها رومية. ولم يكن للرومان إذ ذاك أسطول ما، فلما أدركوا عظيم بلائه فى هذه الحروب شيدوا (على ما قيل) ما يربو على مائة سفينة فى شهرين وحاربوا القرطاجنيين بحراً فى «ميلى» بالجزيرة المذكورة سنة ٢٦٠ ق. م. فقهروهم واستولوا على جزيرة صقلية، فكانت هذه أول مستعمرة لهم وراء شبه جزيرة ايطاليا. ولم تنتهِ الحرب عند ذلك بل لبثت سجالاً عهداً طويلاً، وانهزم فى خلالها الرومان انهزاماً عظيماً فى «إفريقية» بقيادة «ريجُولُوس» سنة ٢٥٦ ق. م. ثم اقتصرت الحرب على جزيرة صقلية كما كانت من قبل. وفى اثنائها انهزم الرومان بحراً فى واقعة «جِبَاتُم» ثم انتصروا على القرطاجنيين فى موقعة فاصلة بالقرب من جزائر «إجِيت» سنة ٢٤١ ق. م. فعقد الصلح بين الفريقين، وبهِ تمّ للرومان الاستيلاء على جزيرة صقلية

« الحرب الثانية »

(٢١٨ — ٢٠١ ق . م)

بعد الحرب البونيـة الأولى حدثت فتن وقلاقل فى « قرطاجنة » كادت تقضى عليها ، لولا ان رجلا عظيماً فيها يدعى « هَمِلْكَار » أخمد تلك الثورة وأعاض خسارة صقلية باستيلائهِ على الجزء الأكبر من اسبانيا ، وهنالك درَّب جيشاً عظيماً تأهب للانتقام لبلاده من أعدائها . وكان الرومان قد انتهزوا فرصة حدوث الفتن فى « قرطاجنة » واغتصبوا « سَرْدانِيَة » و « قُرْشُقَة » من القرطاجنيين ، فكان هذا أدعى لاستئناف القتال بين الفريقين . والسبب الذى دعا الى نشوب الحرب أن القرطاجنيين حاصروا مدينة « سَغُنْتُم » الإغريقيـة باسبانيا ، وكانت موالية لرومية ، فابتدأت بذلك الحرب البونية الثانية

أنيبال



(أنيبال)

وهذه الحرب هى أهم الحروب البونية جميعها ، للحوادث العظيمة التى حدثت فيها والشهرة الطائلة التى نالها بطلها وهو « أَنِيبَال » ابن « هَمِلْكَار » السالف الذكر

وكان « أنيبال » من أشد الناس وفاءً لوطنه واكثرهم تفانياً فى خدمته والانتقام له . وكان قائداً حربياً كبيرًا تحبه جنوده ،

وتهابه أعداؤه ، على شدة بأسهم وقوة جيوشهم . وهو بلا شك من أعظم القواد الذين ظهروا فى أزمان التاريخ

وتوقَّع الرومان أن تكون الحرب فى أسبانيا فأخذوا يعدّون الجيوش لغزوها وأغفلوا مهارة أَنيبال النادرة ومبدأه فى الحرب ، وهو « أن الهجوم أحسن وسيلة الدفاع » . فبينما هم كذلك اذ أنيبال قد انقض على سهول ايطاليا

مسيره الى ايطاليا

وذلك ان « أنيبال » سار سنة ٢١٨ ق . م . فى جيش من الرجال الأشداء عبر بهِ جبال « البرَانِس » ، ثم اخترق بلاد « الغال » المعروفة الآن بفرنسا ، واقتحم جبال « الألْب » ونزل منها الى وادى نهر « بُو » . فكان مسيره هذا من أغرب ما يمكن لقائد أن يأتى بهِ ، بل لم يرَ التاريخ الى الآن عملاً حربياً أبدع ولا أحكم منهُ بالاضافة الى خشونة المُعَدَّات وقلَّة المواصلات . ذُعر الرومان من ذلك ، فهرولت جيوشهم الى الشمال لصدّه . فقهرهم أنيبال فى موقعتين فى وادى نهر « بو » ثم عبر جبال أَبِنّين وسار نحو رومية . وكان إِذ ذاك قد انضم الى جيشه عدد كبير من أهل الغال . ولما ان تبعته الجيوش الرومانية هيَّأ لهم خديعة هزمهم بها شرّ هزيمة فى واقعة بحيرة « ترَازِيمِين » سنة ٢١٧ ق . م . حيث قُتل قنصلهم ، وقُضى فيها على رجالهم . وربما كان الأجدر بأنيبال إِذ ذاك أن ينقضّ على « رومية » ، ولعلهُ رأى أن يؤجل ذلك الى أن يزيد من ضعفها بالاستيلاء على الجهات المجاورة لها . وفى السنة التالية جمع الرومان أكبر جيش استطاعوا جمعه وساروا بهِ لمقاتلة أنيبال ، فتقابل الجيشان فى واقعة « كان » بالجنوب الشرقى من ايطاليا سنة ٢١٦ ، أظهر فيها أَنيبال من

واقعة ترازيمين سنة ٢١٧

واقعة كان سنة ٢١٦

المهارة والمقدرة ما أفنى بهِ الجيش الرومانى (وكان عدده ٨٠٠٠٠ مقاتل) فلم ينج منهُ الآمن وقع فى الأسر . ولو كان مجد الرومانيين مشيداً على القوة الحربية فقط ، ولم يكن لهم الحظ الأكبر فى السياسة ونظام الحكومة ، لكانت هذه الواقعة قاضية على سلطانهم

واقعة متورروس سنة ٢٠٧

بقى أنيبال بايطاليا خمسة عشر عاماً (من سنة ٢١٨ الى سنة ٢٠٢ ق.م.) وهو يقهر الرومان المرة بعد الأخرى ، غير أنهُ لم يستطع الاستيلاء على رومية ذاتها . وفى أواخر تلك المدة كان بالطبع فى حاجة الى نجدة من قرطاجنة ، فسار اليهِ أخوه فى جيش من أسبانيا ، فقابله الرومان فى الشمال الشرقى منها وقتلوه وهزموا جيشه على نهر مِتُورُوس سنة ٢٠٧ ق . م . فكان لهذه الواقعة تأثير كبير فى الحروب البونية ، بل فى تاريخ رومية والنزاع بينها وبين قرطاجنة ، إذ بسببها مُنعت عن أنيبال الأمداد التى كان ينتظرها والتى كان فى أشد الحاجة اليها . على ان أنيبال بقى ثابت الجأش يواصل القتال فى جنوب ايطاليا حتى استُدعى الى بلاده لحماية « قرطاجنة » ذاتها

وذلك ان القائد الرومانى «شِبيُون» (الذى لُقّب فيما بعد بالإفريقى لفتحه إفريقية) ترك ايطاليا وذهب بجيش الى إفريقية . ولما رأت قرطاجنة نفسها فى خطر منهُ استدعت أنيبال فرجع اليها مسرعاً . ولكن حدث ما كان يخشاه بعد قتل أخيهِ ، فانتصر شبيون على أنيبال انتصاراً عظيماً فى واقعة (زاما) بالقرب من قرطاجنة سنة ٢٠٢ ق . م . وعند ذلك عقد الصلح بين الدولتين على شرط أن تتنازل قرطاجنة عن اسبانيا وجزائرها التى فى البحر الأبيض المتوسط ، وأن تدفع لرومية جزية سنوية

واقعة زاما سنة ٢٠٢

الصلح

كبيرة ، وأن تسلّم أسطولها اليها ، وأن لا تحارب أحداً الّا باذنها . وعندئذٍ اضطر أنيبال الى الفرار من قرطاجنة . ثم ألّب ملك مقدونية وملك سورية على محاربة الرومان وحارب بنفسه فى جيوشهما ، ولما لم يُفلح تناول السم فقضى على حياته سنة ١٨٣ ق . م . مخافة أن يقع فى أيدى الرومان أعدائه

﴿ الحرب الثالثة ﴾

(١٤٩ — ١٤٦)

اتفق أن أحد ملوك إفريقية المجاورين لقرطاجنة تعدّى عليها وأهانها مراراً عديدة ، فهمّت « قرطاجنة » بالدفاع عن نفسها ، فاعتبر الرومان ذلك مخالفاً لشروط الصلح الذى تم بينها وبينهم سنة ٢٠١ وشنّوا عليها الغارة . فلما أنِست « قرطاجنة » من نفسها الضعف طلبت من الرومان الصلح بالشروط التى يختارونها ، فطلبوا منها تسليم جميع أسلحتها وأسطولها ، وبعد أن فعل القرطاجنيون ذلك طلب منهم الرومان الجلاء عن المدينة واتخاذ مكان جديد لهم يبعد عن البحر بنحو عشرة أميال . فهال القرطاجنيون ذلك ، وانقلب ضعفهم الى شجاعة اليأس ، فقاموا رجالاً ونساءً ، كباراً وصغاراً للدفاع عن مدينتهم ، وبنوا لهم أسطولاً جديداً وردوا هجمة الرومان ، فبقى هؤلاء سنتين كاملتين غير قادرين على أخذ المدينة ، ولكنهم تمكنوا أخيراً من الاستيلاء عليها وأحرقوها ، وبذا قضوا على أكبر أعدائهم وأعظم عائق لاتساع ملكهم . فكان ذلك ابتداء سيادتهم فى المغرب

احراق قرطاجنة

﴿ فتوح الرومان ﴾

لم تكن أطماع الرومان قاصرة على الغرب ، بل لم تنتهِ الحروب البونية

حتى استولت رومية على مقدونية (سنة ١٦٨ ق . م .) وبسطت سيادتها التامة على بلاد الإغريق (١٤٦ ق . م .) وجزء كبير من آسيا الصغرى ، فوق ما استولت عليهِ من قبل من صقلية وسردانية وقرشقة وجنوبى جبال الألب من بلاد الغال ، واسبانيا وإفريقية . وقد واصلت فتوحها فى الشرق حتى تم لهـا على يد « بومبى » (بومبيوس) الاستيلاء على جميع سورية واكثر آسيا الصغرى سنة ٦٣ ق . م

ثم فتح يوليوس قيصر ما وراء جبال الألب من بلاد الغال (٥٨ — ٥٠ ق . م .) ثم برطانية سنة ٥٥ ق . م

وفى سنة ٣١ ق . م . استولى أُكتافيوس على مصر عقب واقعة « أَكتيُوم » ، وسيأتى ذكر ذلك فى الكلام على علاقة الرومان بالبطالسة

﴿ اضمحلال الجمهورية وتأسيس الامبراطورية ﴾

اسباب الضعف

لما أخذت الدولة الرومانيــة فى هذا الاتساع العظيم أصبح أعضاء الجمعية العمومية غير قادرين على إدارة سياستها لعدم درايتهم بشؤون تلك المالك الواسعة البعيدة عن بلادهم ، فأخذ أعضاء مجلس السناتو ينفردون بإدارة الدولة فدبّ فيهم روح الطمع واغتصاب الأموال الطائلة والانغماس فى الترف والتنعم ، ثم انهم قصروا المناصب الكبيرة على أقاربهم أو من على شاكلتهم من الأشراف . فأصبحت حال الطبقات الأخرى سيئة جداً ، لسوء أعمال طبقة الأشراف ، ولانتشار الرقيق انتشاراً عظيماً لكثرة أسرى الحروب العديدة التى نمت بها أملاك الدولة . فكان هؤلاء الأسرى يُسخَّرون فى زراعة الأرض فيرخص بذلك المحصول فلا يستطيع

المزارع الحرّ الصغير استدامة زراعة أرضه ، لأن المـال الذى يكتسبه منها أصبح لا يفى بحاجه ، فانتشر الفقر فى البلاد بين الطبقات الدنيـا وأصبح كثير من الناس اعطالاً ، وهرعوا الى مدينـة رومية ليعيشوا من السؤال وتبرعات الأشراف . ولم تُوفَّق حكومة الجمهورية الى حسن ادارة تلك الأملاك الشاسعة ، وعجزت عن سن النظام الكفيل بذلك ، فأدَّت هذه الحال السيئة بالطبع الى القلاقل والفتن بالرغم من مساعى المصلحين ، ووقعت البلاد فى حروب داخلية استمرت مدة طويلة . وقد ساعد على ذلك ما قام من المنافسة بين كبار قوّاد الجيش ، فان الواحد منهم كان اذا عاد من غزوة منتصراً عمل على نزع السلطة من غيره وجمعها فى يده ، فمن ذلك ان «مَرْيوس» تمكن بفضل انتصاراتهِ بين سنتى ١١٣ و ٩٠ ق . م . من تقلّد منصب القنصلية سبع مرات ، ثم قام قائد آخر يدعى « سِلاَّ » وقاومه حتى أخرجه من « رومية » ، ولما عاد هو منتصراً من حروبه بآسيا الصغرى سنة ٨٢ ق . م . نُصِب « دِكْتاتورا » * على الدوام

الحروب الداخلية

ومن ذلك أيضاً ان « بومبى » لما تم له صدّ غارة داخلية فى اسبانيـا وأخمد ثورة كان قد قام بها المصارعون فى رومية جُعل قنصلاً سنة ٧٠ ق . م . ولما عاد من فتوحه العظيمة فى الشرق سنة ٦١ ق . م . اتفق مع اثنين آخرين من القواد وهما « يُوليُوس قَيْصَر » و « كِرَاسُوس » على ان يغتصبوا السلطة من الجمهورية تدريجاً ويقسموها بينهم ، فظفر كل منهم بمأربه . ويُعرف ذلك « بالحـكومة الثلاثية الأولى » . وبعد قليل مات كراسوس فبقيت السلطة للاثنين الآخرين . وكان « قيصر » قد أُعطِىَ القيادةَ فى بلاد الغال

الحكومة الثلاثية الاولى

* ومعناه صاحب الكلمة المطلقة

فقضى فى فتحها من سنة ٥٨ الى سنة ٥١ ق . م . حتى أخضع أهلها ، ونشر بينهم الحضارة الرومانية . وكان « بُومبى » قد أُعطِىَ حكمَ اسبانيا ، فأناب عنهُ من يحكمها ، وبقى هو برومية يبغى القبض على زمام الأمور بها ، حتى نُصِّب بعدُ قنصلاً . ولما خشى من ازدياد شوكة « قيصر » عمل بالاتحاد مع رجال السناتو على سلب السلطة منهُ ولكن « قيصر » لم يكن بالرجل الذى يُغلَب على أمره ، بل كان من أعاظم رجال التاريخ قيادةً وسياسةً وبلاغة ، فهجم قيصر بجيشه بغتة على ايطاليا فاستولى عليها فى ستين يوماً . ثم قهر قواد بومبى فى اسبانيا سنة ٥٢ ق . م . وفى السنة التالية تبع بومبى الى بلاد اليونان فهزمه فى واقعة «فَرْساليا» (سنة ٤٨ ق . م .) ثم فرّ « بومبى » الى مصر فتبعه اليها بعد ان بدّد شمل جيشه ، فكان من أمر قتله ما كان مما سيأتى ذكره عند الكلام على انقراض دولة البطالسة .

يوليوس قيصر وبومبى



(يوليوس قيصر)
عن تمثال بدار آثار الاسكندرية
رسم محمد افندى على سعودى

واقعة فرساليا سنة ٤٨ ق م

ثم تغلب قيصر على الحزب الموالى لبومبى . وما زال يجمع لنفسه من النفوذ والسلطان بمهارته وحسن سياسته حتى قبض على جميع الأعمال فى رومية وصار أشبه بملك منفرد بالحكم ، وهو بلا شك كان ينوى تأسيس أُسرة ملكية يتناول فيها الحكم الولد عن أبيهِ . وقد سلك سبيل الإصلاح باذلاً ما فى وسعه لتوطيد السكينة فى البلاد ، غير أن فئة من المحافظين لم يَرُق

ذلك فى أعينهم واتهموه بأنهُ يعمل على استعباد الرومان، فألَّفوا منهم عصابة سرية بزعامة «بُرُوتوس» وقتلوه فى منتصف شهر مارس سنة ٤٤ ق.م على أن زعماء هذه الحركة لم يجنوا فائدة من وراء فعلتهم، بل أضرموا بذلك حرباً داخلية أخرى، فنقم عليهم ثلاثة من القواد المنتصرين لقيصر وهم «أُكْتافيوس» (وكان من أسرة يوليوس قيصر) و «لِبِيدوس» و «أَنْطُونيوس» (انطوان) وكوّنوا منهم «الحكومة الثلاثية الثانية» وقهروا الثائرين فى موقعة «فِلِبّى» (بمقدونية) سنة ٤٢ ق.م. ثم فصل لبيدوس منهم وبقى الحكم فى أيدى أكتافيوس وأنطونيوس. ثم وقع بين هذين من التنازع ما أفضى أخيراً الى واقعة «أكْتِيُوم» سنة ٣١ ق.م. التى كانت نتيجتها انتصار أُكتافيوس واستيلاء الرومان على مصر جملةً

قتل قيصر

الحكومة الثلاثية الثانية

واقعة فلبى سنة ٤٢ ق م

الفصل الرابع

علاقة الرومان بالبطالسة

ما كادت دولة «الرومان» تظهر بين ممالك الأرض حتى أخذت العلائق تنشأ بينها وبين دولة البطالسة فى مصر، ولبثت بين الدولتين مدة طويلة من أيام مجد البطالسة الى انقراضهم تقلَّبت أثناءها فى عدة أطوار: ابتدأت بمصادقة الرومان للبطالسة، ثم انتقلت الى حمايتهم لهم، ثم السيطرة عليهم، ثم انتهت باستيلائهم على مصر. ويُلخص سير هذه العلائق من مبدئها فيما يأتى: —

ابتدأت العلائق بين الدولتين بإرسال «بطليموس الثانى» وفداً

بطليموس الثانى يخطب ود الرومان

الى « رومية » ليخطب ودّهـا (فـكأنه كان يعرف ما لها من المستقبل العظيم) . فقبلت رومية صداقة مصر ، ومن ذلك الحين كثرت التجارة بين ايطاليا والاسكندرية

ثم أخذت هذه العلاقة تتدرّج فى أطوار جديدة بدخول ملوك البطالسة في طور الضعف والاضمحلال : ففى سنـة ١٧٣ ق . م. أراد « أنطِيُوخُوس » ملك سورية الاستيلاء على مصر استخفافاً ببطليموس « السابع » الذى لم يتجاوز سنّه اذ ذاك الخامسة عشرة ، فحاصر « أنطيوخوس » مدينة الاسكندرية . فتدخّل الرومان فى الأمر وثبّتوا « بطليموس » فى عرشه وردّوا « أنطيوخوس » الى بلاده . ثم ان « بطليموس » هذا طرده

الرومان يحمون بطليموس السابع

أخ له من مصر بعد ذلك ببضع سنين . فذهب الى « رومية » فى حالة رثّة يطلب المعونة ، فاتفق مجلس « السناتو » على أن يعاد الى « بطليموس » ملك مصر وأن يُعْطى أخوه « برقة » ، فرضى الأخوان بهذا الحكم احتراماً لرومية ، وان لم ينطبق تماماً على رغبة كِلَيهما

يطلبون مشاركة مصر لهم فى الحرب

وفى عهـد « بطليموس التاسع » حضر القائد الرومانى « شِبْيون الإفريقى » الى مصر لمشاهدتها واختبار أحوالها، فقوبل بترحاب كبير، وان كانت زيارته لم تأتِ بنتيجة معينة. كذلك أرسل « سِلاَّ » سفيراً سنة ٨٧ ق. م. ليطلب من « بطليموس العاشر » مساعدة الجمهورية فى الحروب الكثيرة التى كانت اذ ذاك قائمة بها ، فلم يجب « بطليموس » ملتمسه ، وإن كان قد أكرم سفيره اكراماً كبيراً

رومية تؤيد بطليموس الثالث عشر

وفى سنة ٨١ ق . م قام « بطليموس الثالث عشر » مطالباً بالملك بدون أن يكون له حق ظاهر فيهِ ، وكانت شوكة « الرومان » حينئذٍ قد قويت

فأصبح الذى يطالب بالملك يضمنهُ متى عزَّزتهُ رومية . فرشا رجالهـا بمال كثير ففاز بالحكم مدة من الزمان ، وإن كان « يوليوس قيصر » قد حاول أن يحظى بمصر لنفسه

ثم قام المصريون أنفسهم ونفوا « بطليموس الثالث عشر » من البلاد ، فشُغل الرومان بشأنه وخطب خطيبهم « شِيشِرُون » مدافعاً عنهُ واقترح إعادة الملك اليـهِ ، فأرسل « بُومْبى » وحاكم سورية الرومانى جيشاً لتنفيذ ذلك ، فهزموا الجيوش المصرية وأعادوا بطليموس الى عرشه . فكان ذلك من اكبر مظاهر قوَّة « رومية » ومقدار ما وصل اليهِ نفوذها فى مصر حتى بات ملوك مصر لا يأمنون على ملكهم بدونها

ارسال صورة من وصيته الى رومية

وعند وفاة « بطليموس الثالث عشر » سنة ٥١ ق . م أوصى بأن تخلفهُ فى الملك ابنته « كِيلْيُو بَطْرَة* » ، وحفظ صورة مختومة من هذه الوصية فى مصر وأرسل صورة أُخرى الىْ « رومية » حِرصاً على تنفيذها بعد مماته

وفى أيام « كليو بطرة » تمَّ استيلاء الرومان جملةً على مصر ، فأصبحت ولاية رومانية كما سيأتى بيانه :

﴿ كليو بطرة ﴾

« تولت « كليو بطرة » الملك بعد وفاة أبيهـا سنة ٥١ ق . م وكان سنها إذ ذاك ١٦ سنة ، فأشركت معها فى الملك أخاها بطليموس الرابع عشر طبقاً لوصية أبيها . ولكن بعد مضى أربع سنوات عليها أوعز الأوصياء

* بعض المؤرخين يُسميها كليو بطرة السادسة والآخر يقول انها السابعة ، وقد اطلنا الكلام عليها نوعاً للشهرة التى نالتها فى عالم التاريخ والروايات

الى أخيها بأن ينفرد بالملك ، وكان قد بلغ إذ ذاك ١٤ سنة فسمع لهم . ولما لم تقدر كليو بطرة على اضطهاد الشعب لها ذهبت الى سورية وجمعت جيشاً في بضعة أشهر وعادت الى مصر سنه ٤٨ ق . م لتسترد عرشها . فتقابل جيشها مع جيش أخيها على الحدود ، وعند ذلك وصل « يوليوس قيصر » الى مصر فصرف كلٌّ من المتحاربين جيشه ورفعا أمرهما الى قيصر

قيصر يحكم بين كليو بطرة وأخيها



(كليو بطرة)
عن تمثال بدار آثار الاسكندرية
رسم محمد افندى على سعودى

وكانت كليو بطرة ذات جمال وافر ورشاقة بديعة . وكانت على جانب عظيم من الدهاء والفطنة ، ولها المام بلغات عديدة واطلاع واسع في الأدب ، فأثّر كل ذلك في قيصر ، وقرر أن تتولى الحكم مع أخيها وأن تتزوّج بهِ طبقاً لعادة الكثير من الملوك المصريين

وكان أحد القواد المصريين قد قام وقتئذٍ لإخراج قيصر من مصر وبَغتَهُ بالاسكندرية بجيش كبير . ولم يكن قيصر على تمام الأهبة فاضطر لإحراق أسطوله خشية أن يقع في يد المصريين . ويقال ان مكتبة الاسكندرية أُحرقت أيضاً بهذا السبب . ثم استمر القتال طويلاً بين قيصر

والقائد المصرى ، ولما وصل الى قيصر المدد تمكن من التغلب على الجيوش المصرية ، وفى احدى هذه الوقائع غرق بطليموس

وبعد انتهاء الحرب صفح قيصر عن المصريين ، وغادر البلاد بعد أن ترك فيها حامية برياسة أحد قواده . وأمر بأن يتولى الحكم مع كليوبطرة أخوها الثانى ، وسماه بطليموس الخامس عشر وزوّجه بها

وعند ذلك خشيت كليوبطرة أن يضيع نفوذها وسلطانها على قيصر بمضى الزمن فتبعته الى « رومية » حيث أُعدّ لها قصر عاشت فيه لحين قتل قيصر فى سنة ٤٤ ق . م . فعادت الى مصر بعد أن توفى أخوها (وزوجها) فى رومية فى نفس السنة التى قتل فيها قيصر

كليوبطرة وأنطونيوس

ولما تنازع قواد قيصر بعد مماته كان النصر لأنطونيوس واكتافيوس اللذين أمدت كليوبطرة خصمهما . فاستدعاها أنطونيوس اليه لتجيب عن عملها . وكان إذ ذاك بجهة «طَرَسُوس» بمقاطعة « كيليكيا » ، فذهبت اليه فى سفينة فاخرة ، جمعت فيها من أنواع الزينة والزخرف وآلات الطرب والخدم والحاشية ما يذهب بالألباب . فوقعت مقابلتها لأنطونيوس فى قلبه موقع السهام ، فأفقدته كل إرادته وصيّرتهُ خاضعاً لها الى آخر أيام حياته ، فصفح عنها وذهب معها الى الاسكندرية حيث عاش فى لهو ولعب وترك كل واجباته العسكرية . ولما رأى « اكتافيوس » أن انطونيوس منصرف عن أخته التى كان قد زوّجهُ بها ، وأن انقطاعه لكليوبطرة أنساه كل شىء ، أثار عليه الشعب الرومانى ، وأعلن اكتافيوس الحرب على كليوبطرة ، فخرج كل من انطونيوس وكليوبطرة للقتال (سنة ٣٠ ق . م) . وكانت كليوبطرة تقود أسطولها بنفسها ، ولكنها لما رأت أنها ستُغلب على



(كليو بطرة)
كما رسمت على الآثار المصرية

أمرها بالقرب من أكْتيُوم (غربى بلاد اليونان) رجعت باسطولهـا الى الاسكندرية وادعت انها الغالبة

واقعة اكتيوم سنة ٣٠ ق ٠ م

عنـد ذلك أدركت كليو بطرة أن نجم انطونيوس قد أفل ، وخشيت أن تقع فريسة فى يد «اكتافيوس» ، فحاولت التغلب عليهِ بالحيلة والدهاء ، فلم تفلح ، فصممت على قتل نفسهـا وأرسلت الى انطونيوس تخبره بذلك. فظن انهـا انتحرت بالفعل ، فطعن نفسه بمدية . ولما أُخبر انهـا ما زالت على قيد الحياة طلب أن يُحمل اليهـا وهو على تلك الحالة ، فمات عندها ودفنته باحتفال عظيم

ولما اشتد خوفها من «اكتافيوس» همَّت بقتل نفسها فوضعت حيَّة على صدرها لدغتها فماتت

معبد دندرة

ومن أهم آثارها « معبد دَنْدَرَة » : أسسته هى وزِيدَ فيهِ بعدها ، وما زال حافظاً لشكله ورونقه كما ذكرنا



معبد دندره من الداخل (رسم لسكجيان)

وبهلاك كليو بطرة انتهت أُسرة البطالسة في مصر بعد أن حكموا نحو ٣٠٠ سنة ، وصارت البلاد من بعدهم جزءاً من الامبراطورية الرومانية

الفصل الخامس

كلمة في الامبراطورية الرومانية

قبض اكتافيوس على زمام الدولة الرومانيـة فنهج منهج الحكمة والاعتدال . ولم يظهر بمظهر الملوك خشية أن يثور عليهِ الرومان كما ثاروا على يوليوس قيصر من قبل ، فلم يغيّر شيئاً من نظام الحكومة الظاهر ، ولكنهُ في الحقيقـة أخذ يجمع السلطة في يده بالتدريج حتى صار هو القابض على كل شيء بدون أن يُثير عليهِ أحداً . وقد لُقب بلقب «إمبِراطُور»* و «أُغسْطُس» ، فكان حكمه مبدأ حكومة الامبراطورية ومنتهى أيام الجمهورية

أغسطس وزهاء عصره

وحكم أُغسطس ٤٤ سنة كانت من أزهى عصور الرومان ، فساد فيها السلم وارتقت العلوم والآداب وظهر الكثير من نبغاء الكتّاب والمؤلفين ، فمن ذلك « فِرجيل » و « هُورَاس » و « أُوفِيد » الشعراء و « لِيفى » المؤرخ الشهير

نيرون

ثم استمرت الحكومة الامبراطورية بعد عهد أُغسطس . واستولى عليها عدة امبراطورين الواحد بعد الآخر ، منهم العادل والظالم ومنهم القوى والضعيف . وآخر من استولى على الملك من أسرة أغسطس (أى من نسل

* ومعناه القائد

يوليوس قيصر) هو « نيرون » الذى اشتهر بالظلم والقسوة والاستبداد . ومما يُنسب اليـهِ أنهُ أحرق مدينة رومية . واتفق المؤرخون على أنهُ يوم إحراقها كان يشاهد النيران تأكل المدينة وأهلها فيسر بهذا المنظر، كأنهُ ينظر الى رواية تمثل فى ملهى من الملاهى

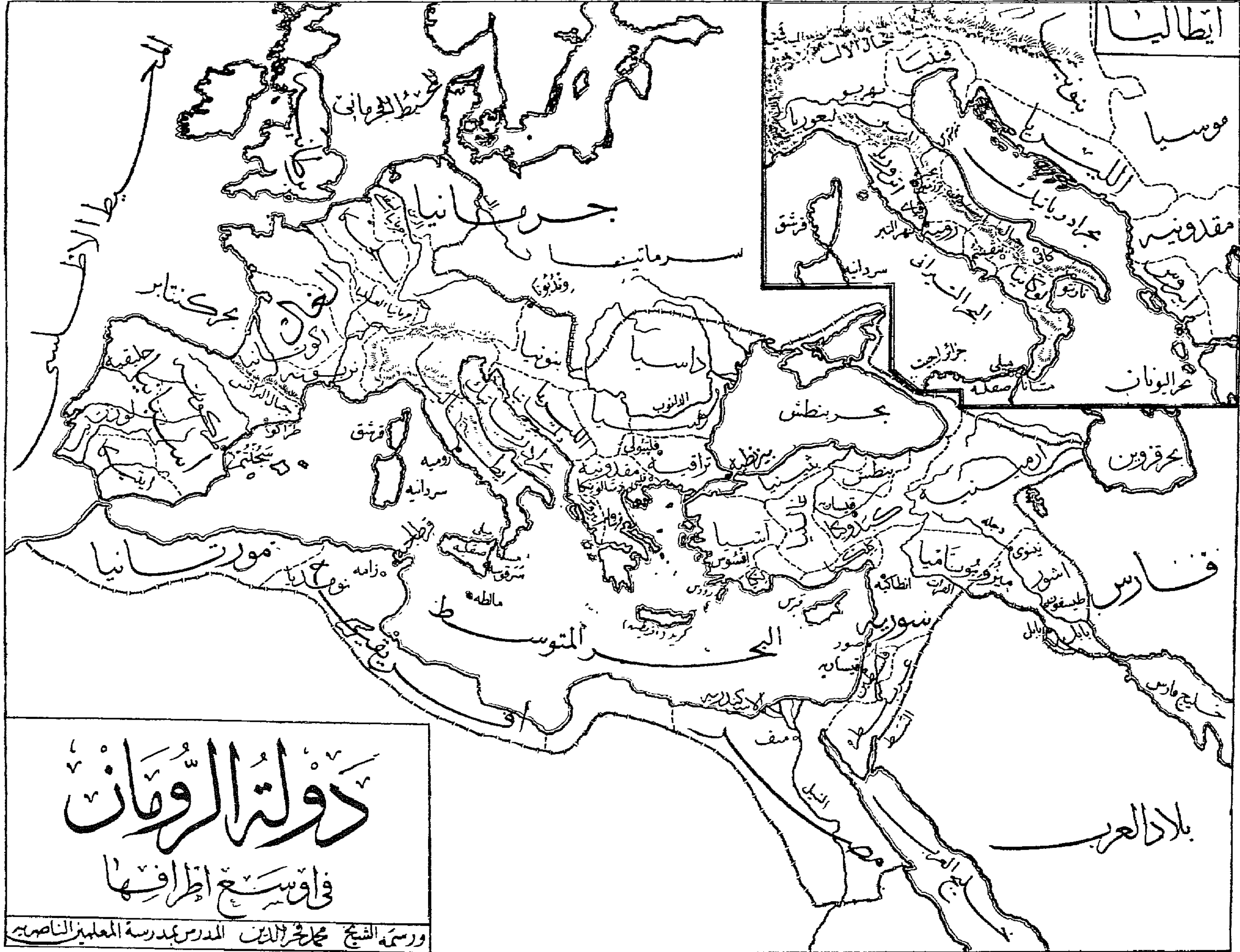
تراجان

ومن أشهر الملوك الذين تولوا الملك بعده الامبراطور « تِرَاجان » (٩٨ — ١١٧ م) وفى مدته بلغت أملاك الرومان أبعد مدى وصلت اليهِ، فكانت الدولة الرومانية تمتد من نهر الفرات شرقاً الى شواطئ المحيط الأتلنتى غرباً ، ومن شمال انجلترة شمالاً الى مدار السرطان جنوباً ، وقد قدرت أراضى هذه الدولة الشاسعة بما يزيد على ١٫٦٠٠٫٠٠٠ ميل مربع معظمها من أعمر الأرض وأخصبها

بلغت الدولة الرومانية نهاية كمالها ، ولكن علة الهرم كانت قد دبَّتْ فيها من قبل ، فأخذت الأمم البربرية ولا سيما الألمانية منها تكثر من غاراتها على الحدود الشمالية . وحقاً أخذت الدولة فى التقهقر بعد سنة ١٨٠ ميلادية ، ولم يؤجل سقوطها النهائى الاَّ ظهور بعض الامبراطورين المصلحين الذين كانوا يسكّنون باصلاحهم تيَّار الاضمحلال من آن لآخر.

دقلديانوس واصلاحاته

ومن أشهر المصلحين الذين ظهروا فيها اذ ذاك الامبراطور «دِقْلِدْيَانُوس» (٢٨٤ — ٣٠٥ م) . ومن اصلاحاتهِ أنهُ قسم الدولة الى أربعة أقسام لاتساعها الشاسع ، فولى كلاًّ منها أميراً ورأس بنفسه أحد الأقسام . فأحدث هذا النظام اصلاحاً فى هيئة الحكومة ، وان لم يدم نفعه طويلاً ، فبعد أن توفى دقلديانوس اشتدَّ النزاع بين الحكام ، فأفضى ذلك الى حروب داخلية انتهت بغلبة « قُسْطَنْطِين » الأكبر على الجميع . فانفرد



دولة الرومان
في اوسع اطرافها
ورسمه الشيخ محمد فخر الدين المدرس بمدرسة المعلمين الناصرية
ايطاليا
موسيا
مقدونيه
بحر اليونان
بحر ادريانيا
البحر التيراني
سردانيه
قرشق
جرمانيا
سرماتيا
داسيا
بنونيا
بحر بنطس
بحر قزوين
ارمينيه
قارس
بلاد العرب
سوريه
البحر المتوسط
موريتانيا
آسيا
بنطس
ترافية
مقدونية
بيزنطية
فلبوبولي
انطاكيه
سور
مالطه
رومه
قرشق
زامه
نوميديا
افسوس
منف
النيل
مصر
بحر كنتابر
المحيط الجرماني
دجله
نينوى
اشور
بابل
طيسفون
خليج فارس

جعل المسيحية الديانة الرسمية

قسطنطين الأكبر (٣٢٣ — ٣٣٧م) بالملك ، ولكنه حافظ على باقى اصلاحات دقلديانوس . ومن أعماله أنهُ جعل المسيحية الديانة الرسمية للبلاد فكان بذلك أعظم نصير لها فى الأرض منذ وُجدت ، وان كان لم يحرّم الوثنية

﴿ نقل العاصمة الى القسطنطينية ﴾

ومن أعمال قسطنطين أيضاً أنهُ نقل عاصمة الدولة من رومية الى « بُوزنْطِيَة » على شواطئ البسفور . وهذه المدينة قديمة ، أسسها نزلاء الإغريق فى منتصف القرن السابع قبل الميلاد ، ثم تقلبت فى عدة أطوار كانت فيها خاضعة للإغريق إلى أن استولى عليها الرومان ، فبقيت تابعة لهم إلى أن أعجب قسطنطين مناعة موقعها وصلاحيته للتجارة ، فنقل عاصمة الدولة الرومانية اليها سنة ٣٣٠ م ، وسُميت من ذلك الحين بالقسطنطينية تنسبة الى قسطنطين الأكبر

نتائج نقل العاصمة الى القسطنطينية

وقد كان لنقل العاصمة الى القسطنطينية عدة تأثيرات فى الدولة : منها ان الدولة أخذت تظهر عليها المَسْحة الإغريقية لانطباع هذه المسحة في العاصمة الجديدة من مدة طويلة ، وما زالت تتأثر بذلك شيئاً فشيئاً حتى حلّت اللغة الإغريقية محل اللاتينية وصارت اللغة الرسمية للدولة . ومنها أن نقْل قوة الدولة الى الشرق حمى الشرق من غزوات الأمم المتبربرة وسهل عليهم غزو الجهات الغربية . ومنها أن مدينة رومية لما هجرها الامبراطور نظرت الى « البابا » (الرئيس الدينى) نظرة الممثل لها ، ومن ذلك العهد ابتدأ نمو سلطة البابويّة

الدولتان الغربية والشرقية

وبعد وفاة قسطنطين قُسمت الدولة بين أولاده الثلاثة ، ثم اتحدت بعد ، ثم انقسمت مرة أخرى ، إلى أن تمّ تقسيمها النهائى سنة ٣٩٥ م الى قسمين ، الدولة الغربية وعاصمتها رومية ، والدولة الشرقية وعاصمتها القسطنطينية — وقد استمرت الدولة الشرقية بعد ذلك نحو ١٠٠٠ سنة تمكنت فيها بفضل مناعة موقعها من رد غارات الأمم المتبربرة الأوربية من القوط والسِّلاف وغيرهم كما صدت غارات الفرس والعرب ، ولكنها لم تستطع الدفاع عن معظم أملاكها ، فنزع العرب من يدها شرقى آسيا الصغرى وسورية وفلسطين ومصر وبرقة وافريقية وجزائر البحر الأبيض الشرقية ، وابتدأ ذلك من سنة ٦٢٢ فى عهد القيصر «هِرَقْل» . ثم بقيت فى نزاع مستمر مع العرب وأمم أوربا ثم مع الترك حتى أزالها من الوجود الفاتح الأعظم السلطان محمد الثانى بفتحه مدينة القسطنطينية سنة ١٤٥٣م. فأصبحت من ذلك الوقت حاضرة لملك سلاطين آل عثمان الى وقتنا هذا

سقوط الدولة الشرقية سنة ١٤٥٣ م

سقوط الدولة الغربية سنة ٤٧٦ م

أما الدولة الغربية فلم تعمر طويلاً ، اذ كثرت غارات الأمم المتبربرة عليها واستولوا شيئاً فشيئاً على أملاكها . وأخذت قوة امبراطورها فى الضعف حتى كادت تكون اسمية فقط ، وفى سنة ٤٧٦ اغتصب «أُوذوَكْر» زعيم القوط ما بقى من القوة فى يد « روميليوس أُغُسْطليوس » الامبراطور الرومانى ، وبذا سقطت الدولة الرومانية الغربية

الفصل السادس

مصر في عهد الرومان

استولى أُغسطس على مصر سنة ٣٠ ق م . فكانت ثمرة انتصاره. ولذلك اعتبرها جزءًا من أملاكه الخاصة ، فمنع رجال السناتو برومية من التدخُّل فى شؤونها ، وحرّم عليهم ولاية شىء من أعمالها ، بل الرحلة اليها بدون اذن منه

اشتهار مصر بتصدير الحبوب

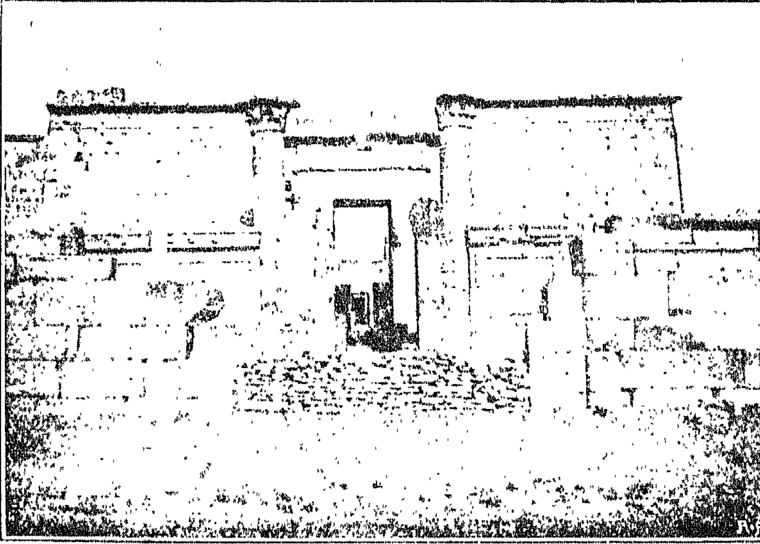
ودخلت مصر باستيلاء الرومان عليها فى عهد خمول سياسى طويل امتد نحو ٦٧٠ سنة (من ٣٠ ق م الى ٦٤١ م) لم يكن لها فيه شىء يذكر فى التاريخ ، بل كانت بمثابة حَقْل لإنتاج الحبوب وتصديرها إلى رومية لسدّ أهم جزء من الخراج

المبانى والفنون الجميلة

كذلك نقص فيه تشييد المبانى العظيمة من هياكل وغيرها ، ولاسيما ما كان منها على الطراز المصرى القديم ، فإنهُ بعد أن أقام الرومان على هذا النمط بضعة من المعابد الصغيرة ، وشيدوا اجزاء جديدة فى بعض القديمة مثل معابد « مدينة آبو »* و « فيلة » و « دَندَرَة » و « قِفْط » وغيرها ، أخذوا يشيدون المبانى على الطراز الإغريقى أو الرومانى . ولم يكن ما شيدوه من هذا النوع أيضاً بالكثير لِما أصاب البلاد من الفقر

---

* غربى طيبة . وقد يطلق على الأثر الذى أوردنا رسمه هنا «المعبد الرومانى» والحقيقة ان السور الخارجى والنقوش التى على قوائم الباب هى التى من عمل الرومان . اما البرجان والعمودان فمن آثار البطالسة



(المعبد الرومانى بمدينة آبو)

رسم محمد افندى على سعودى

فى أواخر أيامهم باشتداد ظلمهم وعسفهم . أما الرسم والتصوير وفن البناء ذاته فقد لحقها الاضمحلال والإنحطاط فى العصر الرومانى ، غير انهُ ظهر فى هذه الفنون نوع جديد ما بين إغريقى ومصرى وهو جميل فى بابه . (انظر شكل التابوت) . وأخذ اهمال النقوش الهيروغليفية يزداد يوماً فيوماً حتى نسيت تلك الكتابة بالمرة فى آخر العصر الرومانى ، وبقيت النقوش والكتابات الكثيرة التى على الآثار المصرية غير مقروءة الى أن حُلّت رموزها بعد العثور على حجر رشيد كما ذكرنا فى أول الكتاب

نظام الحكومة

وأما نظام الحكومة فلم يغيّر الرومان منهُ شيئاً كبيراً ، شأنهم فى الممالك التى يستولون عليها ويجدون بها حكومة منتظمة . فابقى أُغسطس معظم أنواع الأنظمة الداخلية التى اختطتها البطالسة ، ونصّب من قِبَله

والياً على البلاد ، فبقى جوهر هذا النظام متبعاً حتى انتهاء الحكم الرومانى فى مصر


(تابوت من العصر الرومانى)

وكان مقرّ الوالى مدينة الاسكندرية ، وينتقل فى أنحاء البلاد لسماع المظالم واصلاح المخاصمات وجمع الخراج والإشراف على الجيوش وعمل الاحصائيات ، وكانت المملكة مقسمة الى عدة مديريات يرأس كلاً منها مدير ، وكان للوالى مساعدان فى أول الأمر وثلاثة فيما بعد يستعين بهم فى الإشراف على إدارة أقسام مصر الثلاثة : العليا والوسطى والسفلى

وكان معظم هذا النظام متبعاً فى زمن البطالسة ، وحقاً لم يغيّر أُغسطس من نظام البلاد شيئاً يذكر سوى إلغاء مجلس مدينة الاسكندرية ، إذ أراد أن يُفهم أهلها (وكان معظمهم من الإغريق) انهُ لا ينبغى لهم أن يرتكنوا على قرابتهم من الفاتحين ، وينظروا الى أنفسهم كأنهم أرقى من باقى السكان . فألغى مجلس مدينتهم الذى كان أشبه بحكومة محليـة تدير شؤونهم ، ومنح اليهود جميع الحقوق والامتيازات التى كانوا قد اكتسبوها فى زمن البطالسة . وبذلك ساواهم بالإغريق إن لم يكن قد وضعهم فى مستوًى أرقى من مستواهم

كثرة الفتن والقلاقل الداخلية

وفى زمن الرومان كثرت الفتن والثورات الداخلية بسبب اختلاف عناصر السكان ومذاهبهم فى أنحاء مصر خصوصاً الاسكندرية. وقد تشكلت هذه الفتن والمشاحنات فى أطوار مختلفة: فكانت فى أول الأمر بين الإغريق واليهود، ثم بدخول الديانة المسيحية فى مصر فشا النزاع بين المسيحيين والوثنيين، ثم انتقل الى الطوائف المختلفة التى نشأت فى المسيحية ذاتها بتعصب الحكومة الرومانية الى فريق دون فريق

وإذ قد بيّنّا شيئاً من الحالة العامة فى مصر اثناء هذا العصر الرومانى حسن بنا أن نأتى على بعض الحوادث الهامة التى حدثت فى ذلك العصر فنقول:

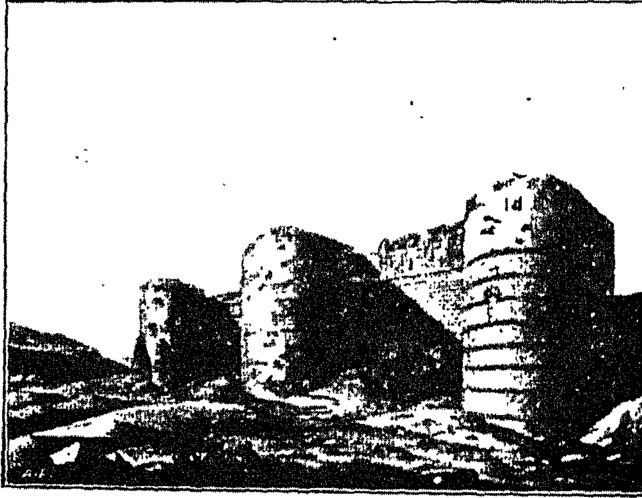
القرن الأول الاصلاح التدريجى

كان القرن الأول من العصر الرومانى (٣٠ ق. م — ٦٨ م) زمن إصلاح تدريجي فى البلاد، ففيه صُدَّت الغارات عن الحدود الجنوبية، واتسعت حركة تجارة مصر مع الهند والشرق بطريق البحر الأحمر، وزادت الزراعة (فى عصر أغسطس ثم نيرون) للاعتناء بكَرْى الترع والخُلجان التى كانت أُهملت من قبل. وقد قامت فى هذه المدة عدة ثورات بين اليهود والإغريق بالاسكندرية، أهمها ما حدث سنة ٣٨ م إذ نهب الإغريق الحىّ الاسرائيلى من المدينة، وذبحوا عدداً كبيرًا من سكانه. وانتهى الأمر باصلاح الامبراطور بين الفريقين، ولكن ما لبثت المشاحنات أن تجددت بينهما

القرن الثانى المحافظة على التقدم

أما القرن الثانى (٦٨ — ١٨٢ م) فكان معظمه عهد تقدم كبير أيضاً فى مصر، إذ أن الرقىّ الذى وصلت اليه البلاد فى أواخر القرن السالف وبلغ أقصاه فى أيام «نيرون» (على ما له من سوء السمعة) حافظ

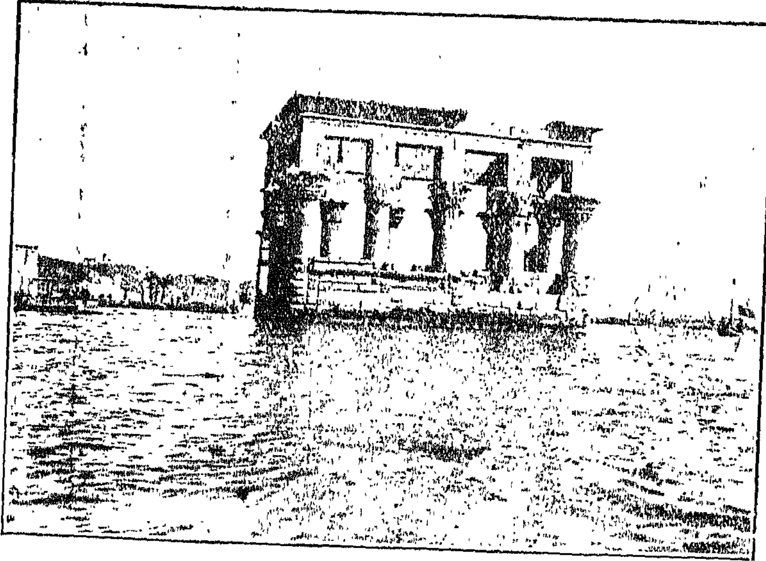
عليهِ ملوك القرن الجديد ، فظهرت نتائجه فى ثروة البلاد وراحة أهلها وتجارتها التى اتسعت فى الشرق حتى وصلت الى الصين . ومن أعظم ملوك هذا القرن الامبراطور «تراجان» (٩٨ — ١١٧ م) الذى حفر خليجاً من النيل الى البحر الأحمر لتوسيع نطاق التجارة فى الشرق . وفى مدته جُدِّد بناء حصن بابليون وهو حصن قديم لا يُعرف مؤسسه،* جدَّده تراجان على الطراز الرومانى ، ولا تزال بعض مبانيهِ باقية الى الآن بالقرب من كنيسة مارى جرجس بمصر القديمة . وهو الحصن الذى قاوم العرب مدة طويلة أثناء فتحهم لمصر



(حصن بابليون)
رسم سنة ١٧٩٨

وفى أيام تراجان تم بناء معبد فيلة وشُيدت مبان أُخرى عديدة فى أنحاء البلاد

* قيل هو من بناء الفرس



(فيلة — معبد تراجان)

رسم فزانى

عهد تراجان

وفى عهده أيضاً حدث فى البلاد قحط بسبب انخفاض شديد فى النيل ، فتداركه الامبراطور بإرسال عدة سفن من رومية الى الاسكندرية محملة بالغلال . وفى أواخر أيامه حدثت فتن كبيرة بين اليهود والإغريق قام اليهود فيها بذبح كل من وصلت اليه أيديهم من الإغريق وطاردوهم ، فالتجئوا الى مدينة الاسكندرية حيث انتقموا لأنفسهم ممن عثروا عليه من اليهود داخل المدينة . واستمر القتال بين الفريقين عدة أشهر . وانتهى الأمر بطرد اليهود الى الصحراء بعد أن سُحق معظم من كان منهم بالاسكندرية

الثورة الداخلية سنة ١٧٢

ومن أهم حوادث هذا القرن قيام ثورة داخلية فى عهد الامبراطور « مارك أوريل » (سنة ١٧٢) بدأت فى بعض فرق الجيش ثم انتشرت فى انحاء البلاد . فكانت أول شيء من نوعها فى زمن الرومان ، إذ أن

جميع الفتن التى حدثت قبل ذلك كانت قاصرة على الاسكندريين ، وكانت بين بعض الطوائف والبعض الآخر ، بخلاف هذه ، فإنها كانت على الرومان لظلمهم ، وانتشرت فى انحاء القطر . وقد لاقى الرومان مصاعب

عهد مارك اوريل

كبيرة فى إخضاع الثائرين ، ولم تُوطَّد السكينة فى البلاد إلاَّ بعد عدة سنوات . ثم ثار أحد كبار القواد الرومانيين على الامبراطور ، فحضر « مارك أوريل » بنفسه الى الشرق فأخمد الثورة وصفح عن الثائرين



(مارك أوريل)
عن تمثال بدار آثار الاسكندرية
رسم محمد افندى على سعودى

وقد كان لهاتين الثورتين تأثير سيئ فى حالة مصر ، فتأخرت الزراعة وأخذ الفقر يدبُّ فى البلاد . ومن ذلك الحين وقف التقدم الذى ابتدأ منذ دخول الرومان ، وما لبثت البلاد طويلاً بعد ذلك حتى دخلت فى طور تقهقر طويل استمر إلى أيام الامبراطور « دقلديانوس » الذى تولى الحكم سنة ٢٨٤

كراكلا

ومن أخبار ذلك العصر السيئ أن الامبراطور « كَرَاكَلاَّ » لما تولى

الملك سنة ٢١١ ، وكان ظالماً ضعيفاً ، سخر منهُ الاسكندريون وعرَّضوا باسمه فى نكاتهم وهزلهم . فأتى بنفسه الى الاسكندرية لينتقم منهم ، فجمع عدداً كبيرًا من شبانهم خارج المدينة وقتلهم . ثم أقام جداراً بالمدينة قسمها بهِ الى قسمين ، وحرَّم على سكان أحد القسمين الاختلاط بالقسم الآخر ، وأبطل الألعاب التى كان يقيمها الاسكندريون

ومن أخبار ذلك العصر أيضاً أن الامبراطور «اسكندر سَفِيرُوس» أرسل والياً الى مصر من المشاغبين المغضوب عليهم فى رومية . ومن ذلك يُعلم مقدار انحطاط منزلة مصر فى نظر الرومان حتى أصبحت منفى المذنبين

استيلاء زنوبيا على مصر

وفى سنة ٢٦٨ م أغارت زَنُوبيا[1] ملكة « تَدمُر » من شمالى بلاد العرب على الشام ومصر ودخلت البلاد بعد مقاومة شديدة من الرومان ، وساعدها على ذلك بعض قبائل « بِلِمِّى » (البُجَه)[2] . وكانت هذه القبائل كثيرة الإغارة على الحدود الجنوبية ، فظاهروا أهل تدمر لما بينهم من القرابة الجنسية ، واستولت زنوبيا على معظم البلاد المصرية أكثر من سنتين الى أن تمكن الرومان من جمع جيش كبير وأخرجوها منها

صد هجمات البجة

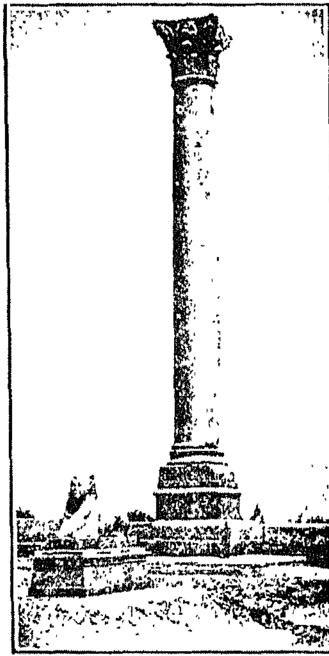
بقيت البلاد على هذا الضعف حتى أتى «دقْلِديَانُوس» المتولى سنة ٢٨٤م فنالت مصر جانباً من الاصلاحات التى قام بها فى انحاء الدولة الرومانية ، فصد هجمات البجه وغيرهم من القبائل العربية التى كانت لا تزال تغير على شرقى الصعيد ، وأقام بعض قبائل النوبة حراساً على تلك الجهات .

---

(١) هى الزبَّاء الشهيرة (٢) يقال انهم أجداد البشَّاريين الذين لا يزالون يقيمون بأعلى الصعيد

ثم أصلح مالية البلاد ونظم ضريبة الغلال من جديد ، فخصص جزءا منها لرومية وجزءا لبذر الأرض ، والثالث لأهل الاسكندرية ، إعانة لهم على ما نالهم من الفاقة بسبب كثرة الثورات والقلاقل . فعظم ذلك الجميل فى أعين الاسكندريين وقدَّروه حق قدره ، فأقاموا عموداً جميلاً بالمدينة تذكاراً لهذا الملك الشفيق ، واعترافاً بما أسداه اليهم من الجميل . ولا يزال هذا العمود بالاسكندرية ويعرف بعمود السوارى . وقد يسمى أحياناً بعمود بومبى (وهو اسم غير صحيح لا أصل له) . ومما يؤسف له أن السكينة التى سادت فى البلاد على يد دقلديانوس لم تستمر طويلاً ، بل انقلبت فى أواخر أيامه إلى اضطرابات شديدة انتشرت فى انحاء مصر بسبب اضطهاد دقلديانوس للمسيحيين . وبيان ذلك أن الدين المسيحى كان قد دخل الديار المصرية من زمن بعيد على يد « القديس مُرْقس » (والأرجح أن ذلك كان فى عهد نيرون) ، فوجد فى مصر أرضاً خصبة ، فكانت أول أرض قوى شأنه فيها ، ودخل فيه أناس كثيرون . وما زال عدد أتباعه يزداد يوماً فيوماً ، واعتقادهم فيهم يقوى شيئاً فشيئاً حتى ملك دقلديانوس . فلما رغب إلى الرعايا أن يضعوه موضع الألوهية ليضمن بذلك حياته وملكه لم يخضع

عمود السوارى



(عمود دقلديانوس)
المعروف بعمود السوارى

المسيحية فى مصر

لإرادته مسيحيو مصر ، وقاوموه مقاومة كبيرة . فاضطهدهم وعذّبهم ، فلم يزدهم ذلك إلا تمسكا بدينهم ، فذبح منهم عدداً عظيماً فى جميع أنحاء البلاد من جميع طبقات أهليها . ويقال ان من بين الذين ألح عليهم الامبراطور فى الارتداد عن النصرانية فتاة حسناء تعرف بالسيدة دِمْيانة وكانت رئيسة لدير بجهة بلقاس ، فلم تسمع له ، فعذبها ، ثم أمر بذبحها ، وما زال قبرها بتلك الجهة مقدساً إلى الآن يزوره الأقباط كل عام . وقد ترك عصر دقلديانوس أثراً كبيراً فى نفوس الأقباط حتى أنهم سمّوه « بعصر الشهداء » ، وجعلوا أوله (سنة ٢٨٤ م) مبدأً لتقويمهم يحسبون منه السنين والأيام

عصر الشهداء

أضاعت هذه الاضطرابات ثمرة ما أصلحه دقلديانوس . وبقى المسيحيون فى اضطهاد حتى تولى الملك قسطنطين وجعل النصرانية الديانة الرسمية للدولة . فكان يُظن أن البلاد تتقدم فى عهده كثيراً ، ولكن ما كادت تستقر قدمه فى الملك حتى ظهر فى مصر الخلاف بين الطوائف المسيحية المختلفة ، واستفحل أمره شيئاً فشيئاً بسبب تعصب ملوك بوزنطية لمذهب الأقلّية وعدم احترامهم لمذهب الأغلبية ، اذ كانت لهم بمصر طائفة مسيحية من الروم تؤيدها الحكومة تسمى بالطائفة الملكانية ، مع أن السواد الأعظم من المصريين كانوا تابعين لطائفة أخرى تدعى اليعقوبية ، وكانوا يلاقون من الروم اضطهاداً كثيراً فزادت كراهتهم لحكم الرومان وسهل عليهم فى القرن السابع بعد الميلاد الاستسلام لحكم الفرس ، ثم الترحيب بالعرب كما سيأتى بيانه

الملكانية واليعقوبية

وفى عهد قسطنطين ظهرت الرّهْبَنة فى المسيحية لأوّل مرة ، فكان

ذلك مبدأ تأسيس الأديرة التى عظم شأنهـا فى القرون الوسطى بأوربا وكان لها اكبر أثر فيها . وراجت فى مصر الرهبنة والأديرة رواجاً كبيرًا حتى ان الحكومة اعترفت ببعض الأديرة بعد ذلك بنصف قرن ، وسمحت بأن تكون لها أملاك خاصة بها . وانتظم كثير من الناس فى سلك الأديرة هروباً من الخدمة العسكرية وفراراً من الضرائب الباهظة ، وزاد ذلك حتى كاد يؤثر فى حالة الحكومة

الاديرة فى مصر

﴿ استياء المصريين فى عهد الدولة الرومانية الشرقية ﴾

كانت مصر فى العهد الأخير من الحكم الرومانى فى حالة بؤس شديد وفقر مُدْقِع ، تزداد حالها تَعَساً على تعس منذ عهد نيرون . اللهمّ الاّ فترة قصيرة فى عهد دقلديانوس رجعت بعدها الى ما كانت عليهِ من التدهور المستمر ، فأصبح الأهلون بمثابة آلات لإنبات القمح ، وقدكادت زراعته تكون هى الحرفة الوحيدة فى البلاد إذ ذاك . ثم صارت الثروة قاصرة على أفراد قليلة ، وكثيرًا ما كانت القرية الواحدة بأكلهـا فى قبضة رجل واحد من الأثرياء ، مما قتل نفوس العباد ، وقضى على حياتهم الأدبية * ومن الأسباب التى ساعدت على استياء المصريين ما يأتى :

أولاً — زيادة الضرائب زيادة فاحشة ، حتى أصبح كل شىء تقريباً لا يخلو من ضريبة مفروضة عليه

ثانياً — تعصب الحكومة فى آخر العهد للإغريق وإيثارهم بكل منفعة ، مع أنهم ليسوا إلا عدداً قليلاً لا يمثل الأمة تمثيل القبط الوطنيين

ثالثاً — قصر كثير من المناصب على بعض الأسرات المثرية وجعلها وراثية فيها

رابعاً — حكم الدولة لمصر بسياسة القهر والسلاح وعدم استجلابها محبة الأهلين

خامساً — عدم استتباب الأمن فى البلاد ، كما يُعلم من أوراق البردى الكثيرة المملوءة بشكاوى أهل ذلك العصر من حوادث السرقة والنهب والاعتداء

دخول الفرس فى مصر

وفى سنة ٦١٠ استولى الامبراطور « هِرِقْل » على عرش الروم ، وفى أيامه توغّل الفرس فى أملاك الدولة الرومانية ، فأغاروا على سورية واستولوا على دمشق وبيت المقدس سنة ٦١٥ م . ثم زحفوا على مصر وفتحوا الاسكندرية سنة ٦١٧ م . وكان هرقل كبير النفس عالى الهمة ، فأثار

نهضة هرقل

نهضة قوية جديدة على الفرس أدّت الى انتصار الروم ، ولم تأت سنة ٦٢٨م حتى نكص الفرس على أعقابهم ، وساق هرقل جيوشه الى قصر كسرى فأحرقوه * . وعند ذلك اضطر الفرس الى الانسحاب من مصر . فعاد اليها الرومان ، غير أن العيش لم يطب لهم فيها طويلاً ، فاستولى عليها العرب سنة ٦٤١ م بقيادة البطل العظيم عمرو بن العاص ، كما سيأتى بيانه ان شاء الله تعالى

---

* هذه هى الحوادث التى نزلت فيها الآية الشريفة « أَلَم غُلِبَتْ الرُّومُ فِى أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فى بِضْعِ سِنِين » . وكان ذلك من معجزات النبى صلى الله عليه وسلم

ملخص

أهم الحوادث التاريخية من عهد دخول الفرس فى مصر الى ان فتحها العرب

مصر	التاريخ ق٠م	البلاد الأجنبية
	٥٥٠	تأسيس «كورش» لدولة فارس واستيلاؤه على «ميديا»
	٥٤٦	استيلاؤه على «ليديا» ومعظم المدن الاغريقية باسيا الصغرى
	٥٣٨	استيلاؤه على بابل
استيلاء الفرس على مصر بقيادة ملكهم «قمبيز»	٥٢٥	
قدوم دارا الأول الى مصر وقيامه باصلاحات كثيرة	٥٢١ — ٤٨٦	حكم دارا الأول ملك فارس
	٥١٠	طرد آخر ملك من ملوك رومية الأقدمين
	٤٩٤	مهاجرة البلبيان من رومية
	٤٩٠	واقعة مرتون بين الفرس والاغريق
اخراج الفرس من مصر	٤٨٦	
	٤٨٥ — ٤٦٥	حكم اجزرسيس الأول ملك فارس
رجوع الفرس الى مصر	٤٨٥	
	٤٨٠	واقعة ترموبيل وواقعة سلاميس
	٤٧٩	صد الفرس جملة عن بلاد الاغريق
	٤٨٠ — ٤٣٠	عصر بركليس
محاولة المصريين أن يطردوا الفرس	٤٦٥ — ٤٢٥	حكم ارتجزرسيس الأول ملك فارس
استمرار فى العمل على طرد الفرس	٤٣١ — ٤٠٤	حروب بلوبونيز
	٤٢٥ — ٤٠٤	حكم اجزرسيس الثانى ودارا الثانى
طرد الفرس من مصر لثانى مرة	٤٠٥	
	٣٩٦	استيلاء الرومان على فياى
	٣٩٠	اغارة الغاليين على رومية
دخول الفرس مصر لثالث مرة وانقراض دولة الفراعنة	٣٤٠	
	٣٣٣	قهر الاسكندر الفرس فى واقعة اسوس

مصر	التاريخ ق٠م	البلاد الأجنبية
دخول الاسكندر مصر وتأسيس مدينة الاسكندرية	٣٣٢	
	٣٣١	قهر الاسكندر الفرس فى واقعة اربل
عهد البطالسة فى مصر : ٢٩٢ سنة	٣٢٣—٣١	
(١) بطليموس الاول : غزو فينيقية وجزء من سورية والاستيلاء على بيت المقدس لقب بلقب «ملك» — نظم البلاد ووسع الاسكندرية	٣٢٣—٢٨٥	
(٢) بطليموس الثانى : جدد الخليج القديم بين النيل والبحر الأحمر وجدد وادى الحمامات — راجت التجارة وارتقت العلوم والمعارف — عظم مكتبة الاسكندرية ودار تحفها — يخطب ود رومية (٢٧٣)	٢٨٥—٢٤٧	حرب رومية مع «بيروس» (٢٨٠—٢٧٥) — سقوط «تارنتو» فى أيدى الرومان (٢٧٢ ق٠م)
(٣) بطليموس الثالث : الاستيلاء على قيرنيقية (برقة) وجميع سورية حتى نهر الفرات — استرد السوريون الأجزاء الشرقية — اخضاع بلاد النوبة — تشييد مبان عظيمة (معبد أدفو)	٢٤٦—٢٢٢	
اضمحلال البطالسة (٢٢٠ — ٣١ ق٠م)	٢٦٤— ٢٤	الحرب البونية الأولى
بسط نفوذ الرومان على البطالسة تدريجياً :	٢٦٠	واقعة ميلى
(١) تأييد الرومان لبطليموس السابع : ١٧٣	٢٥٦	انهزام ريجولوس بافريقية
(٢) استمداد الرومان لبطليموس العاشر فى حروب رومية الكثيرة : ٨٧	٢٤١	انهزام القرطاجنيين بالقرب من جزائر اجيت
(٣) تأييد الرومان لبطليموس الثالث عشر بدون حق : ٨١	٢١٨—٢٠١	الحرب البونية الثانية
(٤) ارسال بطليموس الثالث عشر صورة من وصيته بالملك عند وفاته الى رومية لتحفظ بها : ٥١		واقعة ترازيمين ٢١٧ واقعة كان ٢١٦
(٥) قيصر يفصل بين كليوبطرة وأخيها : ٤٧		واقعة متوروس ٢٠٧
(٦) واقعة اكتيوم واستيلاء الرومان على مصر : ٣١ (أو ٣٠)		واقعة زاما ٢٠٢
	١٤٩—١٤٦	الحرب البونية الثالثة — احراق قرطاجنة — انتهاء الحروب البونية وابتداء سيادة الرومان فى الغرب
	٨٨—٨٢	تنازع السلطة بين ماريوس وسلا برومية
	٨٢—٧٩	تولى سلا دكتاتوراً على الدوام

مصـــــــــر	التاريخ ق ٠ م	البلاد الأجنبية
	٨٠—٦٧	ظهور بومبى
	٦٧—٦١	ظهور يوليوس قيصر
	٦٠	الحكومة الثلاثيــة الأولى (تعيين قيصر قنصلا سنة ٥٩)
	٥٨—٥١	غزو بلاد الغال (غزو برطانية سنة ٥٥)
	٥٢	تعيين بومبى قنصلا وحده
	٤٨	واقعـة فرساليـا بين بومبى وقيصر وقتل بومبى بالاسكندرية
	٤٤	قتل قيصر برومية
	٤٣	الحكومة الثلاثية الثانية
عهد الرومان فى مصر (نحو ٦٧٠ سنة)	٣٠ق٠م–٦٤١م	وفاة نيرون ٦٨ م
تقدم فى أول العصر بلغ أقصاه فى عهد نيرون — اشتهار مصر بالحبوب وكثرة تصديرها الى رومية — كثرة الثورات والفتن بين اليهود والاغريق بالاسكندرية مثل :		
فتنة سنة ٣٨ ميلادية	٣٨ ميلادية	
دخول المسيحية مصر (فى عهد نيرون)		
عهد الامبراطور تراجان	٩٨—١١٧	
حفر الخليج بين النيل والبحر الاحمر — تجديد حصن بابليون — اتمام معبد فيلة		
قيام ثورة فى الجيش ضد الرومان لظلمهم وتأثير هذه الثورة السيئ فى تأخير الزراعة وحالة البلاد على العموم مدة طويلة	١٧٢	
اغارة زنوبيا ملكة تدمر على مصر ومساعدة قبائل البجه لها	٢٦٨	
قـدوم دقلديانوس الى مصر — اقامة عمود السوارى (عصر الشهداء سنة ٢٨٤ م)		
عصر ظلم واستبداد كثرت فيه الفتن الداخلية بسبب اختلاف طوائف المسيحية	٣٠٠—٦٤١	
دخول الفرس مصر	٦١٦	
طرد الرومان للفرس	٦٢٨	
خروج الرومان من مصر واستيلاء العرب عليها	٦٤١	

الباب الثالث
عهد الدول الاسلامية

الفصل الأول
العرب وفتوحهم

---

(١) — ﴿ العرب قبل الاسلام ﴾

العرب أمة قديمة العهد لا يزال جيلها متميزاً ولغتها حية منذ آلاف من السنين

اصل العرب وطبقاتهم

والعرب أمة سامية جلت من الشمال ، ونزلت فى أزمان بعيدة ، وعصور متفاوتة جزيرة العرب من غربى آسيا . وهم ثلاث طبقات :

(١) العرب البائدة ، من عاد وثَمُود وطَسْم وجَديس وحَضْرَمُوت والعمالقة وغيرهم . وهم سكان الجزيرة القدماء

(٢) العرب العاربة ، وهم الجالية الثانية من ولد يَعْرُب بن قَحْطان جد العرب المسمَّين بالقحطانيين ، النازلين فى الجنوب أولاً ، والمشتتين فى الوسط والشمال آخراً ، بحدوث الفتن الكثيرة بينهم وظلمهم أنفسهم وفساد مرافقهم ومزارعهم وتهدم سدود مياههم

(٣) العرب المستعربة ، من العِبرانيين ولد اسماعيل بن ابرهيم (عليهما السلام) ، وهم الجالية الثالثة النازلون أولاً فى مكة والمنتشرون بعدُ فى وسط الجزيرة وشرقيّها . وهم المسمّون بالعَدْنانيين نسبةً الى جدّهم عَدْنان ، وهو آخر عمود النسب المعلوم لهم من بنى اسماعيل . ومن شعْب قحطان وعدنان تتألف العرب

البدو والحضر

وليست العرب كلها أمة بدوية ، بل ان من نزل منهم البِقاع الخِصْبة أنشئوا دُولاً عَتيدة ، مثل دول التّبابعة فى اليمن والمَناذِرَة من اللَّخْميّين فى العراق والغَسّانيين فى الشام . وجل هذه الدوَل من القحطانية

وكان أكثر العرب العدنانية بدواً يعيشون فى وسط الجزيرة وغربيها وبعض شرقيها كما يعيش العرب الرحّل الآن

وإذ كانت جزيرتهم تحوطها الصحارى والبحار وبلادهم لا تقوم بنفقات الجيوش الجرارة الغازية لها ، عاشوا اكثر أزمانهم فى مأمن من غارات الفاتحين وعبث الملوك المستبدين . والنازلون منهم فى أطراف الممالك الشمالية العظيمة كالروم والفرس اتخذتهم تلك الممالك حرساً على حدودها وعوناً لها على أعدائها ، كالمناذرة مع الأكاسرة والغسانيين مع الروم

اخلاق العرب وعاداتها

ومن اخلاق العرب التى طبعت فيهم بطبيعة بلادهم : الحرية والشجاعة والكرم والوفاء والأخذ بالثار والقناعة

ومن عاداتهم القديمة تقليل الطعام والمنام ورياضة الجسم وتقديم الكبير فى الرأى والعمل

علوم البدو والحضر

ولم يكن للبدو منهم من علوم الحضر وصناعاته الدقيقة المتقنة شىء يذكر . وانما كانت علومهم قرض الشعر (وهو ديوانهم ومُنْبَعَث آدابهم)

وعلم أنساب العرب وأخبارها وأيامها وعلم أحوال الجو والنجوم من أسمائها وحركاتها ومنازلها وأنوائها [١] ومَهَبّ الرياح ومناشئ السحب وعلم القِيافة [٢] ولم يكن لهم فى الطب الا ما عرفوه بالتجارب أو تلقّاه حكماؤهم من أطباء النَّساطِرة [٣] والروم المجاورين لهم. ولم يكن هذا شأن دُوَلهم المتحضرة فى اليمن والعراق والجزيرة والشام، فقد كانت لهم علوم وصناعات، كدبغ الجلود ونسج الملابس وطبع الأسلحة، وخاصة اليمن التى كانت وسائل معيشتها التجارة والزراعة والصناعة. ولذلك لم يكن كلهم أُميّين كما كان الشأن فى عرب البادية، بل كانت اليمن تكتب المُسْنَد (الذى قيل انه من اختراعها) وعرب الشمال تكتب النَّبطىّ والأنبارىّ من الخطوط العربية

ديانة العرب

أما ديانات العرب فكانت على ضروب وأنواع شتى، حتى ليمكن القول بانهم عبدوا كل ما كان يُعبد فى الأرض فى عصورهم، بل أن منهم من انكروا المعبود بتّةً. فمن العَبَدَة الموحّدون الباقون على مذهب ابرهيم، ومنهم عبَدَة النجوم والشمس والقمر والكواكب السيارة وبعض الثوابت، ومنهم المجوس الثَّنَوية وعبدة النار، وعبدة الجن والملائكة، ومنهم اليهود والنصارى، وعبدة الأحجار والأشجار. وقلما كانت عبادةٌ من هذه تخلو من اتخاذ الأصنام إمّا معبودةً لذاتها، وإمّا معتبرة شفعاء لهم عند الله. وكانت الكعبة (المعتبرة أقدمَ معبد لهم من عهد اسماعيل) تُنصب عليها وحولها الأصنام المختلفة

---

(١) جمع نوء وهو غروب نجم معلوم فى الفجر وشروق آخر فى وقته. ويزعمون ان ذلك يبعث المطر (٢) علم معرفة الأشياء بآثارها كمواقع الأقدام على الأرض ونحو ذلك (٣) طائفة نصرانية

(ب) ﴿ تأثير بعثة محمد صلى الله عليه وسلم ﴾
(فى تأسيس مجد الأمة العربية وانتشار الملة الإسلامية)

الروم والفرس قبل البعثة

كانت الروم قُبيل البعثة قد استولى عليهـا بعض الضعف بطول ضعف ملوكها ، وجاوزت الحد فى الترف والانهماك فى اللذات ، وألهتهم فتنهم الدينية والسياسية عن أن يكونوا دعاة سلام ورعاية لأمتهم أنفسهم ولمن سقط فى أيديهم من الأمم . وكانت فارس قد أخذت تنتقص أطراف بلادهم ، بل كادت تخترق قلب مملكتهم : فاستولت على مصر سنة٦١٦م، وكانت على وشك بسط سلطانها الى ما وراء ذلك ، لو لا انحلال قوتهـا نوعاً ما بسبب حروبها الطويلة مع الروم وبعض الفتن الأهلية ، وظهور أمة بدوية قوية اكتسحت أمامها كلاًّ منهما واستولت على أجمل بلاد العالم المتمدين : تلك هى الأمة العربية المفطورة على حب القتال ، والتى مازالت فى جاهليتها تخطو الى جمع شملها وتوحيد كلمتها ، الى أن تهيأت لقبول الوحدة الدينية والسياسية بالدعوة العظيمة المحمدية ، فأنهضتها نهضة لم يحل دونها أعظم ممالك الأرض

تهيؤ العرب لقبول الوحدة الدينية والسياسية

وذلك ان العرب كانت فى جاهليتها قبائل متقاطعة متدابرة قد أنهكتهم الغارات وإدراك الثارات ، فحدثت أُمور استدعت تضامَّهم وائتلافهم بعضَ الشيء ، فمهّد ذلك للاسلام طريق جمعهم على كلمته وقيامهم بدعوته . فمن تلك الأمور :

(١) اتفاقهم مع اختلاف مللهم ونِحَلهم على تعظيم الكعبة واعتقاد مناسك الحج وتشريف قُرَيش سَدَنة* الكعبة وأهل البصر بالدين منهم ،

* خَدَمتها وقُوّامها

وتحريمهم على أنفسهم إحداث حرب فى الأشهر الحُرُم من السنة الاَّ اذا أحلَّت لهم ذلك أشراف كِنانة وقريش

(٢) انتشار التجارة فى العصور الأخيرة بينهم، وقيام قريش بها بين اليمن والشام والعراق واقتداء كثير من القبائل بهم، واختلاطهم بالأمم المتمدينة، فتولَّد فيهم حبّ تبادُل المنفعة

(٣) اتخاذهم الأسواق الكثيرة للتجارة وتجاذُب الأفكار وتناشد الأشعار والقاء الخطب والمباهاة بفصاحة اللسان وشرف العشير واستكمال الصفات الممدوحة فيهم، مما كاد يوحّد لغتهم وآدابهم، ويحسّن التفاهم بينهم. ومن أشهر هذه الأسواق عُكاظ وذو المَجاز

(٤) قصْد الفرس لبلاد العرب لابادتها، وتجمُّع بعض قبائل العرب لصد غارتهم، وانتصارهم عليهم قبيل انتشار الاسلام فى موقعة «ذى قار»

عرفوا من كل ذلك فائدة الاتحاد، وزادت ثقتهم بأنفسهم، فتطلعوا الى الانتفاع بمواهبهم، وهيأهم الله لأن يكونوا رسل الهداية والتوحيد المطلق لعامة البشر، فأرسل رسوله فيهم، فلمّ شَعَثهم وجمع شَملهم وساقهم هو وأصحابه من بعده الى أملاك كسرى وقيصر فافتتحوها، وقام لهم فيها ملك كبير

﴿ محمد بن عبد الله صلى الله عليهِ وسلَّم ﴾

مولده ومنشؤه

وُلد عليهِ الصلاة والسلام بمكة سنة ٥٧١ م من أشرف أبوين فى قُرَيش، وهما «عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم»، و «آمِنة بنت وَهْب ابن عبد مَناف». ومات أبوه بعد شهرين من حمله، وأُمُّه فى السادسة من عمره. وكَفَلَه جدّه منذُ ولد الى الثامنة. فكفله عمه أبو طالب حتى بلغ

مبلغ الرجال . فكان أوحد الناس عفة ، وأشرفهم قصداً وأصدقهم حديثاً وأعظمهم أمانة ، حتى صار يلقب فى مكة بالأمين

وكان يعيش مما يعيش منهُ أكثر أشراف قريش : تربية الإبل والغنم وربح التجارة . فعمل فى ماله ومال عمه ومال السيدة خديجة التى تزوجها بعدُ وصارت أُمّاً لأكثر أولاده ، وكان له من شرف بيتها ومالها وحسن عشرتها خير معين له فى حياته قبل البعثة وبعدها

ونشأ رسول الله مُبغضاً لعبادة الأصنام وشرب الخمر ولَعِب الميسر وكل ما كانت تدين بهِ الجاهلية ، وحُبّب اليهِ النُّسُك والزهد ، فكان كثيراً ما يذهب الى غار حِراء قُرْب مكة ليتعبد ويذكر الله فيهِ حتى بُعث للناس بشيراً ونذيراً . فأتاه فيهِ الوَحْىُ أول مرة بالقرآن الكريم والرسالة . فذهب وأخبر السيدة خديجة ، فآمنت بهِ وآمن ابن عمه « على بن أبى طالب » وهو صبى ، وآمن مولاه زيد بن حارثة ، وآمن صديقه الحميم أبو بكر . وكان أبو بكر رجلاً سهلاً محبَّباً لقومه عالماً بأنسابهم وأخبارهم . وكان رجال قومه يألفونه لعامه وتجاربه وحسن مجالسته . فجعل يدعو الى الاسلام سرّاً من وثق بهِ منهم . فأسلم على يده عثمان بن عفان والزُّبَيْر بن العَوَّام وعبد الرحمن بن عَوف وسعد بن أبى وَقَّاص وطَلْحَة بن عُبيد الله . فكان هؤلاء هم المسلمين السابقين ، وبهم انتشر الاسلام

انتشار الدعوة المحمدية

بعد أن أسلم من ذكرنا من الصحابة أخذ رسول الله هو وأصحابه هؤلاء يدعون الناس سراً الى الاسلام حتى صاروا نحو أربعين رجلاً يجتمعون خفية فى دار أحدهم ، فانضم اليهم عمر بن الخطاب وحمزة عم النبى ، وبهما اعتز الاسلام

ومكث النبي يخفي الدعوة ثلاث سنين ، ثم أمره الله باظهارها وانذار عشيرته الأقربين ، فنبذوا دعوته وعملوا على ابطالها بكل قواهم ، تحمساً في دينهم ، إذ كانوا رؤساء دين العرب وأهل البيت الحرام ، وخوفاً أن تنتقض عليهم العرب فتبور تجارتهم وتتخطفهم النـاس ، وحسداً لرسول الله أن يستأثر بالنبوة والسيادة عليهم على فقره وقلة جاهه . ولذلك كان أشدَّ الناس معارضةً له وإزراءً عليه أشرافُ قريش وأغنياؤهم ، كعمه ابى لهب وكأبى جهل وأبي سفيان ، ولكنه كان محمياً منهم بعمومته وأصهاره . ومن لم يكن من أصحابه له نصير أمره بالهجرة الى الحبشة ، حتى مات عمه أبو طالب وزوجه خديجة . فقل بموتهما ناصره وأصبح فى حاجة الى قبيل يعتز به ، فعرض نفسه على القبائل فى الأسواق ومواسم الحج يدعوهم الى توحيد الله ، فاستجاب له ستة نفر من أهل المدينة فاسلموا ورجعوا الى قومهم ، فاسلم كثير على أيديهم ، ثم رجع منهم فى الموسم التالى اثنا عشر رجلاً بايعوه على الاسلام ، وبعث معهم النبي صلى الله عليه وسلم مُصْعَب بن عُمَيْر ليعلمهم القرآن وشعائر الاسلام . فانتشر بهم الاسلام فى المدينة حتى لم تبق دار ليس بها مسلم الا القليل

ثم جاءه فى الموسم الثالث ٧٣ رجلاً وامرأتان بايعوه على الإيمان والمدافعة عن دعوته بالسيف ، ثم عادوا الى المدينة ، وقد تمكن بهم أمر رسول الله وأصحابه . فامرهم بالهجرة الى المدينة ، فخرجوا اليها تِباعاً

هجرته

ولما علمت قريش أن أهل المدينة بايعوا النبي صلى الله عليهِ وسلم على حرب العرب والعجم ، وأنهُ على عزم الخروج اليهم ، خافوا أن يؤلبهم عليهم ويغزوهم فى دارهم ، فعزموا على قتله . فعلم بذلك فخرج مع أبى بكر مهاجراً

الى المدينة سراً . ففرح بهِ أهلها ، واتخذها دار اقامة ، وبنى بها مسجده العظيم أحد الحرمين الشريفين . ثم تلاحق بهِ أصحابه من مكة . فسماهم المهاجرين ، وسمى أهل المدينة الأنصار . ثم أخذ ينشر دينه بالدعوة اليهِ مع حماية هذه الدعوة بالسيف إن اعترض لها معترض بالقوة ، كالتعدى على المؤمنين ، ومنعهم أن يظهروا شعائر دينهم ، أو الوقوف فى سبيل الداعى بالقوة ، ومنع مريد الاسلام من اعتناقه[١] ، فكان من ذلك غزواته التى أيد الله بها الاسلام وأطلقت للناس الحرية فى عبادة الله وحده

غزواته وسراياه

بلغت غزوات رسول الله ٢٧ ، وقع القتال منها فى تسع . وبلغت سراياه[٢] وبعوثه ٤٨ . فمن أعظم غزواته :

بدر

(١) غزوة « بَدْر »[٣] الكبرى . وهى أول غزوة انتصف فيها الاسلام من أعدائه بالسيف ، وبها اشتد أزره وقويت كلمته . وذلك ان قريشا كانوا أشد الناس نكاية فى الاسلام وصداً عن سبيله ، فاخرجت المسلمين من ديارهم ، وصادرت أموالهم ، ومنعتهم من المسجد الحرام وحَجّه

---

(١) من هذا يُعلم ان الغرض من غزوات النبى صلى الله عليه وسلم ليس مجرد الفتح والملك ، بل الغرض نشر دينه بالتى هى أحسن (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) . ولذلك كان المسلمون يعرضون الاسلام على القبائل والأمم ، فاذا امتنعوا رضوا منهم أن يبقوا على دينهم فى مقابل ضريبة صغيرة هى الجزية ، وبها يكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم . فاذا امتنعوا من كليهما وصدوا عن السبيل وجب حربهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كلهُ لله

(٢) الغزوة ما خرج فيها رسول الله بنفسه وقع فيها قتال ام لم يقع . والسرية ما أرسل فيها قائداً غيره

(٣) موضع ، او بئر بين مكة والمدينة

وهو ركن من دينهم ، وبقيت تعمل بعد هجرتهم على كيْدهم ، فرأى النبي أن يضعف قوتهم بتعطيل متاجرهم الى الشام والإغارة على قوافلهم . فبلغه أن « أباسُفيْان » عائد من الشام بتجارة لقريش ، فتعرض لها . ونهضت قريش لانقاذهـا . فالتقى الجمعان على ماء بدر في ١٧ رمضان سنة ٢ هـ (٦٢٤ م) ، وكان عدد المسلمين ٣١٣ رجلاً وعدد المشركين ٩٥٠ ، فانتصر المسلمون ، وقتلت صناديد قريش ، وفيهم أبو جهل أكبر أعداء النبي . ورجع رسول الله الى المدينة ، وقبل فداء بعض الأسرى بالمال . ومن لم يكن له مال ممن يعرف القراءة والكتابة جعل فداءه تعليم عشرة من الانصار الكتابة [(١)]

أحد

(٢) غزوة « أُحُد » . وذلك ان قريشاً اجتمعت في ثلاثة آلاف مقاتل بقيادة « أبي سفيان » للأخذ بثأر قتلى « بدر » . فالتقى بهم النبي وأصحابه في ٧٠٠ رجل يوم ٧ شوال سنة ٣هـ (٦٢٥م) عند جبل « أُحُد » [(٢)] . فانتصر المسلمون أولاً ، ثم خالف بعضهم أوامر النبي ، ففارقوا مكانهم ، فانكشفوا وجُرح النبي ، وقتل المشركون من المسلمين بقدر ما قتل هؤلاء منهم يوم بدر . ورأوا أنهم أخذوا بثأرهم ، فكفوا عن القتال ، وتحاجز الفريقان وانصرف أبو سفيان الى مكة . ودفن النبي الشهداء ، وفيهم « حمزة » عمه ورجع الى المدينة

الخندق

(٣) غزوة الخَنْدق أو الاحزاب : وذلك ان قريشا اجتمعت في سنة ٥ هـ سنة ٦٢٧ م هي وكثير من قبائل العرب من أهل نجد والحجاز

---

(١) ومن ذلك تعلم ان روح الاسلام وغايته هو نشر العلم والتعليم

(٢) قرب المدينة

واليهود ، وقصدوا المدينة للقضاء على الاسلام وأهله ، فبلغ رسول الله خبرهم ، فحفر حول المدينة خندقاً عمل فيه بنفسه . وجاءت الأحزاب فأحاطوا بالمدينة بضعاً وعشرين ليلة ، ورسول الله مقابلهم ، وليس بينهم قتال غير المراماة ، وبرز من فرسان المشركين عمرو بن عبد ودّ فقتله على بن أبي طالب

ولما طال عليهم المقام دس عليهم رسول الله من أوقع الشقاق والاختلاف بينهم . وهبت عاصفة شديدة ، وكانت فى أيام شاتية ، فجعلت تطرح خيامهم وتكفأ قدورهم . فرحلت قريش مع أبي سفيان ، وتبعهم بقية الأحزاب راجعين الى بلادهم . وكان بين بني قُرَيظة من اليهود و بين النبي عهد ، فنقضوه وتابعوا الاحزاب . فلما انصرفوا لحقهم رسول الله فى اليوم الثانى ، وحاصرهم فى حصونهم وأوقع بهم

الهدنة مع قريش

وفى سنة ست خرج رسول الله الى مكة مُعْتَمِراً لا يريد حرباً . فمنعته قريش وحبست عثمان بن عفان رسوله اليهم . فبايع النبي أصحابه على الموت ، وأراد فتح مكة . فهادنته قريش وحلفاؤها . وأبرم معهم معاهدة صلح ، ورحل الى المدينة

خيبر

(٤) ثم افتتح حصون خَيْبَر * ، وفيها جمهرة اليهود . ففتحها حصناً حصناً . وبعد رجوعه قدمت عليه بعثة مهاجرة الحبشة

(٥) غزوة فتح مكة : لم يمض على معاهدة الصلح بين النبي وقريش أكثر من عامين حتى نقضها حلفاؤهم بتعديهم على حلفاء النبي . وعلم ذلك أبو سفيان ، فقدم المدينة لتجديد المعاهدة ، فلم يُصغ له رسول الله . وبعد قليل ، سنة ٨ ، خرج رسول الله الى مكة فى عشرة آلاف مقاتل فيهم خالد

* شمالى المدينة

ابن الوليد ، وكان قد اسلم هو وعَمْرو بن العاص قُبَيْل ذلك . فلم تبد قريش الا مقاومة قليلة وألقت اليه بأيديها . وجاء أبو سفيان مسلماً ، واكرمه النبي . وعفا رسول الله صلى الله عليهِ وسلم عن أهل مكة ، ثم دخل الحرم وأزال الأصنام عن الكعبة وكسرها . ثم أسلم جميع أهل مكة

حنين

(٦) غزوة حُنَيْن[١] : وبعد فتح مكة تجمعت هَوازن وثَقِيف وغيرهم من القبائل الضاربة حول مكة لمحاربة النبي ليبدءوه قبل أن يبدأهم . فخرج اليهم فى اثني عشر الف مقاتل . فاغتر المسلمون وأعجبتهم كثرتهم . فلما التقى الجمعان ، حتى حمل عليهم الأعداء حملة شديدة ، ففر أكثر المسلمين وثبت رسول الله فى خاصة أصحابه وأهل بيته حتى تراجع اليهِ الفارون ، وقاتل قتالاً شديداً ، وحمل بالمسلمين فكانت الهزيمة على المشركين ، وغنم المسلمون منهم غنيمة عظيمة فرق النبي اكثرها فى عظماء قريش وغيرهم ليتألف قلوبهم ، ومَنَعَ الأنصار لثقته بهم وحبهم له

تبوك

(٧) غزوة تَبُوك[٢] . وهى آخر غزواته : وذلك أنهُ لما رأى اكثر العرب دانوا له خرج الى الروم فى سنة تسع (٦٣٠ — ٦٣١م) ومعهُ ثلاثون الفاً وكانت الخيل عشرة آلاف ، وضرب الجزية على أهل أَيْلَة[٣] وأَذْرُح[٤] ودُومَة الجَنْدل[٥] . وكلها كانت إمارات نصرانية تابعة للروم وكان أثناء غزواته يبعث سراياه وبعوثه الى قبائل العرب كافة فآمنوا تباعا

---

(١) موضع بين مكة والطائف (٢) موضع بين الشام والحجاز وهو الآن احدى محطات سكة الحديد الحجازية (٣) مكانها الآن العقبة أو قريب منها (٤) بلدة قريبة من تبوك من اطراف الشام الجنوبية (٥) حصن وقرى شرقى تبوك ببادية الشام

وفى سنة سبع ه (٦٢٨ — ٦٢٩ م) أرسل كُتُبَهُ الى الملوك والأمراء يدعوهم الى الاسلام مثل كسرى وقيصر والمقوْقِس والنَّجاشى والحارث بن أبى شمر الغسَّانىّ وهَوْذَة ملك اليمامة والمُنْذر بن ساوَى ملك البحرين. فأسلم النجاشى والمنذر بن ساوى وقومهما، واكرم المُقَوْقِس رسوله حاطِباً وأهدى للنبى جاريتين من قبط أنْصِنا (احداهما مارِيَة أم ولده ابرهيم) وبغلة وحماراً وكثيراً من عسل بِنْها، وردّ قيصر رداً جميلاً، ولم يقابل بقية الملوك دعوة الاسلام بالحسنى. ولم تدخل سنة عشر ه (٦٣٢م) حتى دخل الناس فى دين الله أفواجاً، وأقبل عليهِ الوفود من جميع أنحاء الجزيرة، وآمن مَن فيها من العرب إلا قبائل الشام والعراق. وحج حجة الوَداع من هذه السنة، وحج معه من أصحابه يومئذٍ أربعون ألفاً

كتب رسول الله الى الملوك

وفى هذه الحجة تمّ نزول القرآن الكريم، وكان ينزل مفرقاً على حسب الوقائع. وخطب فيها رسول الله خطبة الوداع الشهيرة التى بيّن فيها معالم الاسلام وأتم أصوله ووصاياه. ومات بعد أن بلّغ وأرشد، وترك ديناً خالداً وأمة كريمة

وفاته صلى الله عليه وسلم

مرض رسول الله نحو اثنى عشر يوماً انقطع فيها عن الناس ثلاثة أيام، وأناب عنهُ أبا بكر يصلى بالناس. ومات فى بيت عائشة ضَحْوة يوم الاثنين لاثنتى عشرة خلت من ربيع الأول سنة ١١ ه (٦٣٢م) عن ثلاث وستين سنة. ودفن مساء الثلاثاء فى حجرة عائشة حيث قُبض. ولم يخلف من بنيه وبناته الا السيدة فاطمة زوج على بن أبى طالب. وماتت بعد النبى بأشهر قلائل، وكل أولاده ماتوا قبله

صفاته

كان رسول الله ليس بالطويل ولا بالقصير، ضخم الرأس،

بسم الله الرحمن الرحيم • من محمد عبد الله ور
سوله إلى المقوقس عظيم القبط سلام على
من اتبع الهدى • أما بعد فإني
أدعوك بدعاية الإسلام أسلم
تسلم يؤتك الله أجرك مرتين
فإن توليت فعليك إثم كل القبط
يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة
سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله
ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا
بعضا أربابا من دون الله فإن
تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مس
لمون

الله
رسول
محمد

صورة كتاب محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المقوقس عظيم القبط بمصر

كَثّ[١] اللحية ، عظيم الكفين والقدمين ومفاصل العظام ، أبيض مشرباً بحمرة ، ادعج[٢] العينين ، سَبْط[٣] الشعر ، سهل الخدين ، أقْنى الأنف أشمّه[٤] فى مقدم لحيته ومفرق رأسه شعرات بيض . وكان أرجح الناس عقلاً وأفضلهم رأياً ، قليل المزاح واللغو ، مطيل الصمت ، دائم البشر ، متفقداً لأصحابه ، متواضعاً ، يخصف[٥] نعله ويرقع ثوبه ، وخرج من الدنيا ولم يشبع من خبز الشعير زُهْداً فيها

(ح) ﴿ حالة الخلافة بعد النبي صلى الله عليهِ وسلم ﴾

لما قُبض رسول الله لغير وصيَّة بالخلافة تنازع المهاجرون والأنصار فى أمرها ، وبعد أخذ وردّ وامتناع من بعضهم انتُخب أبو بكر رضى الله عنهُ خليفة ، وقرَّت الخلافة من بعده فى قُرَيش . وقد كان لأبى بكر وباقى الخلفاء الراشدين من بعده (عمر وعثمان وعلى) رضوان الله عليهم الفضل الأكبر فى توطيد دعائم الاسلام بعد وفاة رسول الله صلى الله عليهِ وسلم . فابتدأ أبو بكر بتسيير الجيش الذى جهَّزه رسول الله قبل وفاتهِ لغزو أطراف الشام ، فذهب الجيش وعاد غانماً

خلافة أبى بكر
١١ — ١٣ هـ
٦٣٢ - ٦٣٤ م

ولم تسمع العرب بموت النبي حتى ارتدَّت عن الاسلام ، وبعضُها منع الزكاة الاَّ أهل المدينة ومكة والطائف . وتنبَّأ كثير من شياطين العرب كمُسَيْلِمَة الذى قدكان كاتب النبي فى اقتسام الأرض ، وطُلَيْحة بن

---

(١) غزير شعر اللحية (٢) شديد سواد العين مع سعتها (٣) مرسل غير مجعد (٤) الشمم ارتفاع فى قصبة الأنف مع استواء أعلاه وإشراف الأرنبة قليلاً ، فان كان فيها احديداب فهو القنا (٥) يخرزها

خُوَيْلِد وسَجاح التَّميميَّة . وكاد الاسلام يُقتلَع من أصوله ويذهب كأن لم يكن ، لولا حزم أبى بكر ومَضاء عزيمته ، فانهُ استشار الصحابة فى محاربة المُرتدّين ، فكلهم أشار عليهِ بلزوم بيتهِ وعبادة ربّهِ ، إذ لا طاقة لهم بحرب العرب كلها . فغضب وبعث الجيوش واكثرهم من قريش لمحاربة المرتدّين . فقتل جيش خالد بن الوليد مُسيلمة الكذّاب ، وقهر طليحة وسَجاح ففرّا وأسلما بعد ذلك . ولم يمضِ أقلّ من سنة حتى خضعت العرب ورجعت الى الإسلام . فساقهم الى ممالك كسرى وقيصر . ففتح من العراق فى زمانه المُثنّى بن حارثة ثم خالدُ بن الوليد وعِياضُ بن غَنْم الحِيرةَ وجميعَ سَقْى الفرات الى تخُوم الشام . وفتح أبو عبيدة بن الجراح وأُمراؤه شرقىّ الشام ، حتى اجتمعت الروم فى اكثر من ٢٠٠ ألف . فأمدّ أبو بكر عسكر الشام بخالد ونصف عسكر العراق . ومات وجيوشه تحارب المملكتين . وكانت وفاته بالمدينة ، ودُفن بجانب رسول الله سنة ١٣ ﻫ (٦٣٤م) وعمره ٦٣ سنة ، فكانت خلافته سنتين وثلاثة أشهر . وفى مدته جُمع القرآن الكريم بإشارة عمر لقتل اكثر القُرّاء فى حرب مسيلمة ، وحُفظ فى بيت حَفْصَة بنت عمر زوج النبى ، حتى نسخهُ عثمان

خلافة عمر
١٣ — ٢٣ ﻫ
٦٣٤-٦٤٤ م

وبويع عمر بن الخطاب بالخلافة فى اليوم الذى توفى فيهِ أبو بكر بوصية منهُ وسُمى بأمير المؤمنين . فاستفزّ الناسَ لحرب الفُرس والروم . ففُتحت فى زمانه ممالك الفرس والشام ومصر

وهو أول من دوّن الدواوين من خلفاء المسلمين ، ومصّر الأمصار ، فبُنيت فى مدّته الكُوفة والبَصْرة والفُسْطاط وغيرها ، وأول من عَسّ بالليل ، ونصب القضاء ، ووضع التاريخ الإسلامى وجعل مبدأه هجرة

رسول الله الى المدينة المنوَّرة . وكان لا يشغله عن تدبير أمر المسلمين شاغل ليلاً أو نهاراً : يحرك الجيوش بأوامره وهو فى المدينة ، وترجع اليهِ غنائمهم فيصرفها فى مصالحهم من غير أن ينال منها لنفسه إلاّ دريهمات لنفقته كل يوم . فهو رجل المسلمين وموطِّد ممالكهم ، ولم يقم لهم خليفة بعده مثله فى حزمه وعزمه وزُهده وعدله

وقُتل رحمه الله غدراً وهو قائم يصلى بالناس ، طعنهُ بخنجر أبو لؤلؤة فَيْرُوز المجوسى عبد المُغيرة بن شُعْبة سنة ٢٣ هـ (٦٤٤م) ، وكانت خلافته عشر سنين وستة أشهر

وعَهد بالخلافة الى واحدٍ يُنتخب من النَّفر الذين مات النبي وهو عنهم راض (على وعثمان وعبد الرحمن بن عَوْف وطلحة والزبير وسعد بن ابى وَقَّاص) ، وجعل ابنه عبد الله شريكا لهم فى الرأى لا فى الخلافة

خلافة عثمان
٢٤ — ٣٥ هـ
٦٤٤—٦٥٥ م

فانتخب الناس من النفر الستة الذين عهد اليهم عمر بالخلافة « عثمان ابن عفَّان » . فسلك طريق عمر فى سياسته مدة فُتحت فيها بلاد جنوبى التركستان وبرقة وطَرابُلُس الغرب والنوبة وجزيرة قبرس . ثم ظن أن فى توليته الممالكَ المفتوحة مَن يثق بهِ من أهله وأقربائه ضمانةً لمصلحة المسلمين لنصحهم له وشدهم بعصبيتهم ازرَه ، فكان غيرُ ما ظن ، ونقم منهُ كثير من العرب فعله ، ورمَوْه بمحاباة أهله والتغيير والتبديل فى سُنَّة رسول الله وصاحبيه . وذهب اليهِ كثير من شُذّاذ العرب من أهل مصر والعراق ورَعاعهم . وفيهم بعض أبناء الصحابة ، فحاصروه فى داره بالمدينة ، وطالبوه بعدة أمور لم يرها من حقهم ، فتسوّروا عليهِ وقتلوه وهو يتلو فى مصحفه سنة ٣٥ هـ (٦٥٥ م) . ودُفن بالبَقِيع ، وله من العمر ٨٢ سنة . وكانت

خلافته ١٢ عاماً . وكان موته سبباً لإثارة الفتن بين المسلمين . وفى مدته نُسخ من المصحف الذى عند حفصة أربع نسخ أُرسلت الى الأمصار لينقل عنها ويُحرق ما سواها

خلافة على
٣٥ – ٤٠ ﻫ
٦٥٥–٦٦٠ م

بعد أن قتل عثمان تنازع الناس فيمن يتولى الخلافة فانتخب الاكثرون علياً وبايعوه . وبقى نفر من الصحابة وبنو أُمية لم يبايعوه . وحقّق علىّ مقتل عثمان فلم يتوصل الى معرفة القاتلين . وخرج الى الكوفة وجعلها مقر خلافته . وعزل وُلاة عثمان على غير رغبة أصحابه ، فاتهمه بنو أمية (ورأسهم معُاوِية وطلْحة والزُّبير) بتهاونه فى إظهار القاتل . وظنوا أن قتله كان عن رغبة منهُ . فامتنع معاوية بالشام عن مبايعته ، وتبعه أهل بيته وجند الشام . وخرج طلحة والزبير الى مكة وقابلا السيدة عائشة ،

الخلاف بين على ومعاوية

وكانت فى الحج ، وحرضاها على الأخذ بثأر عثمان ومحاربة على . فخرجت معهما فى جيش استولى على البصرة وانضم اليهم أهلها . فسار اليهم علىّ فى أهل الكوفة وحاربهم ، وكانت السيدة على جمل جلِّل هودجه بصفائح من

واقعة الجمل

الحديد . فقتل دون الجمل مئات من الناس ، ثم عُقِر وانهزم أصحاب الجمل وقتل طلحة وكذلك الزبير عند مُنصرَفه الى المدينة . وأرسل علىّ السيدة عائشة مكرَّمة الى المدينة

واقعة صفين

ثم ازدادت الوَحْشَة بين معاوية وعلى . فجردا جيشين عظيمين التقيا بصِفِّين* ودام الحرب بينهم أربعين صباحاً . ثم عرض جيش معاوية على جيش علىّ أن يحكّما بينهما حَكمين يُختار كل واحد من فريق . فحكّما « أبا موسى الأشعرى » من قِبَل على و « عَمْرَو بن العاص » من قِبَل

* موضع قرب الرَّقَّة بشاطئ الفرات . وكانت الواقعة فى صفر سنة ٣٧

معاوية . فاتفقا على خلع الاثنين ليعاد انتخاب الخليفة من جديد ، وفى يوم الحُكْم اجتمع العرب ، فحكم أبو موسى بخلع صاحبه ، ورجع عمرو عن اتفاقه وحكم بتثبيت معاوية . ففَتَّ ذلك فى عضُد أصحاب على ، وتقاعد عن نُصْرته كثيرون ، حتى اتفق ثلاثة من فُتَّاك الخوارج على اغتيال على ومعاوية وعمرو بن العاص، فنجح أمرهم فى على ، وخاب فى معاوية وعمرو ، فقُتل علىّ غيلةً بيد « عبد الرحمن بن مُلْجَم » ، وهو ينادى لصلاة الصبح غَلَساً بمسجد الكوفة . فدفنهُ ابنهُ الحسن خِفْيةً وستر قبره وقتل قاتله .

الحسن

وبايعه أهل الكوفة بالخلافة ، فتنازل عنها لمعاوية بعد أشهر حَقْناً لدماء المسلمين . فتمّ الأمر لمعاوية واستولى على الممالك التى دخلت فى طاعة علىّ ، وأسس دولة بنى أُمية . فصارت الخلافة ملكية وراثية فى دولته

وقُتل أمير المؤمنين علىّ سنة ٤٠ هـ وعمره ٦٣ سنة . وكان شجاعاً عالماً ، شهد المواقع بين يدى رسول الله . ومن مآثره انهُ أمر «أبا الأسوَد الدُّؤَلى » فوضع النحو .

وكان العرب قد استمروا فى فتوحهم بقية حكم الخلفاء الراشدين حتى استولوا على معظم أملاك الدول القوية إذ ذاك مما سيأتى ذكره

(ى) ﴿ الفتوح الاسلامية ﴾

التحام العرب مع الفرس والروم

كان النبي صلى الله عليهِ وسلم يبشر المسلمين طُولَ مدة رسالته بفتح ممالك فارس والروم . وشرع فى ذلك آخر حياته ليقتدى بهِ خلفاؤه من بعده ، فغزا بنفسه غزوة «تَبوك» وأغزى أصحابه غزوة «مُؤْتة» ، وخرج

من الدنيا وقد جهّز جيشاً أمّر عليهِ مولاه «أُسامة بن زيد» ، فبرز خارج المدينة لحرب الروم ، وأوصى فى مرضه بانفاذه الى الشام. فأنفذ «أبو بكر» وصيته ، وسيَّر هذا الجيش فغزا القبائل الموالية للروم فى جنوبى الشام وعاد بعد أربعين يوماً

ومن ذلك الوقت شرع أبو بكر فى تحقيق بشارة النبى واستنجاز وعده . ولثقته بإيمان أصحابه وعلو هممهم على قلة عَدَدِهم وعُددهم رأى أن يغزو بهم الفرس والروم فى آن واحد . ونَفّذ «عمر» بعده خطته على ما فيها من المصاعب وتفريق القوة فأعقبت النجاح والظَفر ، وأكمل بقيتها الخلفاء الراشدون وبنو أُمية وبنو العباس . حتى كان لهم من نشر دينهم واتساع ملكهم ما استطالوا بهِ على أكثر الممالك العظيمة فى تلك العصور :

(١) فتح فارس : من سنة ١٢ الى سنة ٢١ هـ (٦٣٣ — ٦٤٢م)

لما فرغ أبو بكر من حرب المرتدّين ، ودانت جزيرة العرب للإسلام رأى أن يَشغل العرب بعدها عن الفتن الدينية والسياسية بسَوْقها الى الممالك الغنية الخصبة المجاورة لها لعامه بما فيها من الفتن الداخلية . فجهّز لغزو فارس جيوشاً متفرقة جعل قيادتها العامة لخالد بن الوَليد . ففتحوا العراق والجزيرة . ثم أرسل أبو بكر الى خالد أن يذهب فى نصف الناس لإنجاد عسكر الشام . وبقى أحد قواده « المُثَنَّى بن حارِثَة » يحارب الفرس حتى مات أبو بكر. فأمدّه عمر بجيش ، فحاربوا فى جملة وقائع انتصروا فى بعضها وأُصيبوا فى آخر حتى ملك « يَزْدَجِرْد » ، فجمع أبطال الفرس وصناديدهم فى جيش بلغ ١٢٠ ألف مقاتل . وعلم ذلك عمر فجمع أشراف

العرب وفرسانها وخطباءها وشعراءها ، وجعل على الجميع أميرًا « سعد بن أبي وَقّاص » القُرشى . فبلغ عدد المسلمين بضْعة وثلاثين ألف رجل ، فالتقوا بالفرس سنة ١٤ هـ (٦٣٦ م) بالقرب من « القادِسِيَّة » فى موقعة فاصلة من أشد الوقائع ، لم يفلح بعدها الفرس فى موقعة ، فقُتلت أبطالهم وشجعانهم وقائدهم العظيم « رُسْتَم » . وغنم المسلمون مُعَسكر الفرس وراية مملكتهم ، وكانت من جلد مستتر بالجواهر الكريمة

واقعة القادسية ١٤ هـ

وفى هذه السنة بعث عمر « عُتْبة بن غَزْوان » فى جمع الى « الأُبُلَّة » (مَرْفأ السفن على شمالىّ بحر فارس) ، فافتتحها وهزم حامية الفرس مرارًا فى جنوبى العراق ، واختطّ مدينة « البَصْرَة » ، وبعث بالغنائم الى عمر . وأُعجِب المسلمون بذلك ، فأقبلوا على البصرة تِباعًا . ولما فرغ سعد من أمر « القادسية » واستراح جيشه خرج الى « المدائن » (إِكْتِسيفُون) عاصمة الفرس وبها إيوان كسرى العظيم . فهزم فى طريقه اليها جموعًا كثيرة للفرس وحاصر المدائن الغربيـة ، ثم عبر بجيشه الى الشرقيـة وحاصرها . ففرّ « يزدجرد » فى خاصته وبقية عساكره الى « حُلْوان » بعد أن أباح بيوت المال والذخائر لقواده ، وخلّف أخا رستم على المدائن . فشدد العرب عليهم الحصار ، فهرب من فى المدينة ودخلها العرب سنة ١٦ هـ (٦٣٧ م) . وأمر سعدٌ أن يلحقوا حَمَلَة الأموال والنفائس فأدركوا كثيرًا منهم ، ووضعوا أيديهم على خزائن الفرس مماً لا تقدَّر قيمته ، وكان فى ذلك تاج كسرى ومنطقته وسِواره ودرعه وبساطه (وكان ستين ذراعًا فى مثلها ، وكان على هيئة روضة قد صُوِّرت فيهِ الأزهار بالجواهر المختلفة الألوان على نسيج الذهَب) ، واستولى العرب كذلك على ذخائر الملوك الذين قهرتهم فارس

الأبلة

فتح عاصمة فارس ١٦ هـ

وأقام سعد بالمدائن مدّة . وبعث بالجيوش ففتحت بقية البلاد . وفى سنة ٢١ هـ (٦٤٢ م) جمع « يزدجرد » جميع من فى فارس وخراسان من المقاتلة وانضم اليهم بقية المنهزمين ، فاجتمع له ١٥٠ الفاً فتحمسوا وصمموا على إخراج العرب من بلادهم . فبلغ « عمر » ذلك فخاف على المسلمين وأمدّهم بجيش عليهِ « النُّعمان بن مُقَرّن » ، فساروا وانضم اليهِ ثلث من فى العراق وقصدوا الفرس فى نحو ٣٠ الفاً فالتقوا بهم قرب « نَهاوَند » فى موقعة لم يقع للعرب مثلها ، قاوم الفرس فيها مقاومة عظيمة ، وقتل فيها « النعمان بن مقرن » فتولى مكانه « حُذَيفة بن اليمان » ، وحمل بالناس فانهزم الأعداء ، وفتك العرب بهم فتكاً ذريعاً ، ولم يفلت منهم الا القليل . وتسمى واقعة « نهاوند » هذه بفتح الفتوح ، إذ لم يكن للفرس بعدها اجتماع ، ودخلت مملكتهم جميعاً فى حوزة المسلمين

واقعة نهاوند
٢١ هـ

أما « يزدجرد » فما زال يفرّ أمام العرب من بلد الى بلد حتى قُتل أثناء فراره زمنَ عثمان سنة ٣١ هـ (٦٥١ م) . وبموته انقرض آل ساسان

(٢) فتح الشام

بعد أن سيّر أبو بكر خالداً الى العراق بقليل سير أربعة جيوش الى بلاد الشام لغزوها من جهات مختلفة . فساق « هرقل » قيصر الروم على كل جيش جيشاً أضعافه فى العدد . فرأى قواد جيوش المسلمين الأربعة أن يجتمعوا فى بسيط واحد . فعلم ذلك هرقل ، فامر جيوشه أن ينزلوا على نهر « اليَرْمُوك » . فنزلوا بين النهر وبين وادٍ عميق كأنهُ خندق يُعرف « بالواقوصة » فى اكثر من ٢٠٠ الف مقاتل سنة ١٣ هـ (٦٣٤ م) ،

واقعة اليرموك
أو الواقوصة
١٣ هـ

وكأنهم رأوا أن الوادى والنهر يحميان جانبيهم . ونزل العرب أمامهم على نفس الضفة من النهر ، فصار الروم كأنهم محصورون ولا طريق لهم إلا على العرب . وحفر الروم بينهم وبين العرب خندقاً ، وطاولوهم فى القتال ليضرَوْا على العرب ولا يخشوا بأسهم . وبقوا كذلك ثلاثة أشهر كاتب العرب فيها أبو بكر واستنجدوه . فكتب الى خالد بن الوليد أن ينجدهم بنصف عسكر العراق. فسار مسرعاً سالكاً بادية السَّماوة[1] حتى بلغ الشام ففتح فى طريقه مدينة «بُصْرَى»[2] وانضم الى معسكر المسلمين ، فتكامل بهِ عددهم نيفاً وأربعين ألفاً . ورآهم خالد متساندين كل رئيس منهم مستقل برأيه وجماعته . فجمعهم على أن يتولى كل أمير القيادة يوما . وبدأ هو باليوم الأول . فعبّأ جيشه تعبئة لم يسبق للعرب مثلها : فرّقهم ٣٨ كردوسا وهاجم بهم الروم . فخرجوا من خندقهم . فهجم خالد بقلب الجيش ، ففرّق بين فرسانهم ورَجّالتهم . ورأى فرسانهم أنهم صاروا فى وسط العرب ، ففروا الى الصحراء ، وأوسع لهم المسلمون الطريق ، واكتفوا شرّهم . ثم أطبقوا على الأعداء ، فردّوهم الى خندقهم ، بل اقتحموه عليهم ، وأقبل الليل فلم توقف العرب القتال ، وحصروا الأعداء فتساقطوا فى الهوّة من جانب

---

(١) سلك خالد هذه المفازة المهلكة المعدومة المياه لجملة وجوه حربية وغيرها أهمها سرعة نجدته لجند الشام لقصر مسافتها عن الطريق المعتاد سلوكه على شاطئ الفرات ، وتجنُّب العوائق التى تعترضه فى الطريق المعتاد لاعتراض كثير من حصون الجزيرة وشمالى الشام له . وحكاية اختراق جيشه هذه البادية اعجب من اختراق جيش انيبال جبال الألب . فلتراجع فى كتب التاريخ المطولة

(٢) وهى مدينة صغيرة شرقى الشام على أبواب الصحراء

وفى النهر من الآخر . وقتل منهم غرقاً وتردّيا اكثر مما قتل بسيوف العرب ، وتمّ النصر للمسلمين . ولم ينج من الروم غير فرسانهم الا القليل . وكانت هذه الموقعة أعظم الوقائع بين الروم والعرب ، فلم يثبت لهم بعدها أمام العرب جيش ولو كثر عدده . وفى أثناء تلك الواقعة جاء البريد بموت أبى بكر وعزل خالد عن قيادة الجيش وتولية أبى عُبَيْدَة قيادته ، فقبل خالد ذلك بالسمع والطاعة . ونصح لأبى عبيدة فى الرأى والجهاد . وساروا لفتح دمشق فحاصروها ٧٠ يوماً وفتحها خالد عنوة من جانب . وبينما هو يتقدم داخلها خرج محافظ المدينة وقابل أبا عبيدة من جانب آخر وسلمها له صلحاً سنة ١٤ هـ (٦٣٥ م) . وبعث أبو عبيدة الجيوش لفتح سائر مدن الشام ، ففتحوا بلاد الساحل ومدينة حمص واللاذِقيّة وقِنّسرين وحلب وأنطاكِيَة . وكان هرقل يتنقل فى مدن سورية الحصينة يراعى جيوشه . فلما أوغل المسلمون فى الجهات الشمالية صعد على نَشَز من الأرض ثم التفت الى الشام وقال : «السلام عليك ياسورية سلام لا اجتماع بعده» ، وهرب الى القسطنطينية

واقعة أجنادين

وكان جيش من المسلمين يقودهم عمرو بن العاص ذهبوا لفتح بيت المقدس ، فالتقوا فى طريقهم بالروم فى موقعة عظيمة تعرف بواقعة أجْنَادِين هُزم الروم فيها هزيمة شنيعة . ثم حاصروا بيت المقدس أربعة أشهر ، وابى بطريقها ان يسلم المدينة الا على يد الخليفة عمر ليكتب بنفسه شروط الصلح ، فحضر عمر الى الشام وتسلم المدينة سنة ١٥ هـ (٦٣٦ م) وأسس مسجده على الصخرة. وخرج عمر الى الشام ثلاث مرات غير هذه المرة . وتم فتح الشام فى أقل من ست سنوات

تسليم بيت المقدس ١٥ هـ

وفى سنة ١٨ هـ (٦٣٩ م) حدث فى الشام طاعون عظيم يسمى طاعون عَمْوَاس مات بهِ ٢٥ الفاً من الصحابة منهم أبو عبيدة

(٣) فتح مصر

لما قارب فتح الشام الانتهاء استأذن «عمرو بن العاص» أمير المؤمنين « عمر بن الخطاب » فى فتح مصر ، ووصف له ثروتها وهوّن عليه أمرها ، فامتنع «عمر» بادئ بدء ، ثم بعثه (والتردد يخالجه) فى أربعة آلاف أو أقل ، وقال له : « سيأتيك كتابي سريعاً ان شاء الله تعالى ، فإن أدركك كتابي آمرك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئاً من أرضها فانصرف ، وإن أنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابى فامض لوجهك واستعن بالله واستنصره »

الاستيلاء على الفرما

فلم يكد عمرو يتجاوز الحدود المصرية حتى جاءه كتاب « عمر » ، فواصل السير حتى بلغ « الفَرما » فى أواخر سنة ٦٣٩ م (١٨ هـ) . فقاوم الروم فيها مقاومة ضعيفة حتى ان العرب مع قلة عددهم ونُدْرة ما عندهم من آلات الحصار استولوا عليها عَنْوة فى شهرين

ولما أمن «عمرو» طريق الاتصال بالشام أجدّ السير فى طريق المواضع التى تُعرَف الآن « بالقَنْطرة والقصاَّصين والتَّل الكبير» حتى نزل على « بِلْبِيس » ، فحاصرها شهراً ثم فتحها بعد قتال شديد . وعند ذلك انضم إلى عسكره كثير من بدو الصحراء فعوّضوا ما خسره من جيشه الصغير

بلبيس

أم دنين

ثم سار حتى وصل الى قرية على النيل تُدعى « أُمّ دُنَين » (موقعها الآن ما بين عابدين والأزبكية بالقاهرة)* . وكان معظم الجيوش الرومانية

* يعلم من ذلك ان النيل غيّر مجراه منذ ذلك العهد وتحوّل الى الغرب

حينئذٍ ممتنعة فى حصن بابليون ، ولكن الحامية المرابطة فى «أُم دنين» عاقت « عمرا » عن التقدم بضعة أسابيع حدثت فيها مناوشات عديدة انتهت باستيلاء عمرو عليها

ولما رأى « عمرو » ان ما معه من المقاتلة لا يكفى لفتح « حصن بابليون » أراد أن يشغل جيشه بعمل ريثما يأتيه المدد ، فخرج فى غارة إلى الفيوم (وتلك مخاطرة كبيرة) ، فعبر النيل فى قوارب وسار بطريق منف الى الفيوم ، فلم يفلح فى الاستيلاء عليها ، إلا أن هذه الخرجة انتهت بما قصد اليه ، فإنه عند ما عاد الى عين شمس فى صيف سنة ٦٤٠ م لحق بهِ المدد الذى بعثه أمير المؤمنين وفى مقدمته الزُّبير ابن العوّام وعدتهم ١٢٠٠٠ مقاتل

غارة الى الفيوم

واتهز الروم فرصة تغيّب «عمرو» بالفيوم فاستولوا ثانية على «أُم دُنين» ثم أعدّ «تيودُور» قائدهم نحو ٢٠٠٠٠ مقاتل واراد مناجزة العرب ، فزحف الى عين شمس قاعدة الجيش العربى . فوضع «عمرو» كميناً من جيشه فى موضع خفى بالقرب من « الجبل الأحمر »[١] وآخر فى النيل قريباً من «أم دنين»، ولاقى «تيودور» بالفريق الأكبر من الجيش. فلما حمى وطيس الحرب ثار الكمينان على جناحى الجيش الرومانى وساقته فسحقوهم سحقا، ولم يبق للروم منهم سوى ٣٠٠ مقاتل وفُقد الآخرون ما بين قتيل وهارب . واستولى «عمرو» بهذه المعركة على مدينة «مصر»[٢] فانفسح أمامه السبيل

واقعة عين شمس

---

(١) شرقى العباسية

(٢) اختُلف فى موقع هذه المدينة وحقيقتها . والأرجح أنها كانت امتداد مدينة منف على شاطئ النيل الشرقى . ومبانيها تمتد شمالى الحصن وجنوبيه

لإتمام إخضاع الفيوم والشروع فى محاصرة «حصن بابليون»

المقوقس

وكان القائد الحقيقى للجنود الرومانية فى حصن بابليون وقتئذٍ هو « سيرُوس » بَطْريق الطائفة الملكانية بالاسكندرية والحاكم الإدارى لمصر ، وهو المعروف عند العرب بالمُقَوْقِس*

محاصرة حصن بابليون

وقدكان له يد عاملة فى هذا الفتح ، ومضى عليهِ عشر سنين وهو مكروه من الأقباط لاضطهاده لهم ، فلما حاصر العرب الحصن كان النيل مادًّا (أواخر اغسطس) وليس لهم من آلات الحصار والحيل الهندسية ما يسهل عليهم اقتحام الحصن ، على عكس ما كان لعدوهم من ذلك فوق امتلاء الخنادق بمياه الفيضان . ولما أخذ النيل فى الهبوط (فى شهر اكتوبر) أخذ « المقوقس » ييئس من ردّ العرب عن البلاد ، وسعى سراً فى عقد صلح معهم فى جزيرة الروضة ، فلم يرض «عمرو» منهُ الا بخصلة من ثلاث (وهى الاسلام أو الجزية أو القتال) . ثم كُتبت المعاهدة وأُرسلت الى امبراطور الروم لإقرارها ، فسخط « هِرَقْل » وأخذته دهشة من التسليم لبضعة آلاف من المسلمين . فاستدعى « المقوقس الى القسطنطينية » فى الحال (نوفمبر سنة ٦٤٠م) . فواصل العرب حصار الحصن بنشاط جديد . وجمع « تيودور » جيشاً جديداً فى الوجه البحرى يحاول بهِ فض الحصار عن الحصن فلم يستطع شيئاً حتى ولا الدنو من الحصن . وفى شهر مارس سنة ٦٤١ م سمع المحصورون ضجة فَرَحٍ فى معسكر المسلمين ، وبان لهم أنها كانت لموت هرقل ، ففتّ ذلك فى عضد الروم وأوهن عزائمهم

---

* وفى المقريزى انه يسمى « المقوقس بن قرقت » ولعله محرّف عن « سيرُوس » لأن حرف (C) يُنطق به قافا فى العربية كثيراً

وفى ٦ ابريل سنة ٦٤١ م عمد الزُّبير الى تسور الحصن بسلّم كبير ، ولما صار فى أعلى السور تبعه الناس ، فلم يسع الروم الا التسليم على شريطة أن ينجوا بحياتهم ، فقبل « عمرو » ذلك وأمهلهم ثلاثة أيام يجلون فيها عن الحصن . ومن الغريب ان الأحزاب الدينية بالحصن لم يُلهم ما حاق بهم عن الخصام فى الدين ، فان الطائفة « الملكانيـة » قضت يوماً من أيام المهلة الثلاثة فى تعذيب الأقباط الذين سجنوا فى الحصن قبل الحصار ، حتى انهم قطّعوا أيديهم وأرجلهم

فتح الاسكندرية

ولما أخلى الروم الحصن بادر عمرو الى اتمـام فتح البلاد فسار الى الاسكندرية واستولى فى طريقه على مدينة «نِقيُوس»* . وكان «تيودور» قد جمع فلول جيشه معززاً بعدد كبير ، فالتقى العرب بالقرب من «دمنهور» فى موقعة عظيمة دامت أكثر من عشرة أيام واضطر الروم بعدهـا الى التحيّز الى الاسكندرية فاقتفى العرب آثارهم . وكانت الاسكندرية عظيمة التحصين وبها من الروم ٥٠٠٠٠ مقاتل وكان يُتوقع أن تصد العرب زمناً طويلاً : فلا هِىَ ضعيفة التحصين حتى يأخذهـا العرب عنوة ، ولا هم يستطيعون فى قلة عددهم حصرها براً وبحراً . لذلك ترك « عمرو » جيشاً بظاهرها (يوليو سنة ٦٤٤م) يرقبها ، وسار فى آخَر لاخضاع بعض بلاد الوجه البحرى الصغيرة . وفى خلال ذلك كان المقوقس قد عاد الى الاسكندرية وتولى منصب البطريق ثانية . وفى هذه المرة نجحت مساعيه ، فانه اقنع الامبراطور الجديد (وكان ضعيفاً) بضرورة الموافقة على تسليم

* موقعها الآن قرية ابْشادى بمديرية المنوفية على فرع النيل الغربى . وقيل أيضاً انها كانت تسمى « نخو »

الاسكندرية . ثم شرع سراً فى عقد معاهدة ثانية مع «عمرو» فتقابلا فى بابليون وعقدا الشروط الآتية :

معاهدة تسليم الاسكندرية

(١) ان تُدفع الجزية للمسلمين

(٢) أن يُعقد لذلك هدنة مدة ١١ شهراً

(٣) أن تجلو الجيوش الرومية من الاسكندرية

(٤) أن لايتدخّل المسلمون فى دين المسيحيين أو يستبيحوا كنائسهم

(٥) أن يُسمح لليهود بالإقامة بالاسكندرية

(٦) أن يسلم الروم ١٥٠ من جندهم و٥٠ من رجالهم غير المحاربين رهنا وضماناً لما تقدم

وعندما سمع أهل الاسكندرية وحاميتها بذلك هاجوا غضباً وكادوا يفتكون «بالمقوقس» لولا ما أُوتيه من البلاغة ، فانه تمكن بها من اقناعهم بان ما وقع خير لهم من أى شيء . وفى أول محرم سنة ٢١ هـ (١٠ ديسمبر سنة ٦٤١ م) دُفعت الجزية ودخلت الاسكندرية فى قبضة العرب . ويُعتبر تسليم الاسكندرية من الوجهة الحربية أمراً لم يكن فى الحسبان ، فانها كانت تستطيع المقاومة ثلاث سنوات أو اربعا حتى يرسل اليها القيصر المدد الكافى لانقاذها . ولكن الاسكندريين كانوا قد سئموا تقلبات الروم وسوء حكمهم فى الأربعين سنة الأخيرة ، فسهل عليهم التأثر ببلاغة المقوقس ورجوا أن ينالوا فى ظل المسلمين هدوا وسلاما

ولا شك أن المقوقس كان أكبر مساعد على تسليم الاسكندرية ، وربما كان له فى ذلك مأرب خاص وهو جعْل بطريقيته مستقلة عن

« القسطنطينية » ، فرأى أن ذلك أسهل فى عهد المسلمين منه فى عهد أمة مسيحية

(هـ) كلمة فى الأمويين والعباسيين

(١) دولة بنى أُمَيَّة

٤١—١٣٢ هـ (٦٦١—٧٥٠ م)

معاوية

تمت الخلافة لمعاوية (٤١—٦٠هـ : ٦٦١ — ٦٨٠م) فكان بذلك مؤسساً لدولة بنى اميّة * وأقام بدمشق فبقيت دار الخلافة العربية ٩٠ عاماً . وكان موقعها أوفق لمقر الملك من سابقتيها « المدينة » و « الكوفة » لاتساع أملاك المسلمين التى كان «معاوية » يرمى الى مدها شمالاً حتى يستولى على القسطنطينية ، ومع أنه لم يتم له ذلك وأُحرق اسطوله فى حصار تلك المدينة فُتحت فى عهده بعض بلاد التركستان و بلاد الأفغانستان وشمالى الهند و بلاد البربر (الجزائر ومراكش) ورودس . ثم حمل الناس على البيعة لابنه «يزيد» فقبلها العرب لأن الغلَب والعصبية كانا لبنى أمية والمصلحة تقتضى ذلك . وخالف بعض الصحابة فلم يستطيعوا اخراج الخلافة من بيت بنى أُميَّة بل بقيت فيهم ملْكاً عضوضاً . وأعظم خلفاء بنى أُميّة بعد معاوية

عبد الملك ابن مروان

« عبد الملك بن مَرْوان » (٦٥ — ٨٦هـ : ٦٨٥ — ٧٠٥ م)، فهو المجدّد الثاني للملك والمستخلص له من يد الخليفة عبد الله بن الزبير الذى دانت له الممالك الاسلامية عقب موت معاوية . وبلغت دولة بنى أُميّة أقصى

الوليد

مبلغها فى عهد « الوليد بن عبد الملك » (٨٦— ٩٦ هـ : ٧٠٥ — ٧١٥م) .

---

* نسبة الى « أميَّة بن عبد شمس » جدّهم

ولى الخلافة والملك ثابت الدعائم فسهر على توسيع الأملاك الاسلامية فجدّت جيوشه فى الفتوح شرقاً حتى مدينة «سَمَرْقَنْد» ونهر «السِّنْد». ولما ثاورت برابرة المغرب بالمسلمين بعث اليهم الوليد «موسى بن نُصير» بجيش عظيم فتح بهِ عامة بلاد المغرب وثبت فيها سلطان العرب الى المحيط . ثم بعث موسى بمولاه «طارق بن زِيَاد» فى جيش الى «الأندلس» فقهر جيوش «القوط» (قبائل القوط الغربية) فى موقعة (شَرِيش) سنة ٩٢ هـ (٧١١م) ودخلت الأندلس بأسرها فى الأملاك العربية

وبينما كانت جيوش الوليد تجدّ فى فتح البلاد وتظهر للعالم مهارة العرب فى الحرب كان هو يلتفت الى داخل بلاده وتهيئة ما يلزمها من أسباب التقدم والعمران . وكان له ولع شديد بالعمارات العظيمة ، فبنى جامع بنى أُمية العظيم وداراً للعجزة والمرضى بدمشق ، وجدّد مسجد النبي صلى الله عليهِ وسلم بالمدينة . ويمكن اعتباره فى الحقيقة المحرض الأول على انشاء العمارات العربية . ومات الوليد سنة ٩٦ هـ (٧١٥ م) وسلطان المسلمين يمتد من المحيط الاتلنتى الى الصين وجبال الهند . ومن بلاد السودان واليمن الى سهول سيبريا وهى اكبر مساحة وصلت اليها المملكة العربية

سليمان ابن عبد الملك

وبعد وفاة «الوليد» دخلت الدولة فى طور تقهقر ووقفت الفتوح العربية العظيمة . ولما خلف الوليدَ أخوه «سليمان بن عبد الملك» سيّر جيشاً واسطولاً عظيمين الى «القسطنطينية» فلم يستطيعوا الاستيلاء عليها . على ان الجيوش العربية فى الاندلس كانت سائرة فى فتح جنوبى فرنسا حتى وصلت الى نهر «اللوَار» ولكنها التقت بجيوش «شَرْل مَرْتِل» فى موقعة «بُواتيه» (تُور) سنة ١١٤ هـ (٧٣٢ م) فقتل قائدها واضطر

المسلمون الى التراجع الى الأندلس ، ولم يفكروا بعدها فى فتح فرنسا

ومن ذلك الحين كثرت الفتن الداخلية فى دولة بنى أُميّة وقويت الأحزاب المشايعة لأهل البيت ولبنى العباس . ثم أخذ أمر دعاة بنى العباس يستفحل فى خراسان بزعامة « أبى مسلم الخراسانى » حتى أقبلت جيوشه من « خُراسان » والتقت بجيوش « مروان بن محمد » آخر خلفاء بنى أُميّة على نهر « الزّاب » أحد فروع « دجلة » ، فانهزم مروان وتبعته جيوش العباسيين الى الشام فمصر حتى لحقته بقرية بوصير من مديرية الجيزة وقتلته . وبذلك انقرضت دولة بنى أُمية سنة ١٣٢ هـ (٧٥٠ م)

وكانت دولة بنى أمية من أعظم دول الاسلام . وهى الدولة العربية المحضة التى حافظت على الشعار العربى فى لبسها ومعيشتها وحكومتها ، وكانت السلطة فى زمانها كلها بيد العرب . ويرجع سقوط هذه الدولة الى جملة أمور منها :

اسباب سقوط الدولة الأموية

(١) مزاحمة بيتين عظيمين لهم فى الخلافة : هما بيت العلويين والعباسيين ، ولكل شيعة عظيمة تنصره لقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم

(٢) كثرة الخوارج الذين لا يرون وجوب انتخاب الخلفاء من قريش

(٣) تهاون الطبقة الثانية من أبناء خلفائهم بامر الملك واشتغالهم باللهو ومشاحّة بعضهم لبعض وتنازعهم فى الخلافة

(٤) ترفعهم على الأجناس المحكومة من الفرس والترك والروم وغيرهم ، فقلما كانت تتخذ منهم ولاة أو قواداً أو تتزوج منهم ، مما بغّضهم فيهم وجعلهم ينصرون العباسيين عليهم

الدَّولةُ العربيَّة

والبلاد التي خضعت لسلطانها

وضعه الشيخ محمد فخر الدين المدرس بمدرسة المعلمين الناصرية

(٢) الدولة العباسية

(١٣٢ — ٦٥٦ هـ : ٧٥٠ — ١٢٥٨ م)

مبدأ أمر هذه الدولة ان الأمويين اضطهدوا جد العباسيين (على ابن عبد الله بن عباس) ونفوه الى قرية من بادية الشام ، فمرّ بولده محمدٍ فيها أحدُ زعماء العلويين مريضاً فتنازل لمحمد عن حقوق المطالبة بالخلافة ولُقب بالإمام ، فسهَّل ذلك عليه وعلى أولاده دعوةَ الناس سراً الى بيعتهم ، فعظم شأن شيعتهم فى خراسان بزعامة « أبى مسلم الخراسانى » ثم زحفوا على العراق فظهر «عبدالله السفَّاح» بن محمد وبايعه أهل الكوفة سنة ١٣٢هـ (٧٥٠ م) فكان بذلك مؤسساً للدولة العباسية . ثم تتبع بنى أُميَّة قتلاً وحبساً فهاموا على وجوههم فى أنحاء البلاد* . واتخذ السفاح مدينة الأنبار بقرب الكوفة داراً للخلافة . وهو أول من اتخذ الوزراء ، وكانت مدته القليلة مدة تأييد لدعائم الملك وترتيب لنظام حكومته . ومات بالأنبار بعد ٤ سنين وعمره ٣٣ سنة

السفاح

---

* وهرب منهم « عبد الرحمن بن معاوية » ابن الخليفة « هشام » فسار الى « الاندلس » حيث وجد كثيرًا من عسكر آبائه وشيعتهم فتغلب على تلك البلاد وأسس بها دولة أموية مستقلة كانت تضارع العباسية فى العلم والحضارة وعاصمتها « قرطبة » . ومن أشهر خلفائها « عبد الرحمن الناصر » الذى نافست قرطبة فى عصره بغداد . وبقيت دولتهم الى سنة ٤٢٢ هـ (١٠٣١م) ثم ورثهم ملوك الطوائف من العلويين وغيرهم فأخذ الأسبان ينقصون الأندلس من أطرافها بلداً بلداً . ثم استولى عليها ملوك البربر من « المُلَثَّمين والموحدين ثم بنو الأحمر » من العرب حتى سقطت فى يد الأسبان سنة ٨٩٧ هـ (١٤٩٢ م)

المنصور

ثم ولى الخلافة بعهد منهُ أخوه « أبو جعفر المنصور » ، وهو شيخ العباسيين وأعظم خلفائهم والمؤسس الحقيقى لدولتهم : لم يكد يلى الخلافة حتى خرج عليهِ أشراف العلويين و بعض أعمامه وتفاقمت الثورات والفتن ، وطمع « ابو مسلم الخراسانى » نفسه فى انتزاع الملك من بيتهِ فاحتال عليهِ بحسن سياسته ودهائه وقتله وأخمد الفتن والشرور ، حتى اذا صفا له الجوّ أقبل يرغّب العلماء فى التأليف والتصنيف فكان عصره أول عصور وضع العلوم الاسلامية العربية . وفيهِ تُرجم كثير من كتب الفرس وغيرهم . و بنى « المنصور » مدينة « بغداد » وجعلها عاصمة له . وما زال ملك أبنائه بها حتى صارت أزهى وأفخم مدينة فى الدنيا . وكان رجل جدّ واقتصاد وعلم وفضل . مات سنة ١٥٨ﻫ (٧٧٥م) وترك خزائن الدولة مفعمة بالأموال فكان ذلك سبباً فى مساعدة الخلفاء من بعده على تنمية الآداب والعلم والحضارة

الرشيد والمأمون

و بلغ هذا الرقىّ أقصاه فى عهد «هرون الرشيد» (١٧٠ — ١٩٣ ﻫ : ٧٨٦ — ٨٠٩ م) وابنه « عبد الله المأمون » (١٩٨ — ٢١٨ ﻫ : ٨١٣ — ٨٣٣ م) ، فانهُ فى عهدهما بلغ العرب أقصى مبلغ من الحضارة وتمتعوا بأعظم أسباب النعيم والرفاهية . وظهر فى بغداد شغف بالعلوم والآداب والفنون والفلسفة لا يكاد يكون له نظير فى تاريخ العالم بأسره

و بعد أيام « المأمون » أخذ الانحلال يتسرّب الى جميع أنحاء الدولة باتخاذ المعتصم جنوداً عظيمة من مماليك الأتراك يستعزّ بهم على العرب والفرس ، فعظم شرهم فى زمنه حتى خرج بهم من بغداد و بنى شماليها مدينة « سُرَّ مَنْ رَأَى » فاستفحل أمرهم بها ، واستطالوا على الخلفاء من أولاده

وأحفاده : يخلعونهم ويقتلونهم ويسملون أعينهم . وسقطت مهابة الخلفاء من أعين الولاة ، فاستبدوا بنواحيهم ، وكثر الخوارج والمفسدون من الزّنج [١] والقرامطة [٢] ونشأت الدولة السامانيـة ببخارى ، والدّيْلَميَّة بفارس والعراق ، وبنو حمدان بالجزيرة ، والطولونية ثم الإخشيدية (مع الاعتراف بسيادة الخليفة) ثم الفاطمية ثم الأيوبية بمصر والشام . ثم ورث السَّلْجُوقيُّون الإمارات الشرقية ، أى ما عدا مصر والشام ، واستولوا على ديوان الخليفة ببغداد حتى أصبح لا حَلَّ له ولا عقد ، واستمرّ ذلك الى زوال الخلافة حتى أغار التتار بقيادة زعيمهم « هولاكو » فاستولوا على بغداد سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) بمساعدة الخائن « مؤيّد الدين بن العلقمى » وزير المستعصم آخر خلفاء بغداد ، وقتلوا الخليفة وأهله ومثّلوا بهم . وبموت المستعصم سقطت الخلافة العباسيـة من بغداد . وفرّ بعض الخلفاء الى مصر فى زمن الملك الظاهر بيبَرْس . فأنزلهم وخصص لهم بعض وظائف لمعاشهم ، وبقوا فيها حتى جاء السلطان سليم الى مصر وافتتحها من يد المماليك فبايعه الخليفـة المتوكل آخر خلفاء العباسيين بمصر بالخلافة ، فانتقلت بذلك الى العثمانيين سنة ٩٢٢ هـ (١٥١٧ م)

سقوط بغداد

وكانت الدولة العباسية دولة عظيمة الشأن قوية السلطان طويلة العمر ، انتشرت فى مدتها العلوم والمعارف واتسع نطاق الفنون والصناعة والزراعة ، وبلغت من الحضارة مبلغاً لم تصل اليه دولة اسلامية بعدها .

---

(١) جمَعَ أحدُ المدّعين الانتماء الى علىّ جيوشاً من الزنج وخرج بهم على العباسيين (٢) فرقة دينية مبدؤها التشيع لعلىّ أيضاً ولكنها معتبرة عند أكثر الناس خارجة على أصول الإسلام

وقد كان قيامها بمساعدة الفرس ، فلذلك كانت حكومتهـا فارسية الصبغة وآثر خلفاؤها الفرس ثم الترك على العرب بالمناصب والعطاء

ومن أهم أسباب سقوطها :

اسباب سقوط الدولة العباسية

(١) اقطاع خلفائهم الولايات القاصية لبعض الولاة وذراريهم مكافأة لهم على خدمة ، فاستقلوا بها

(٢) ابعادهم أهل العصبية من العرب لتوهمهم ميلهم الى العلويين واستعاضوا عنهم بالفرس والترك ، فكانوا معهم كالمستجير من الرمضاء بالنار ، فخرجوا عليهم

(٣) عدم سَنّ نظام لولاية العهد ، فولّى أصحابُ القوة فى الدولة من الترك والديالم الصبيانَ والأطفال منصبَ الخلافة واستبدّوا هم بها

(٤) انتشار مذاهب الشيعة بتعضيد المستبدّين بالملك من الفرس والديلم وغيرهمـا ، حتى آل الأمر الى استدعائهم التتار لنزع الخلافة من العباسيين وجعلها فى يد العلويين فاكتسحوا الطائفتين

(٥) تكوين الدولة العباسية من عدة شعوب قوية ذات حضارة قديمة كل منها يعمل على إعادة دولته ، فسّهل ذلك انقسام الدولة الى عدة ممالك وإمارات أعقبها الفناء

الفصل الثانى

مصـــر

فى عهد الخلفاء الراشدين و بنى أُمية وصدر بنى العباس

(٢١ — ٢٥٤ هـ (٦٤١ — ٨٦٨ م)

فُتحت مصر فيما بين سنتىَ ١٨ و ٢٠ هـ (٦٣٩ — ٦٤١ م) . و بعد قليل أُلحِق بها جزء من بلاد النُّوبة ثم بلاد بَرْقة ثم بلاد إِفريقيَة (تُونِس)

﴿ شكل حكومة مصر ولواحقها ﴾

كانت هذه البلاد منذ افتتحها المسلمون الى ان تولاها أحمد بن طُولُون سنة ٢٥٤ هـ (٨٦٨ م) ولاية بحتة ، أى معتبرة جزءًا من أملاك الخلافة يحكمها والٍ يُرسَل من قِبَل الخليفة ، مطلق التصرُّف غالباً فيما يوافق سنن الإسلام وتقتضيهِ العدالة ، ولأهل الرأى من قوَّاد العرب ووجوه الناس وأكابر العلماء والفقهاء عنده قول مستمَع ، ورأى متبع . ولم يغيّر المسلمون فى بدء فتحهم كثيرًا من شكل النظام الإدارى ، وهو فى الجوهر تقسيم مصر الى كُوَر أو أعمال يرأس كلاًّ منهـا حاكم خاضع فى إدارتهـا لإشارة الوالى ويصدر أوامره الى من تحت ادارتهِ من رؤساء القرى ، وذلك شبيه جداً بالنظام المتبع الآن . كذلك لم يغيّر العرب كثيراً من طرُق الرى وجِباية الخَراج وكتابة الدواوين ، غير انهم جرَّدوا بقايا الروم من أعمال الحكومة ووضعوها فى أيدى الأقباط لعظيم ثقتهم بهم ،

حفظ النظام القديم

وأبقوا لأنفسهم المناصب السياسية والدينية . ولما تعلّم العرب فنون الإدارة وكتبوا الدواوين بالعربية بَدل القبطية فى ولاية «عبد الله بن عبد الملك بن مروان» سنة ٨٧ هـ (٧٠٦ م) ، وزاحموا القبط بعض الشيء ، وحرموهم بعض مزاياهم تألّبوا مراراً وخرجوا على العرب وحاربوهم ، وقابلهم هؤلاء بالقوّة ، فلم يسعهم الاّ تعلّم العربيـة واعتناق الإسلام ، فأسلم كثير منهم وصاهروا العرب وامتزجوا بهم وانتظموا فى سلك الحكومة ، ثم أخذ نظام الحكومة الإدارى يتغيّر بعد ذلك بمناسبات الأحوال

انواع الولاة وحقوقهم

وكان الولاة بحسب مقدرتهم وثقة الخليفة بهم : إمّاً ولاةً مطلقةً لهم الحرية ، يقومون بأعمال جميع المناصب الثلاثة العظيمة التى تدور عليها رحى الولاية ، وهى إمامة الناس فى الصلاة وجباية الخراج وقيادة الحرب ، وإمّاً ولاةً خاصةً مقصورين على واحدة أو اثنتين منها . وكل والٍ خاص يرسل بعهد خاص من الخليفة ولا يملك أحدهم عزل الآخر ، وإن كان صاحب الحرب أو صاحب الصلاة له الزعامة والإشراف على غيره غالباً

وربما ولّى الخليفة والياً عاماً على ولايات الغرب كلها أو بعضها فينيب هذا عنهُ بعهد منهُ والياً على مصر كما كان يقع فى عهد بنى العباس

ومن حقوق الوالى المطلق الصلاة بالناس فى الأوقات الخمسة والجمعة والعيدين ، والخطبة بهم فيها وفى الحوادث العظام ، وانتخاب أعوانه من الحكام وجُباة الخراج وقادة الجيوش ، ونصب القضاة وأصحاب الشرطة والمظالم وغيرهم من كبـار العمال ، بشرط انتخابهم من أشراف العرب أو أفاضل الموالى* المسلمين ، وتنفيذ الأحكام والحدود من القصاص وغيره .

* الموالى هم سكان البلدان الأصليون او من جرى عليهم رق ثم اعتقوا

ولا يرجع الى الخليفة غالباً فى شىء من ذلك . فالوالى مستقل فى الحقيقة نوع استقلال داخلى ، إلا أن حكمه مؤقت قصير المدى ، فكان الخليفة يستبدل بهِ غيره عند ظهور أى عيب فيهِ ولو صغيراً أو وقوع ظلم منه ، وربما كان ذلك سبباً فى انصراف كثير من الولاة المصلحين عن القيام بالأعمال النافعة العظيمة

مقر الحكومة

بنى عمرو بن العاص عقب الفتح مدينة « الفُسْطاط* » (وموضعها الآن جامع عمرو وما جاوره) وجعلها مقراً لإمارته . وبقيت كذلك الى العصر العباسى ، فبنى « أَبُو عَوْن » قائد جيش العباسيين المقتفين أثر مَرْوَان (آخر خلفاء الأموية الهارب الى مصر) مدينة «العسكر» شمالىّ الفسطاط حيث نزل عسكره ، فسكنها أكثر ولاة بنى العباس الى زمن « ابن طولون »

---

* قال « المقريزى » فى وصف موضع الفسطاط ما يأتى :

« اعلم ان موضع الفسطاط الذى يقال له اليوم مدينة مصر كان فضاء ومزارع فيما بين النيل والجبل الشرقى الذى يعرف بالجبل المقطم ، ليس فيه من البناء والعمارة سوى حصن يعرف اليوم بعضه بقصر الشمع وبالمعلقة ، ينزل به شِحْنَة الروم المتولى على مصر من قبل القياصرة ملوك الروم عند مسيره من مدينة الاسكندرية ، ويقيم فيه ما شاء ، ثم يعود الى دار الامارة ومنزل الملك بالاسكندرية . وكان هذا الحصن مُطِلاًّ على النيل ، وتصل السفن فى النيل الى بابه الغربى الذى كان يعرف بباب الحديد . . . . . . وكان بجوار هذا الحصن من بحريه وهى الجهة الشمالية اشجار وكروم صار موضعها الجامع العتيق . وفيما بين الحصن والجبل عدة كنائس وديارات للنصارى . . . . . . »

﴿ الْخَرَاجُ وَالنَّفَقَاتُ ﴾

نوعا الجزية

لما فتح العرب مصر ضربوا على أهلها الجِزْية: جزية الرءوس والأرض. فأما جزية الرءوس فكانت دينارين (جنيهاً واحداً) على كل رجل قادر على العمل، وأُعفى منها الصبيان والشيوخ والرهبان والنساء. وأما ضريبة الأرض فكان على كل قرية نصيب يختلف باختلاف غلّتها وعُمرانها وخرابها، وعلى أهل القرية من ذلك ضيافة من يمر عليهم من جند الحامية ثلاثة أيام. وكان مجموع ما يجبيه المسلمون من الجزية وخراج الأرض أقل كثيراً مما كان يجبيه الرومان، ولذلك أحب القبط ومُلاّك الأرض من الروم أنفسهم حكم المسلمين ونصحوا لهم فى خدمتهم. وكان لكل قرية مجلس محلى من رؤسائها يقررون ارتفاع القرية (أموال ضرائبها السنوية) ويوزّعون أرضها على القادرين على زرعها. ويقومون بتأدية خراجها الى عمال الخراج. وكان ذلك فى أول الفتح. ثم صاروا يؤدونها إلى أصحاب الالتزام وهم الذين يرسو عليهم خراج النواحى مدة ثلاث سنوات بعد اعلان التزايد فيها بمسجد عمرو، وهؤلاء يجمعون الخراج بواسطة أعوانهم ومعاونة الحكومة أحياناً ثم يقدمونه الى صاحب الخراج (شبيه بوزيرى المالية والأشغال)

أرض مصر وعدد سكانها

وكان أكثر الخراج يجبى من جزية الرءوس التى تضرب على أهل الذمة فقط، ويرسل جزء كبير منهُ للخليفة لقلة جالية العرب بمصر يومئذ. وبلغ مجموع ما جباه عمرو من الخراج فى السنة ١٢،٠٠٠،٠٠٠ دينار جمعت على الأرجح على الوجه الآتى:

(١) ٣،٠٠٠،٠٠٠ جزية الأراضى عن الف الف وخمسمائة الف من

الفدادين المزروعة (مليون ونصف)

(٢) ٨٫٠٠٠٫٠٠٠ جزية الرءوس على أربعة آلاف الف من الذكور البالغين (أربعة ملايين)

(٣) ١٫٠٠٠٫٠٠٠ ضرائب شتى

فلما فشا الإسلام فى القبط وكثر ورود قبائل العرب الى مصر وزاد عدد مقاتلتهم بها قلّ المتحصل من جزية الرءوس ، وكثرت النفقة على جنود الديوان ، فكان صافى الخراج بعدئذ دون ثلاثة آلاف الف ، واذا حسنت وجوه العمارة واستُقصيت أبواب الجباية بلغ أربعة آلاف الف، وقلما زاد على ذلك

﴿ القضاء والشرطة والمظالم ﴾

كان من حق الوالى بمصر تنصيب القضاة وعزلهم من غير مراجعة الخليفة . واستمر ذلك الى أوائل الدولة العباسية إذ وَلَّى « أبو جعفر المنصور » ابنَ لَهِيعة القاضى بأمره ، واجرى عليه ثلاثين ديناراً فى الشهر

القضاة واختصاصهم

وكان قاضى الفسطاط ينيب عنهُ قضاة البُلدان الأُخرى ، أو يعينهم الوالى رأساً . وكان مجلس القاضى إما فى المسجد الجامع غالباً وإما فى داره ، وقلَّما يجلس فى دار الإمارة . ولم يكن يشترط فى القاضى أن يقضى بمذهب خاص ، بل يكون مجتهداً أو على مذهب أحد الأئمة . وكان منصب القاضى فى ذلك العهد من أهم المناصب واكثرها عملاً ، وكان من أعماله الفصل فى الدعاوى والأوقاف والنفقات ونصب الأوصياء ، وأحياناً تضاف اليهِ الشُرطة والمظالم وبيت المال ، ولذلك كان القضاة يختارون من أغزر الناس

علماً وأكثرهم فضلاً . ومن أعظم من اشتهر منهم بالفضل والاستقامة والعدل القاضي « غَوْث » بن سليمان المتوفى سنة ١٦٨ هـ ، ولي قضاء مصر مراراً ، ولم يمنع عن الوصول إليه متظلم قط . ومنهم أيضاً « المُفَضَّل » خلفُهُ ، وهو أول من أمر بتدوين الاسباب المبنى عليها الحكم باكملها . وقد كان الكثير من القضاة يتنحّى عن تقلد هذا المنصب لكثرة أشغاله وخطورة مسئوليته ، ولم يقبله « أبو خُزيمة » إلا بعد أن نادى الحاكم بالجلّاد

بعض مشاهير القضاة

الشرطة

أما الشرطة فكان يليها غالباً عامل خاص يسمى « صاحب الشرطة » (حكمدار البوليس) وله ما لهذا في زماننا تقريباً

المظالم

وأما صاحب المظالم فهو الذي ينظر في القِصَص* والشكاوى التي ترفع اليه من الرعية تظلما من عمال الحكومة أو غيرهم ، فيفصل في بعضها بنفسه أو يحيل النظر فيها على القاضي . ونظيره الآن النائب العمومي وأقلام قضايا المصالح

﴿ المقاتلة ﴾

كانت تُعرف رجال الجيش بالمقاتلة ، ويسمون أيضاً « أصحاب الديوان » أي أصحاب الأعطيات التي تصرف لهم في الديوان كل سنة . وكان كلهم من العرب ، بل كان كل عربي ينزل الى مصر يُفرَض له ولأولاده وعياله فرض في الديوان . وكانوا يُنهَون عن الاشتغال بالزراعة . ويُعاقبون على ذلك لئلا ينسوا ملكة الحرب . ويقودهم في الحرب والى مصر . ولكن لما وفر عددهم وزادوا عن حاجة الديوان زاوَلوا الزراعة ودخلوا في غُمار الفلاحين

---

* القصص هي العرائض

بالتدريج . وبقى العرب هم أصحاب الفروض فى الديوان الى عهد الدولة العباسية ، فاشتركت معهم فيه المقاتلة من الفرس والترك حتى أمر « المعتصم » الخليفة العباسى (جازاه الله) بإخراج العرب من الديوان وحرمانهم من العطاء ووضع الترك بدلهم ، فحلّت الجيوش العربية ، وثاروا على الحكومة مراراً فقهرتهم ، ومن ذلك تضعضعَ سلطان العرب فى مصر وزالت دولتهم ، واشتغلوا بالزراعة وصاروا مزارعين . وكان جزاء الدولة العباسية من الترك فى مصر أن خرجوا عليها واستقلوا بها

﴿ الرى والزراعة والتجارة ﴾

كانت الأعمال الخاصة بهندسة الرى من كرى الخلجان وإقامة الأحواض والقناطر والجسور وتقدير الأقنية ونحو ذلك تقوم بشؤونها الحكومة نفسها فى مبدأ الفتح ، ويتولى ذلك صاحب الخراج (صاحب المالية والأشغال) جرياً على النظام الذى كان متبعاً زمن الرومان

ثم لما ضعف شأن الولاة أضيفت هذه الأعمال الى أصحاب الالتزام فأهملوها وقلّ بذلك العمران تدريجاً . وكان أكثر ريها بالحياض النيلية فتقتصر على الزراعة الشتوية . وبعض أرض الفيوم والوجه البحرى تروى بالترع والسواقى فتُخرج الزراعة الصيفية أيضاً . وكان يزرع بمصر الكتان والقمح وباقى الحبوب وكثير من الكروم والنخيل والفاكهة

وكانت تجارة مصر الى الخارج فى الحبوب والمنسوجات الكتانية التى كانت تضارع فيها وقتئذٍ أصنع أهل الدنيا

ومما كان يساعد على انتشار التجارة بين مصر وغيرها البحران

الأحمر والأبيض ، ونهر النيل ، وكثرة الترع ، خصوصاً خليج أمير المؤمنين الذى كان يصل النيل بالبحر الأحمر ، وبقى الى صدر الدولة العباسية حتى ردمه المنصور

﴿ أهل البلاد ﴾

كان أهل مصر فى أول الفتح هم جمهور الأقباط وبقايا الروم ومهاجرة العرب ، فكان القبط هم المزارعين وأرباب الوظائف الصغرى والوسطى. وكان العرب هم الحامية وأهل الحرب . ثم اشتغل العرب بعد نحو قرن بالزراعة . واسلم كثير من القبط وصاهروا العرب ، فضُربت على العرب المزارعين الضرائب التى كانت تضرب على القبط فقبلوها إذ كانت معتدلة . ثم اشتطّ بعض العمال فى زيادة الضرائب وجباية الرءوس فكان ذلك سبباً فى كثير من الفتن

وكان القبط حينئذٍ على حال عظيم من الرخاء ، ومما قيل فى وصف ذلك ان عجوزاً منهم من أهل طاء النمل أضافت المأمون بجيوشه ثلاثة أيام ، وقدّمت له هدية أربعة آلاف دينار من ضرب سنة واحدة*

﴿ أشهر الولاة وأهم الحوادث فى هذا العهد ﴾

عمرو بن العاص

أول ولاة مصر من المسلمين فاتحها العظيم «عمرو بن العاص» القرشى ولاّه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ولاية مطلقة . وكان «عبد الله بن سَعْد ابن ابى السَّرْح» عامله على الوجه القبلى. وبقى عمرو والياً على مصر ولواحقها

* الحكاية مبسوطة فى كتاب خطط المقريزى فى فصل نزول العرب بمصر من الجزء الأول وفى غيره ببعض تغيير

قائماً بالعدل محبوباً عند القبط وجنود العرب ضابطاً لبلاده أحسن ضبط طول خلافة عُمر . وقد قام فى هذه المدة بكثير من الإصلاحات العظيمة ، فنظم الإدارة وأصلح القضاء ورسم الخطة الأولى فى جباية الخراج . ثم انه عُنى كثيراً بالأعمال الخاصة بهندسة الرى من كرى الخلجان واصلاح مقياس النيل وانشاء الأحواض والقناطر والجسور ، فسخر فى ذلك ١٢٠٫٠٠٠ عامل لا يفترون عن العمل صيفاً وشتاء وبذا تمّ كرى الخليج القديم الموصل بين النيل والبحر الأحمر فى أقل من سنة، وسماه «خليج أمير المؤمنين » فصار القمح يرسل الى المدينة بحراً بعد أن كان يرسل بطريق القوافل. ولم تلهه هذه الاصلاحات السلمية عن الواجبات الحربية ، فانهُ فى سنة ٢١ هـ (٦٤١ — ٦٤٢ م). «ارسل عبد الله بن سعد» فى عشرين الف مقاتل لاخضاع فى بلاد النوبة . وفى سنة ٢٤ هـ (٦٤٥ م) أوائل ولاية عبد الله بن سعد الآتى ذكره صدّ غارة للروم عن الاسكندرية ، وكان قائدهم « منْويل » فهزمهم شرّ هزيمة وهدّم أسوار الاسكندرية . على ان أمير المؤمنين « عمر بن الخطاب » كان يأخذ عليه قلة الخراج الذى يجبيه ، فإن أكبر خراج جباه لم يزد عن ١٢٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار

خليج أمير المؤمنين

اخضاع النوبة وصد الروم بالاسكندرية

عبد الله بن سعد

ثم لما ولى أمير المؤمنين عثمان بن عفان عزله وولى بدله « عبد الله ابن سعد بن أبى السَّرْح » فلم يقلّ عن عمرو كثيراً فى ادارتها ، وجعل همه الفتح ففتح بقية برقة وإفريقية . وفى سنة ٣١ هـ (٦٥٢م) غزا بلاد النوبة حتى « دُنْقُلة » وفرض عليها جزية سنوية تشمل ٣٦٠ رأساً من الموالى ، على أن يمدّهم بمعونة من الحبوب وغيرها ، وبقى هذا الاتفاق نافذاً الى عهد المماليك . وكسر الروم فى البحر كسرة شنيعة بالاسكندرية سنة ٣٤ هـ

(٦٥٥ م) وتعرف بغزوة ذات الصوارى . وتشدد فى أوجه الاقتصاد وتنمية الخراج حتى جباه ١٤٠٠٠٠٠٠ دينار فكرهه بعض القبط والعرب ، وبقى الى قبيل قتل عثمان . ثم حدثت فتنة عثمان فطرده عرب مصر ورحل منهم فريق الى المدينة اشتركوا فى قتل عثمان

وولى أمير المؤمنين « علىّ بن ابى طالب » والياً من قبله ثم صرفه وولى « محمد بن ابى بكر الصديق » فقتله جيش معاوية الداخل الى مصر بقيادة عمرو بن العاص

ثم تولى « عمرو بن العاص » ثانية بتنازل من معاوية له عن مصر بان تكون طُعْمة له ولولده من بعده فى نظير نُصرته له على علىّ بن ابى طالب . فبقى والياً عليها وقواده يجدون فى فتح أفريقية والمغرب الأقصى حتى مات سنة ٤٣ هـ (٦٦٣ م) ، ودفن بسفح المقطم ، وكان عمره إذ ذاك ٩٠ سنة . ومن آثاره مسجده العظيم بالقرب من مصر القديمة

وولى بعده ولده « عبد الله بن عمرو » فعزله معاوية بعد سنتين ، وولى مكانه أخاه « عُتْبَة بن أبى سُفيان » وكان خطيباً مُفَوَّهاً ، فمكث ستة أشهر . ثم ولى « عُقْبة بن عامر الجُهَنِىّ » المشهور قبره بالقرافة ، فصُرف بعد سنتين وثلاثة أشهر وجُعل أميرًا للبحر ففتح «رودس». وهو أول من وضع الأعلام على السفن من المسلمين . وولى بعده « مَسْلَمَة ابن مُخَلَّد » ، وفى امارته نزلت الروم البُرُلُّس فطردهم الى البحر . وهو أول من بنى منارات المساجد . وتوفى بعد ولايته بخمس عشرة سنة وأربعة اشهر . وكان من خيرة الولاة علماً وقراءة وعدلاً وجهاداً . ثم ولى «سعيد بن يزيد » ثم «عبد الرحمن بن عُتْبَة» من قبل عبد الله بن الزُّبير ،

عبد العزيز ابن مروان

ثم « عبد العزيز بن مَرْوان » من قبل أبيه مروان بن الحكم ، ثم من قبل أخيه عبد الملك بن مروان فكانت ولايته قريباً من احدى وعشرين سنة . وحدث فى مدته طاعون فى الفسطاط ، فسكن حُلوان وجعل بها الأعوان و بنى بها الدور والمساجد وعمرها أحسن عمارة وغرس بها النخيل والكروم ، فكانت القاعدة الثانية للديار المصرية مدة من الزمان

نسخ الدواوين بالعربية

ثم ولى « عبد الله بن عبد الملك بن مروان » وفى مدته نسخت دواوين مصر بالعربية بدل القبطية على يد « ابن يَعْفُور الفزارى » . ثم تولى بعده عدة ولاة من قبل بنى أمية كان آخرهم «عبد الملك بن مروان ابن موسى بن نُصير » ، وفى مدته هرب مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية الى مصر ، فلحقه «صالح بن على بن عبد الله بن العباس وأبو عون عبد الملك ابن يزيد » بجيشهما فقتلوه ببوصير من اقليم الجيزة . فكانت ولاة مصر منذ الفتح الى آخر بنى أمية ٢٨ والياً كلهم من العرب

انتهاء عهد بنى أمية

وتولى مصر «صالح» من قبل ابن أخيه ابى العباس السفاح سنة ١٣٣ ﻫ (٧٥٠ م) وسكن الفسطاط وأقام بها سبعة أشهر . ثم استخلف أبا عون بها ، فانتقل الى مدينة بناها شمالى الفسطاط سماها « العَسكَر » موضع نزول عسكره * ، فكانت مقر الولاة العباسيين حتى بنى احمد بن طولون « القطائع » شرقيها

العسكر

ثم توالت ولاة بنى العباس على مصر فتمّ انتقالها من يد الأمويين الى يد العباسيين بدون صعوبة كبيرة ، بل ان كثيراً من العمال والموظفين

---

* ومحلها الآن أبنية خط فم الخليج وأبى السعود الجارحى والماوردى وزينهم والبغّالة الى طولون والصحراء قبال كيمان البغالة وجبل قلعة الكبش

بقوا فى مناصبهم واخلصوا للعباسيين فى خدمتهم

كثرة الفتن

وفى عهد العباسيين كثرت الفتن والقلاقل فى البلاد ، ولم يكن للأقباط يد فيها أكثر مما كان للمسلمين انفسهم بسبب الخلاف بين الشيعة والسنيين ، وكان بمصر لكل من العلويين والخوارج طائفة تعززهم ، وتفاقمت العداوة بين الاثنين حتى أدَّت الى اضطراب مستمر . وساعدها على اضرام تلك النيران أهل « الحُوف » ، وهم عرب من قبيلة « قيس » كان قد أنزلهم « عبيد الله بن الحَبْحَاب » والى الخراج سنة ١٠٩ هـ (٧٢٧م) فى الحُوف الشرقى (الأراضى التى شرقى فرع النيل) ليساعدوا على انتشار الإسلام فى مصر

ثورة الخوارج ١٣٧ هـ

فمن ذلك ان الخوارج ثاروا سنة ١٣٧ هـ (٧٥٤م) ، إذ كان أبو عون » فى « برقة » لإخضاع البربر ، فاضطُر الى الرجوع الى مصر فقهر الثائرين وأرسل ثلاثة آلاف رأس من قتلاهم الى الفسطاط

خروج الاقباط ١٥٠ هـ

وفى سنة ١٥٠ هـ (٧٦٧ م) خرج الأقباط بجهة « سخا » وهزموا جيوش الحكومة وطردوا جباة الخراج . وكانوا قد خرجوا قبل ذلك مراراً على بنى أُمية بسمنود وبالصعيد فلم يفلحوا . ولكنَّ أمرهم استفحل هذه المرَّة حتى عمَّت الثورة جزءًا عظيماً من الوجه البحرى ، واستمر الحال كذلك عدة سنوات . ثم سلكت معهم الحكومة مسلك الشدة والاضطهاد تأديباً لهم حتى انتهى الأمر بكبح جماحهم

ومن الولاة الذين اتخذوا الشدة وسيلة لتوطيد الأمور « أبو صالح »

ابن ممدود اول الولاة الاتراك

المعروف « بابن مَمْدُود » ، وهو أول من ولى مصر من الأتراك ، وليها سنة ١٦٣ هـ (٧٧٩ م) ، فكان غاية فى الشدة : ضرب على السَّرَقَة وقطَّاع

الطريق من عرب الحوف وغيرهم بيدٍ من حديد حتى أصبح الناس يتركون منازلهم مفتوحة ولا يخشون عليها من سوء

فتنة ١٦٦ هـ

وفى سنة ١٦٦ هـ (٧٨٢ م) حدثت فتنة سياسية كبرى بالصعيد، فإن دِحْيَة بن مُصعَب الأموى ادَّعى الخلافة فانضمَّ اليهِ معظم الوجه القبلى وهزموا جيوش الحكومة. وانتهز عرب الحوف هذه الفرصة فخرجوا، فانهزمت جيوش الحكومة وقُتل الوالى. ولم تزل الأحوال فى اضطراب حتى ولى مصر «الفضل بن صالح» بن على العباسى. فانهُ أتى بجيش من الشام فهزم الثائرين عدة مرات فى الصعيد وقبض على المُطالب بالخلافة، ثم ضرب عنقه بالفسطاط وصلبهُ وأرسل رأسه للخليفة ببغداد

ومن سوء الحظ ان «الفضل» خالجهُ الغرور لِمَا رأى من انتصاراتهِ، فعزله الخليفة «المهدى». ومن بعده عاد الاضطراب وكثر عزل الولاة حتى انهُ فى عهد «الرشيد» تولى مصر ١٦ والياً فى اثنى عشر عاماً

عرب الحوف

وفى هذا العهد كثر خروج عرب الحوف: ففى سنتى ١٨٦ و ١٩١ هـ (٨٠٢ و ٨٠٦ م) ثاروا وامتنعوا عن دفع الضرائب وسلبوا أموال التجَّار والمسافرين، ثم انضمت اليهم قبائل البدو النازلة على الحدود، وأغاروا على الشام. ثم تجدَّدت ثورتهم بعد وفاة «الرشيد» عند ما تنازع «الأمين» و «المأمون» بسبب الخلافة، فرأى الأمين اكتفاءً لشرهم أن يعيّن رئيسهم والياً على مصر، فزادت بذلك شوكتهم وكبر شأنهم

مهاجرو الأندلس

ومما ساعد على ازدياد قوتهم انهُ فى سنة ١٨٢ هـ (٧٩٨ م) جاء الى الاسكندرية ما يزيد على ١٥٠٠٠ رجل من الاندلس عدا أطفالهم ونسائهم، طردهم من اسبانيا الأمير الأموى «الحكم» عقب فتنة كبيرة حدثت

بقُرْطُبَة . ولم يمضِ زمن طويل حتى تدخَّلوا فى شؤون مصر السياسية ، وانضموا الى عرب « لَخْم » ، واستولوا على الاسكندرية سنة ١٩٩ ﻫ (٨١٥ م) . وما زالوا فى حرب مستمر ، مع الحكومة تارة ، ومع الساخطين من عرب الحوف أخرى ، حتى أرسل اليهم « المأمون » سنة ٢١١ ﻫ (٨٢٦ م) قائداً من أعظم قواده وهو « عبد الله بن طاهر »* فاستولى على الاسكندرية بعد ان حاصرها أربعة عشر يوماً ، فخرجوا منها بنسائهم وأطفالهم ونزلوا بجزيرة « إِقرِيطِش » (كريد) سنة ٢١١ ﻫ (٨٢٧ م)

عبد الله ابن طاهر

وكان ابن طاهر قد بدأ بقتال الوالى السابق فتغلب عليهِ وأخرجهُ من « الفسطاط » . ثم عمل على تنظيم الجيش ونشر الأمن حتى دانت له البلاد . وأراد « المأمون » مكافأته على ذلك فوهب له الجزية بأكملها سنةً ، وكانت إذ ذاك ٣،٠٠٠،٠٠٠ دينار

وكان « عبد الله » من أحسن الحكَّام الذين ولوا مصر ، له ولع بالعلوم ، حريص على اكرام العلماء والشعراء . ومن أعماله انهُ جدّد بناء جامع عمرو

ولم يكد يخرج من مصر ويذهب الى موطنه بخُراسان حتى جدّد أهل الحوف ثوراتهم وهزموا الحاكم الجديد بجهة المطرية . ثم جاء المعتصم أخو الخليفة فى ٤٠٠٠ مقاتل من الأتراك ، فبدّد شمل العرب (سنة ٢١٤ ﻫ : ٨٢٩ م) وفتك بزعمائهم ، غير انهُ لم يمضِ على عودتهِ الى بغداد اكثر من

* يقال ان نوع القِثَّاء المعروف بعبد اللاَّوى سُمى بهذا الاسم نسبةً الى عبد الله ابن طاهر لأنهُ أول من أدخل زرعه بمصر

خروج العرب والقبط عامة

خمسة أشهر حتى تجدّدت ثورة العرب وخرج معهم القبط سنة ٢١٦ هـ (٨٣١ م) خروجاً عاماً

وبعد فتنة طويلة جاء المأمون بنفسه سنة ٢١٧ هـ (٨٣٢ م) وحارب القبط وأنزلهم من حصونهم ، فلم يجرّدوا بعدها سيفاً ، وأخذوا يعتنقون الإسلام أفواجاً . ومن ذلك العهد ابتدأ الطور الحقيقى لانتشار الدين الاسلامى فى مصر حتى صُبغت صبغة اسلامية محضة

وبقيت البلاد هادئة بعد مجىء المأمون لم يعكر صفوها شىء من القلاقل ، اللهمّ الاّ اختلاف قليل بين العلماء ورجال الدين من المسلمين أنفسهم . وبقيت ولاة بنى العباس تتوالى على مصر من العرب والموالى حتى ولى « عَنْبَسَة بن اسحق الضَّبّى » سنة ٢٣٨ هـ (٨٥٢ م) ، فكان آخر أمير عربى ولى مصر ، وآخر أمير صلى بالناس فى المسجد الجامع . وهو من أحسن ولاة مصر عدلاً ، واكثرهم فضلاً واكبرهم ورعاً

عنبسة آخر والٍ عربى

وفى مدته هوجمت مصر من جهتين ، فدخل الروم دمياط سنة ٢٣٩ هـ (٨٥٣ م) ، فردهم عنها وحصّنها بحصون منيعة كان لها الفضل الأكبر فى الحروب الصليبية . وفى سنة ٢٤٠ هـ (٨٥٤ م) أراد « على بابا » ملك النوبة أن يزحف على مصر ، فهزمه « عَنْبَسَة » وحمله على دفع الجزية ، وإن كان قد أكرم مثواه وردّه معزّزاً الى بلاده بعد ان زار الفسطاط وبغداد . وعُزل « عنبسة » سنة ٢٤٢ هـ (٨٥٦ م) وخلفهُ من الموالى والأتراك عدّة كان آخرهم « أرْجوز بن اولغ طَرْخان » التركى ، ثم صُرف بأحمد بن طولون سنة ٢٥٤ هـ (٨٦٨ م) ، فخرج على الخلافة واستقلّ بملك مصر وأسس الدولة الطولونية

الفصل الثالث

الطولونيون والاخشيديون

(١) الدولة الطولونية

٢٥٤ — ٢٩٣ هـ (٨٦٨ — ٩٠٥ م)

بقيت مصر بعد سنة ٢٤٢ هـ (٨٥٦ م) ولاية للعباسيين ، يقلدها خلفاؤهم من أحبّوا من الموالى والأتراك ، فيقيم هؤلاء ببغداد ويستخلفون عليها نواباً يحكمونها لهم ويرسلون الخراج اليهم

ابن طولون

فلما كانت سنة ٢٥٤ هـ (٨٦٨ م) قدم اليها «أحمد بن طولُون» التركى نائباً عن الأمير «باكباك» الذى قُلِّد مصر من قِبَل الخليفة . وأصل أبيه «طولون» مملوك للمأمون . فنشأ ابنه أحمد نشئاً حسناً ، فتعلم وتأدب وأحبّ الغزْو ، وظهر فضله وشجاعته . فوقع اختيار «باكباك» عليه ، وخصّه بأعمال القَصَبة * (الفسطاط) بحيث لا يدخل فى دائرته الاسكندرية وغيرها

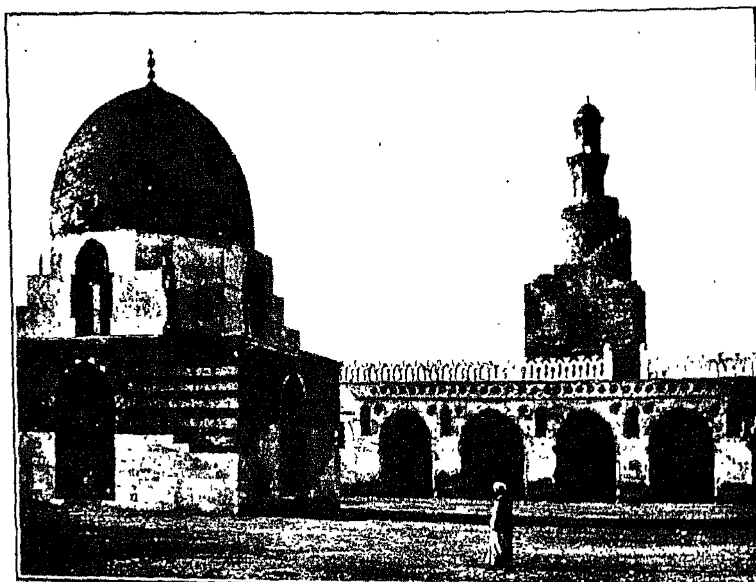
وكان بمصر «أحمد بن المدبِّر» والياً على الخراج ، وقد تحكم فى البلد . فما زال بهِ حتى كفّ يده فعظم بذلك شأن ابن طولون

ثم أخذ «ابن المدبِّر» يشى بابن طولون ويطلب من الخليفة عزله فلم ينجح . ومن حسن حظ «ابن طولون» انه لمَّامات «باكباك» وُهبت

* قصبة المملكة حاضرتها الكبرى الأصلية



جامع عمرو (رسم محمد افندى على سعودى)



جامع ابن طولون (رسم اسكجيان)

مصر للأمير « ماجور » حمى* « ابن طولون » ، فأبقاه فى منصبه وزاد على أعماله أعمال الاسكندرية وغيرها من الجهات التى لم تكن من أعماله وذلك سنة ٢٥٧ هـ (٨٧٠ م)

فعظم بذلك شأن ابن طولون ، وكثرت اعداؤه حتى انه لما انتهى تقليد ماجور سنة ٨٧٢ م أرادوا ان يوقعوا به ، وكاد «الموفَّق» أخو الخليفة وصاحب الكلمة اذ ذاك أن يعزله ، ولكنه تمكن بدهائه وماله من دفع ذلك ، وقويت شوكته وخشيه « ابن المدبِّر » وقبل بعظيم الارتياح نقلته الى منصب والى الخراج بالشام ، فخلا لابن طولون جوُّ مصر

فاخذ فى الإِكثار من الجند والخدم والحشم . ولما رأى ان بيت الامارة بمدينة «العسكر» أصبح غير كاف لجميع ذلك بنى له مدينة جديدة تمتدّ من المقطم الى جبل الكبش ، وسماها «القَطائع» لأنهُ جعل فيها لكل طائفة من أصناف خدمه « قطيعة » . وبنى قصره تحت « قبّة الهواء » (القلعة الآن) ، واتخذ غربيه ميدانا عجيباً لِلَعب الصوّالجة ومسابقة الخيل

القطائع

وبنى مسجده المشهور سنة ٢٦٤هـ (٨٧٧ م) ، وهو من أقدم مساجد مصر . وبنى كذلك مارستاناً للمرضى ، وقرّب العلماء والزهاد والقراء ورتب الصدقات والمبرات ، فكثرت بذلك نفقاته فمنع ارسال الخراج الى «الموفق» ، فسيّر اليه « الموفق » جيشاً ليعزله فلم يصل الجيش . وعند ذلك ازدادت ثقة « ابن طولون » بنفسه وأراد توسيع نطاق ملكه ، فأغار على الشام سنة ٢٦٤ هـ (٨٧٨ م) ودانت له معظم مدنها ، وعاد منها بعد سنة بعد أن ثبّت بها دعائم ملكه

---

* أى ابى زوجته

فلما وصل الى مصر وجد أن ابنه « العباس » قد انتهز فرصة غيابه وحاول الاستيلاء على الملك فتغلب عليه وسجنه باقى حياته

وأراد « ابن طولون » الاستيلاء على مكة فلم يفلح ، ولُعِن بالمسجد الحرام . فزاد كل ذلك من كراهتـه للموفّق ، فحذف اسمه من الخطبة سنة ٢٦٩هـ (٨٨٣ م) فقطع بذلك كل صلة بالخلافة . «ومات ابن طولون» سنة ٢٧٠ هـ (٨٨٤ م) وله ملك لا يعدله ملك الخليفة ، يشمل الشام والجزيرة وبرقة

وقد كان لقوة « ابن طولون » وسطوته خير أثر فى مصر ، فسادت السكينة فى البلاد ونمت ثروتها . وتوفى وخزائنه مُفْعمة بالأموال

وكان مع ذلك طائش السيف : يقتل ويحبس بالظِّنة، ولما اشتد عليه المرض قبيل وفاته غضب على أطبائه فاعدم كثيراً منهم وعذّب آخرين

خمارويه

وخلفه ابنه « خُمارَويه » فسار سيرة ابيه فى الاحسان ، وبالغ فى العمارة وأنواع الترف ، فجعل ميدان أبيه (مكان الرميلة الآن) بستاناً لم يُسمع بمثله : جمع فيهِ غرائب الأشجار والأزهار ، واتّخذ حظيرة للسباع والوحوش ، وأعدَّ بقصره بحيرة عظيمة من الزئبق يبلغ مسطحها مائة قدم فى مثلها

ولما ولى هذا الملك الشاسع استولى الحسد على أميرى « الموصل » و « الأنبار » ووالى « دمشق » ، واتفقوا جميعاً على أن يخرجوا الشام من حوزته ويسلموها للخلافة . وكانت حجتهم فى التعدّى على «خمارويه» انه استولى على أملاكه بعد أبيه من غير أن يقلده الخليفـة اياها . وساعدهم «أبو العباس» بن «الموفّق» ، وأغاروا جميعاً على الشام ، فدخل «ابو العباس»

دمشق سنة ٢٧١ هـ (٨٨٥ م) ، وبعد ان دارت بينهم وبين «خمارويه» عدة مواقع انتصروا فى بعضها وهُزموا فى اخرى هزمهم « خمارويه » بجهة دمشق سنة ٢٧١ هـ (٨٨٦ م) فى موقعة فاصلة ، فدخل دمشق وساق أمير الموصل الى مدينة « سُرّ من رأى » على نهر دجلة . وعند ذلك عقد صلحاً مع الموفق ، وقلّده الخليفة حكم مصر والشام وأطراف بلاد الروم مدة ثلاثين سنة . ثم وقع فى مشاحنة مع أميرى الموصل والأنبار ، فكانت نتيجة ذلك أن نودى به فى الخطبة حاكماً على الموصل والجزيرة . وفى سنة ٢٧٨ هـ (٨٩١ م) مات «الموفق» وتبعه الخليفة « المعتمد » بعد سنة واحدة ، فحسنت العلائق بين ابن طولون والخليفة ، واتفق « خمارويه » ان يدفع الجزية ٣٠٠٠٠٠ دينار سنويا ، وتزوّج الخليفة « المعتضد » ابنة خمارويه « قَطْر النَّدى » فجهَّزها خمارويه جهازاً يضرب بهِ المثل ، فلم يُبْقِ نفيسة ولا تحفة من كل لون أو جنس الاّ حملها معها : فكان من جملة ذلك ٤٠٠٠ منطقة مرصّعة وعشرة صناديق مملوءة بالجواهر والف هاون من الذهب . ولما فرغ خمارويه من جهازها أمر فبُنِي لها على رأس كل مرحلة تنزل بها قصر فيما بين مصر وبغداد ، فاذا وافت المنزل وجدت قصراً أُعدّ فيه من أسباب الراحة والترف ما يصلح لمثلها فى حال الاقامة. كل ذلك وما شاكله من أنواع الإسراف الأخرى التى تعوّدها أضعف حالته المالية وكاد يفضى بخزائنه الى الخراب . ثم قتل خمارويه بدمشق ، ذبحه بعض خدمه على فراشه ، وحمل تابوته الى مصر فدفن فيها سنة ٢٨٢ هـ (٨٩٦ م)

ثم تولى بعده ابنه « ابو العساكر جيش » ، فلم يحسن السيرة مع

اهله وقواده فخلعوه بعد ستة شهور ، ومات بعد أيام فى السجن

ثم خلفه أخوه « ابو موسى هرون » وفى أيامه ضعف نفوذ مصر فى الشام ، فاغارت القرامطة عليها وحاصروا دمشق بعد أن حمّلوا الجيوش المصرية خسائر كبيرة . ثم رأى الخليفة ان يدخل بينهم ، فقهر القرامطة وزاده هذا النصر إقداماً فساق إلى مصر جيشاً واسطولاً . وجمع «هرون» جيشه بالقرب من حدود الشام ابتغاء الالتحام بجيوش الخليفة ، فقتله عمّاه غَدْراً فى فراشه سنة ٢٩٢ هـ (٩٠٤ م)

فولى بعده « شَيْبان » عمُّهُ وقاتله ، فبقى أياماً . وخالفه القواد فكتبوا الى « محمد بن سليمان » قائد الخليفة فدخل مصر بعسكر جرار ، فهرب « شيبان » وأخرج محمدُ بن سليمان بقية آل طولون الى بغداد ، وهدّم القصر والميدان وخرّب البستان واحرق اكثر القطائع . وبذلك انقرضت دولة آل طولون سنة ٢٩٣ (٩٠٥ م) بعد ان ملكت ٣٧ سنة

(ب) الدولة الإخشيدية

٣٢٤ — ٣٥٨ هـ (٩٣٥ — ٩٦٩ م)

بعد أن انقرضت دولة آل طولون عادت مصر ولاية عباسية يتوارد عليها الولاة من بغداد مدة ٣٠ سنة كانت فيها فى غاية من الارتباك والاضطراب . وذلك لأن الخلفاء كانوا قد استولى عليهم الضعف وزال بعض السلطة من أيديهم ، وصارت القوة الحقيقية بيد الجند من الأتراك فاصبحت الكلمة فى مصر للجيوش التى ترسل من وقت لآخر لتوطيد النظام . وازدادت الحالة حرجاً بتوارد غارات الفواطم على البلاد

وبينما البلاد تئن تحت عبء هذه الفوضى ولى حكمها « محمد بن طُغْج الإِخْشيد » سنة ٣٢٣ هـ (٩٣٥ م) . وهو من اسرة ملوك « فِرْغانَة * » القدماء الذين كان يُطلق عليهم لقب «إخشيد»، فمنحه الخليفة هذا اللقب تشجيعاً له ومكافأة له على جدّه . وكان قد تقلّد من قبل منصباً فى مصر، فابدى كفاءة كبيرة حتى انهُ عُيّن حاكماً لدمشق سنة ٣١٨ هـ (٩٣٠ م)

الاخشيد

ولم يكد يدخل مصر سنة ٣٢٣ هـ (٩٣٥ م) حتى اخمد الفتن وسكّن الخواطر . ثم التفت الى الفاطمية فأخرجهم من الاسكندرية ، ولم تأت سنة ٣٢٨ هـ (٩٤٠ م) حتى قبض على كل شىء ، وصار أشبه بملك مستقل شأن باقى الولاة اذ ذاك فى الولايات الأخرى للدولة

وأهم غرض كان يرمى اليهِ « الإخشيد » حماية الشام من اغارة الولاة المجاورين . وأول ما حدث من ذلك ان « ابن رائق » أغار على « حِمْص » و « دمشق » ، ثم هزم جيوش الإخشيد سنة ٣٢٨ هـ (٩٤٠ م) وعقد معهُ صلحاً على أن يبقى شمالى الشام فى قبضته . ولما مات « ابن رائق » بعد ذلك بسنتين استرد « الإخشيد » ما فقد ودخل دمشق دون أن يلاقى مقاومة . وفى سنة ٣٣٢ هـ (٩٤٣ م) قلده الخليفة أيضاً حكم « مكة » و « المدينة » . وأراد الإخشيد أن يجعل ملكه وراثياً فاخذ البيعة من قواد مصر لابنه «أُونُوجور» من بعده. وفى سنة ٣٣٤هـ(٩٤٥م) أغار «الحمدانيون» (امراء الموصل وأعلى الجزيرة) على شمالى الشام ، فهزمهم « الإخشيد » وعقد معهم صلحاً على أن تبقى حلب وشمالى الشام بايديهم ، وأن يدفع لهم اتاوة نظير نزولهم عن « دمشق » . ولعل السبب فى تساهله هذا ان

* كانت بلدة عظيمة ببلاد التركستان ولها كورة تسمى باسمها

سنّه كانت قد بلغت الرابعة والستين ، واصبح لا يقدر على مناوأة المزاحمين له فى شمالى الشام . ولم يلبث بعد ذلك سنة واحدة حتى مات بدمشق سنة ٣٣٤ ﻫ (٩٤٦ م) ودُفن ببيت المقدس

ولم يبق للآن شيء من آثاره بمصر يدل على حالة البلاد فى عهده ، ولكننا نعلم انه أوجد فى البلاد هدوأً وسكينة لم تعهدهما منذ ثلاثين عاماً

اونوجور

وخلفه ابنه ابو القاسم اونو جور (٣٣٥ — ٣٤٩ﻫ : ٩٤٦ — ٩٦١م)، وكان صغيراً فأُقيم الاستاذ «ابو المسك كافور الإخشيدى» الخصىّ الأسود قيما عليه . فقام مع رجال الدولة بتدبير الملك حتى مات أُونوجور بعد ١٤ سنة: سنة ٣٤٩ ﻫ (٩٦١ م) . ثم تولى بعده أبو الحسن على بن الإخشيد ، ولم يقتصر الخليفة « المطيع » على توليته مصر والشام ، بل أضاف اليهِ ولاية الحرمين . ولم يكن لأبى الحسن مع كافور من الأمر شيء ، ثم فسد ما بينهما ، فمنع « كافور » الناس من الاجتماع به ، فبقى كذلك حتى مات سنة ٣٥٥ ﻫ (٩٦٥ م) ودُفن فى القدس

كافور

فتولى الاستاذ ابو المسك كافور الإخشيدى بدله ، وجاءه التقليد بولاية مصر والشام والحجاز . وأصله عبد حبشى خصىّ اشتراه الإخشيد من بعض أهل مصر بثمانية عشر ديناراً ، فما زال يتقدم عنده لعقله وحسن رأيه وشجاعته إلى أن صار من أكبر القواد الذين أسسوا له دولته . ولم يبلغ أحد من الخصيان ما بلغه كافور هذا : ملك أنفس ممالك الإسلام ، وخدمه كبار العلماء ، ومدحه المتنبي (وكان قد طمع أن يوليه منصباً ، فلما لم يحقق أمله هرب من مصر وهجاه) . وولى كافور الملك سنتين ، ومات سنة ٣٥٧ ﻫ (٩٦٨ م) . فولى أهل مصر « أبا الفوارس أحمد بن على بن

الإخشيد» وهو صغير، فأقام شهوراً حتى أتى «جوهر الصقلي» قائد جيوش المعز الفاطمى، فدخل مصر بلا قتال، وانتزعها من الدولة الإخشيدية سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩ م) بعد ان ملكت ٣٤ سنة

الفصل الرابع

الدولة الفاطمية (*)

٣٥٨ — ٥٦٧ هـ (٩٦٩ — ١١٧١ م)

تمهيد فى اصل الشيعة

لما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم بويع أبو بكر بالخلافة، وامتنع علىّ ونفر قليل عن بيعته مدة لاعتقادهم انه أولى منه بها لقرابته وصهره من رسول الله، ثم لم يلبث علىّ أن بايع ودخل فيما دخل فيه المسلمون. ثم لما انتهت خلافة ابى بكر وعمر وعثمان وجاءت نوبة خلافة علىّ ثارت عليه عواصف الفتن والدسائس وانقسم المسلمون: طائفة معه (وسميت شيعة علىّ) وطائفة عليه (وسميت شيعة بنى أمية). ثم انتهى الأمر بقتله غيلة، ثم بموت ابنه «الحسن» وقتل أشياع بنى أمية ابنه «الحسين» المطالب بالخلافة بعد أخيه، فحرم نسله من الخلافة. فكان ذلك سبباً فى استفحال العداوة بين شيعة علىّ وشيعة أمية التى انضمت اليها جماعة المسلمين. فاضطرت شيعة علىّ أن تعمل فى السر لإعادة الخلافة للعلويين، وغلا اكثرهم حتى ادعى أنها لم تصح ولن تصح لغير أهل البيت من أولاد

(*) وتسمى ايضاً الدولة العُبَيْدية نسبة الى رأسها عبيد الله المهدى، والدولة المصرية، ودولة المصريين، ودولة العلويين المصرية

عليّ ، فأنكر عليهم بقية المسلمين ذلك ، ولا يزال بين الفريقين خلاف كبير فى الرأى والمذهب الى الآن . واختص الفريق الأول باسم الشيعة والثانى بأهل السنّة والجماعة . ولما عجز العلويون عن الاستحواذ على السلطة من طريق السياسة والقوة ، لقتل من خرج من أئمتهم ، التمسوها من طريق الدين ، فقالوا ان الله لا يترك خلقه بدون إمام حق ، واعتقدوا بأن ذلك الامام هو المهدى المنتظَر الذى يُبيد المغتصبين ويحيي مجد بيت رسول الله، وعملوا على نشر هذه العقيدة بين الناس بكل الوسائل (*)

منشأ الفاطميين

فى سنة ٢٨٠ هـ (٨٩٣م) ذهب أحد دعاة الشيعة المدعو «أبا عبد الله الشيعى» الى بلاد البربر (شمالى افريقية) داعياً لعُبَيد الله بن محمد من نسل جعفر الصادق ، فنجح فى دعوته وطرد الأمير الأغلَبيّ الحاكم لتلك البلاد التابع للدعوة العباسية سنة ٢٩٦ هـ (٩٠٨م) . ثم أعلن أن الخليفة الحقيق للمسلمين ورئيس دينهم المنتظر هو إمامه « عُبَيد الله » المذكور الملقب بالمهدى . ولمّا كان « عبيد الله » يقول انهُ من نسل السيدة « فاطمة » بنت رسول الله سُميت سلالته بالفاطميين ، وإن كان بين المؤرخين خلاف كبير فى صحة نسبهِ

عبيد الله

حضر « عبيد الله » الى بلاد المغرب وحكمها أربعة وعشرين عاماً (٢٩٧ — ٣٢٢هـ : ٩١٠ — ٩٣٤م) كان الأمر فيها كله بيده ، وأخضع قبائل العرب والبربر ، ودان له الحاكم المسلم الوالى على جزيرة « صقلية » . وكان من أهم شواغله العمل على نشر الدين الصحيح ، فلم يذر مجهوداً فى

(*) وكان من بين هؤلاء الشيعة طائفة تعرف بالقرامطة سنأتى على بعض اخبارها فيما بعد

سبيل إبادة البدع والإباحات التى ظهرت إذ ذاك فى تلك الجهات . ولما قويت شوكته وخشى ان ينازعه « أبو عبد الله » فى السلطـة فتك بهِ ، مع انهُ هو الذى أتى بهِ الى تلك البلاد . وكان من اكبر أمانيهِ فتح مصر ، فارسل لغزوها ثلاثة جيوش على مرات اثنان منها بقيادة ابنه «أبى القاسم» ، فحال دون نجاحه عدة أمور ، منها مجاعة فى المغرب سنة ٣١٦ ه (٩٢٨ م) ووباء فشا فى أحد هذه الجيوش وانتقل منهُ بالعدوى بعـد عودتهِ الى أهل المغرب . وشُغل « عبيد الله » بالأمور الداخلية باقى حياته

القائم

وفى سنة ٣٢٢ ه (٩٣٤ م) خلفهُ ابنهُ الأكبر « القـائم بأمر الله أبو القاسم محمد » ، فبذل غاية همته فى توسيع نطاق ملكه ، فأرسل أسطولاً أغار على شواطئ ايطاليا وفرنسا والأندلس، وأرسل جيشاً الى مصر هزمه الإخشيد . ثم صرف باقى أيامه فى التغلب على «أبى يزيد» الخارجى الذى ثار عليهِ وأراد أن ينزع الملك منهُ

وخلفهُ « المنصور اسماعيل » سنة ٣٣٤ ه (٩٤٦ م) ، فقهر ذلك الخارجي سنة ٣٣٦ ه (٩٤٧ م) ، غير انهُ لم يحاول الاستيلاء على مصر

المعز

ثم تولى الخليفة الرابع ابنه «المُعزّ لدين الله» أبو تميم معَدّ سنة ٣٤١ ه (٩٥٣م) ، فـكانت أيامه مبدأ عصر جديد فى تاريخ الفاطميين . وهو يمتاز عن سالفيهِ بتربيتهِ العالية وبلاغتهِ النادرة ، وكانت له دراية عظيمة بكثير من اللغات : يتكلم اللغات البربرية والسودانية والإغريقية ، وقيل انهُ تعلّم اللغة الصّقلبية أيضاً . وكان يقول الشعر العربى ، وكان سياسياً كبير الدهاء كريماً حريصاً على العدل شديد التمسك بالدين

اتبع « المعز » فى سياسته خطة أسلافه ، فبدأ بتوطيد الأمور فى

بلاده حتى دانت له جميع رؤساء القبائل المغربية ، وخضعت له مراكش بأكملها حتى شواطئ المحيط الأتلنتى

غزو مصر

ثم صرف همّهُ لفتح مصر ، فحفر الآبار وبنى أماكن للاستراحة فى الطريق الموصل اليها . وكانت مصر وقتئذٍ فى اضطراب لحقها عقب وفاة « كافور » ، ولم يكن فى وسع خلافة بغداد مساعدتها لاشتغالها بصدّ غارات « القرامطة » . فسيَّر « المعزّ » لغزوها أكبر قوّاده « جَوْهَر الصِّقِلِّى » (وهو رومىّ الأصل) فى مائة ألف مقاتل ، وأعدّهم بأنخر العدد ، ووضع تحت تصرُّف « جوهر » ٢٤٠٠٠٠٠٠ دينار . فدخلوا مصر بلا ضرب ولا طعن ، وسلّمت لهم « الاسكندرية » و « الفسطاط » سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩م) . ومن ذلك العهد ابتدأت دولة الفاطميين فى مصر . وشرع « جوهر » فى الحال فى توطيد الأمور فى مصر . وكانت قد فشت بها مجاعة ، فأرسل « المعزّ » اليها سفناً محملة بالقمح ليخفف وطأتها على الناس ، وأمر بأن لا يبيع تجَّار القمح شيئاً الاَّ بإشراف الحكومة

انشاء القاهرة

وخطّ « جوهر » فى ليلة نزوله شمالى الفسطاط مدينة جديدة على نحو ميل من النيل بين «الفسطاط» و «عين شمس» وسمَّاها « القاهرة » . وموقعها الآن وسط مدينة القاهرة الحالية . ثم وضع على كل مصلحة من مصالح الحكومة موظفين أحدهما مصرى والآخر مغربى ، ليكفل بذلك المساواة بين الناس . وبنى بالقاهرة «الجامع الأزهر» العظيم سنة ٣٥٩ — ٣٦١ هـ (٩٧٠ — ٩٧٢ م) و « القصرين » استعداداً لقدوم الخليفة « المعزّ » ، فزادت بذلك القاهرة جمالاً وبهاءً ، وفتحت العمارةُ مورد رزق للعمَّال العاطلين

ثم خضعت بلاد النوبة للخليفة الفاطمى ، فدفعت الجزية ، ودانت له مكة والمدينة ، واعترف له الأمير الحمدانى الوالى على شمالى الشام بالسيادة على «حلب». وأرسل «جوهر» أحد قواده للاستيلاء عنوة على «دمشق» ، وكان أهلها شديدى الكراهة للشيعة منذ خلافة معاوية ، فاستولى عليها ونشر عقيدة الشيعة فيها كرهاً

وبينما الفاطميون تزداد شوكتهم داخل مصر وخارجها اذ ألمّ بهم خطر كاد يقضى عليهم سنة ٣٦٠ هـ (٩٧١) . وذلك ان زعيم «القرامطة» كان يأخذ ضريبة من « دمشق » ، فمنعت منهُ باستيلاء الفاطمية على المدينة . فغضب لذلك ، ولم يمنعه اتفاقه مع الفاطمية فى العقيدة من الإغارة على المدينة وإخراجها من يد الفاطميين . ثم سار بجيشه الى مصر فهُزم أمام القاهرة وفرّ هارباً

عند ذلك رأى « المعزّ » انه قد حان وقت قدومه الى مصر ، فسار اليها فى موكب حافل ومعه بنوه واخوته وعشيرته وجثث أسلافه ، ووصل إلى القاهرة سالماً سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٣ م) ، فأقنع النَّسَّابة من سلالة على بصحة نسبه

وفى سنة ٣٦٣ هـ (٩٧٤ م) زحف « القرامطة » على مصر ثانية ، وطاردوا جيوش « المعزّ » الى داخل القاهرة ، فاستمال « المعزّ » أحد رؤساء حلفائهم من البدو بالمال (وكان اكثره زائفاً) ، فانتصر بذلك على القرامطة وردهم على أعقابهم . وفى سنة ٣٦٥ هـ (٩٧٥ م) مات «المعز» فخلفه ابنه « العزيز »

وكان عهد « المعزّ » على قِصَره من أزهى عصور مصر ، وازهرها زهاء عصر المعز

وزادت فيه ثروة البلاد زيادة كبيرة . وكانت القاهرة اذ ذاك تسمى « المدينة » ، وكانت فى الحقيقة عبارة عن قصرين عظيمين ولواحقهما : بهما من السكان ٣٠٠٠٠ نسمة ، وكان بين القصرين ميدان عظيم يكفى لاستعراض ١٠٠٠٠ جندى ، وكانت ثروة الاسرة المالكة زمن المعز و بعده فوق ما يتصور ، فإن إحدى بناته ماتت وتركت وراءها ما يعادل ٢٠٠٠٠٠٠ دينار ، واخرى تركت خمسة أكياس من الزمرّد ومقادير وافرة من الأحجار الكريمة الأخرى علاوة على ٣٠٠٠ إناء فضى مطعّم

وقد بذل « المعز » غاية وسعه فى استجلاب محبة الناس واحترامهم له بعدله وحسن إدارته والتفاته الى جميع دقائق شؤونهم . فكان يرأس بنفسه حفلة قطع الخليج ، وزاد من محبتهم له ارساله كسوة فاخرة للكعبة كل عام . ومنع جنده من البقاء فى المدينة بعد الغروب اجتنابا لما عساه أن يحدث من الهياج ، وألغى نظام جباية الخراج بواسطة الملتزمين ، للخسارة التى كانت تلحق البلاد من وراء أرباحهم الباهظة ، وبذلك زاد الخراج بدون أن يضر بمصلحة المزارعين . وكان « المعزّ » شديد التسامح مع الأقباط ، وقلّد كثيرًا من رجالهم مناصب راقية فى الحكومة

بهذه الطريقة ثبتت قدم الفاطميين فى مصر ، وإن كانت تقاليد الشيعة لم ترق يوماً ما فى أعين السواد الأعظم من المصريين

العزيز

ولى «العزيز بالله أبو منصور نزار» (٣٦٥ - ٣٨٦هـ : ٩٧٥ — ٩٩٦م) بعد وفاة أبيه ، فاظهر من الرفق ولين العريكة ما أرضى العباد . وكان العزيز شهما عظيم الجسم مولعاً بالصيد ماهراً فيه ، وكان قائداً شجاعاً وحاكماً مدبراً ، وكان مثل أبيه شديد التسامح مع المسيحيين ، وكثيراً

ما كان يجلس للمناقشة معهم فى الأمور الدينيـة . وجدّد لهم كنيسة « أبى سيفين » خارج الفسطاط بعد ان كانت مستترة فى شكل مخزن للبضائع . ومن تسامحه فى الدين أن كان أكبر وزرائه « يعقوب بن كِلِّس » و « عيسى بن نِسْطُورس » ، وأولهما اسرائيلى أسلم والآخر مسيحى . وكان كل شىء فى قصره فخماً من حاشية وموائد ودواب ، وقد قيل : « إن خيوله كانت تُكسَى الزرد المطعم بالذهب ، وتغطى باقمشة مرصعة بالجواهر ومعطرة بالعنبر » ، الى غير ذلك من أنواع الفخامة والترف . وبذل « العزيز » الكثير من المال على إقامة المبانى وحفر الترع وانشاء الجسور (الكبارى) ومرافئ السفن . وبدأ بناء الجامع الذى يعرف بجامع « الحاكم » (لأن الحاكم هو الذى أتمه) بجوار باب الفتوح . وهو أول من سار فى موكب الى الجامع فى كل يوم جمعة من رمضان للصلاة بالناس ، وأول من استخدم من الخلفاء الفاطمية جند الترك . وسادت فى عهده السكينة فى البلاد ، فبرهن بذلك على مقدرته فى الادارة . أما مملكته فيكفى فى وصفها أنها كانت تمتد من المحيط الاتلنتى الى شرقى الحجاز ، ومن اليمن الى أعالى الفُرات

الحاكم

وخلفه ابنـه « الحاكم بامرالله أبو على منصور » (٣٨٦ — ٤١١ هـ : ٩٩٦ — ١٠٢١ م) وعمره ١١ سنة ، فنشأ مطلق الأمر فى آرائه وتصوراته . وتعلم علوم الشيعة فغلا فيها ، كما تعلم علوم الفلسفة والنجوم فـكان له بها ولع شديد . وكان على طرفَى الغلو فى كل أعماله : فاذا عاقب أفرط وسفك الدماء وقتل الأعوان والأقارب والعلماء ، واذا أثاب أو أحب بذل ما لم يبذله ملك . وكانت أعماله متناقضة ، يفعل اليوم ما ينقضه غداً ، اشتدّت به غيرته على النساء فمنعهن من الخروج الى السوق والحمام والتطلع من

نوافذ البيوت ، وقتل منهن فى ذلك كثيراً ، وعاقب على شرب الخمر أشد العقاب ، ثم غلا وقلع جميع الكروم فى أرض مصر ، واضطهد النصارى واليهود فهدّم كنائسهم ، ثم أعادها . وانتهى بهِ الأمر ان صار يخبر بالمغيبات من جواسيس كانت تطلعه على الأخبار ، فاغتر بهِ قوم واعتقدوا أن روح الله حلت فيه ، وألّف رجل منهم كتاباً فى ذلك ، فثار بهِ الناس فخرج الى الشام ، ولا يزال اتباعه بها الى الآن . وكان مع سفاهته ونزقه شديد العناية بجمع الكتب ومعاضدة العلم ، وأتمّ الجامع الحاكمى (بين باب الفتوح وباب النصر) . ولما استطار شره ركب حماره يوماً وخرج على عادته الى جبل المقطم بناحية حلوان للخلوة بنفسه ولرصد الكواكب فلم يعد ، ووجدوا بعد أيام ثيابه مضرجة بالدماء وحماره مجروحاً ، فعلموا انهُ قد قتل ، وقيل ان اختهُ عملت على قتله وذلك سنة ٤١١ هـ (١٠٢١ م)

الظاهر

فتولى مكانه ابنهُ «الظاهر لإعزاز دين الله ابو الحسن على» (٤١١ — ٤٢٧ هـ : ١٠٢١ — ١٠٣٦ م) ، وكان صبياً لا يتجاوز السادسة عشرة من عمره ، فلم يكن بالرجل الذى يقدر على انتشال البلاد مما أصابها من جرّاء أعمال والده . وكان فى أول أمره فى قبضة عمته ، فدام ذلك أربع سنوات ، ثم غلب على أمره بعد ذلك ثلاثة شيوخ حكموا البلاد باسمه زمناً . وفى سنة ٤١٥ هـ (١٠٢٥ م) حصلت مجاعة كبيرة فى البلاد ، وكاد المصاب يكون أليماً لو لا ارتفاع النيل فى سنة ٤١٧ هـ (١٠٢٧ م)

قوة الوزراء

ومن ذلك العهد أخذت قوة الخلفاء الفاطميين فى الاضمحلال ، وتحوّلت جميع السلطة الى الوزراء . وكان هؤلاء كلما مات خليفة اختاروا مكانه من أسرته من كان اكثرهم ليناً وأقرب الى التشكل فى أيديهم

حسب أهوائهم . وفى عهد « الظاهر » قامت على الحاكم الفاطمى لمدينة « قيسارية » عدة فتن فى انحاء الشام ، فتغلب عليها جميعاً واضاف الى أملاك الفواطم « حلب » ومعظم شمالى الشام

المستنصر

ثم خلفه ابنـهُ « المستنصر بالله ابو تميم معد » (٤٢٧ — ٤٨٧ هـ : ١٠٣٦ — ١٠٩٤ م) وعمره سبع سنين فاقام فى الخلافة ستين سنة لم يقمها ملك غيره فى الاسلام . وكان حكمه هذا على طوله عهد تدهور سريع فى الدولة الفاطمية ، قُضى أوله فى مشاحنات بين عدة وزراء قبضوا على زمام الامور بالتوالى (٤٢٧ - ٤٤٢ هـ ١٠٣٦ — ١٠٥٠ م) ، وفى مدتهم خرجت ولايات شمالى افريقية من يد الفاطميين ورفضت التشيع وعادت سنّية . وخرجت عليهم الولايات السورية ، وانقسمت الى ولايات عديدة وقعت غنيمة باردة للأتراك السلجوقيين سنة ٤٦٩ هـ (١٠٧٦ م) . ومن الغريب ان الدعوة الفاطمية فى عهده بلغت أقصى العراق فخُطب له ببغداد نحو أربعين خطبة وهرب خليفها العباسى . ثم آلت فى عهده أيضاً الى ما ذكرنا

وكانت مصر ذاتها بالرغم من ذلك فى رخاء وسعة ، وكان القصر الملكي بها من أفخم وأعظم ما عُرف فى الاسلام ، يُعلم ذلك من قول سائح فارسى يصف القاهرة فى ذلك العهد : « يضم القصر بين جدرانه ٣٠٠٠٠ نسمة ويحرسه كل ليلة ألف حارس ما بين فارس وراجل . ويبلغ عدد المساكن نحو ٢٠٠٠٠ بيتاً متقنة البناء يفصل بعضها عن بعض الحدائق والبساتين ويبلغ عدد الحوانيت ما يقرب من ذلك ، ويدخل متحصَّل الجميع للخليفة . ويمشى فى موكب الخليفة يوم فتح الخليج نحو ١٨٠٠٠٠ من الجنود والأعوان من أجنـاس مختلفة ، وكثيراً ما كان يوجد بين حرس الخليفة الأمراء

وأولاد الملوك من أقاصى البلاد حتى من الهند »

اضطراب البلاد

ثم هدأت حالة البلاد نحو ثمانية أعوام بعد سنة ٤٤٢ ﻫ (١٠٥٠م)، وكان القابض فيها على زمام الأمور وزير عامل يدعى « اليازُورى » فقام باصلاحات عديدة ، ولكن الحال رجعت بعده الى ما كانت عليه من الفوضى والنزاع بين الوزراء ، وزادت الفتن بين الجند السودان والأتراك حتى كان لذلك أسوأ أثر فى البلاد . وبالغ « ناصر الدولة » القائد العام للجيش فى الظلم والاستبداد حتى خرج عليه بنو جلدته من الأتراك ، ففر من القاهرة ولكنهُ عاد اليها ومعهُ ٤٠,٠٠٠ مقاتل من العرب والبربر ، فافسدوا الترع والجسور فى الوجه البحرى ومنعوا الزاد عن القاهرة والفسطاط وصادف ذلك قحطاً كان قد بدأ بالبلاد سنة ٤٥٧ ﻫ (١٠٦٥ م) بسبب انخفاض النيل . فمنع هذا الهياج المزارعين من مزاولة اشغالهم ، فاستفحل

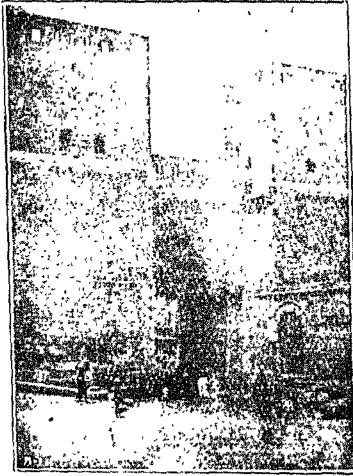
القحط الهائل

أمر القحط حتى استمر سبع سنوات (٤٥٧ — ٤٦٥ﻫ : ١٠٦٥ — ١٠٧٢م) مات فيها الناس جوعاً وأكل بعضهم بعضاً ، وحدث من الويلات ما يضيق المقام عن ذكره . ولم يقدر الخليفة على دفع الأذى عن نفسه ، إذ اضطره قواد حرسه من الأتراك الى بيع تلك القناطير المقنطرة من النفائس التى ورثها عن آبائه وأجداده مما لا يدخل تحت حصر ، فقسموا بعضها على أنفسهم وباعوا الآخر بابخس الأثمان . ولم يُجْدِ ذلك نفعاً بل انه بقى محاصراً بالقاهرة يتكبد آلام الفاقة حتى فتح « ناصر الدولة » المدينة ، فوجد رسولُهُ الخليفة فى قصره جالساً على حصير بالٍ ولا قوت له سوى رغيفين اجرتهما عليه كل يوم احدى المحسنات

بدر الجمالى

دخل « ناصر الدولة » القاهرة سنة ٤٦٦ ﻫ (١٠٧٣ م) ، ولكن لم

يلبث ان حقد عليهِ مناظروه وقتلوه ، فاستراح منهُ الخليفة . ثم أرسل الى « بَدْر الجمَالى » الأرْمَنىّ الأصل حاكم « عكاًّ » يسأله القدوم الى مصر لتنظيم أمورها واصلاح ما فسد فيها . فقبل « بدر الجمالى » رجاءه ودخل مصر فى جيش من أهل الشام ، ففتك بالقوّاد الأتراك . ثم انصرف الى اصلاح البلاد وإخضاع الخارجين من أهلها ، فساد الأمن وازداد الخراج وعمّ الخير جميع الناس . وبنى حول المدينة سوراً جديداً وشيَّد فيهِ ثلاثة أبواب ضخام لا تزال الى الآن موضع إعجاب النـاظرين ، وهى باب النصر وباب الفتوح (سنة ٤٨٠ هـ : ١٠٨٧ م) وباب زويلة (المتولى) (سنة ٤٨٤ هـ : ١٠٩١ م) . وأُعجب الخليفة بهِ كثيرًا فلقَّبهُ بأمير الجيوش . ومات فى سنة واحدة مع الخليفـة (سنة ٤٨٧ هـ : ١٠٩٤ م) بعد انـ قضى فى مصر عشرين عاماً امتلأت فيهـا البلاد هدوءاً وسلاماً



(باب النصر)

وتولى الخلافة من بعد « المستنصر » ستة وهم :

(١) « المستعلى » (٤٨٧ — ٤٩٥ هـ : ١٠٩٤ — ١١٠١ م)

(٢) « الآمِر » (٤٩٥ — ٥٢٤ هـ : ١١٠١ — ١١٣١ م)

(٣) « الحافِظ » (٥٢٤ — ٥٤٤ هـ : ١١٣١ — ١١٤٩ م)

(٤) « الظافِر » (٥٤٤ — ٥٤٩ هـ : ١١٤٩ — ١١٥٤ م)

(٥) « الفائز » (٥٤٩ — ٥٥٥ هـ : ١١٥٤ — ١١٦٠ م)

(٦) « العاضد » (٥٥٥ — ٥٦٧ هـ : ١١٦٠ — ١١٧١ م)

وكلهم كانوا فى شدة الضعف : وُلّوا الخلافة جميعاً وهم أطفال ما عدا « الحافظ » فانهُ وليها وعمره ٥٧ سنة . وكان الوزراء فى عهدهم هم الحكام الحقيقيين للبلاد ، ولذلك كان شأنهم فى التاريخ أهم من شأن الخلفاء أنفسهم . ولما كان تاريخ مصر فى هذا العهد مندمجاً كل الاندماج فى تاريخ النزاع بين المسلمين والإفرنج فى الاستيلاء على الشام والأراضى المقدسة ، مما أفضى الى تأسيس دولة اسلامية جديدة هى الدولة الأيوبية ، رأينا أن نورد كل ذلك فى فصل واحد فنقول :

الفصل الخامس

تأسيس الامارات الصليبية بالشام

وعلاقاتها بمصر

٤٨٩ — ٥٦٧ هـ : (١٠٩٦ — ١١٧١ م)

﴿ مبدأ الحروب الصليبية ﴾ *

السلجوقيون

بينما الدولة الفاطمية آخذة فى التدهور فى أيام المستنصر كانت

* يطلق هذا الاسم على عدة حروب شنَّها مسيحيو اوربا على المسلمين لأخذ بيت المقدس من أيديهم . واستمرت نحو مائتى سنة من ٤٨٩ الى ٦٧٠ هـ (١٠٩٦ — ١٢٧٢ م) . وسميت بالحروب الصليبية لأن المسيحيين الذين قاموا بها اتخذوا الصليب شعاراً لهم ورسموه على ملابسهم وأعلامهم

الأخطار قد أحدقت أيضاً بالدولة العباسية . وذلك ان الأتراك السلجوقيين واصلوا زحفهم غربا حتى استولوا على جميع العراق وأرمينية والشام حتى حدود الدولة الرومانية الشرقية ، ولم يبقوا للخليفة العباسى ببغداد سوى الزعامة الدينية . وكان هؤلاء الأتراك شديدى التمسك بالاسلام عظيمى الغيرة على مذهب أهل السنّة ، يعدّون التشيع بدعة يجب القضاء عليها ، ولذلك لم يألوا جهداً فى استئصال شأفة الفواطم مما بقى بأيديهم من الشام ، بل كادوا يغزون مصر ذاتها . واستولت فرقة من هؤلاء الأتراك فى هذه النهضة على معظم آسيا الصغرى سنة ٤٧٤هـ (١٠٨١ م) وكوّنوا لهم فيها دولة عظيمة سميت « مملكة الروم » لأنها كانت من قبل جزءاً من بلاد الروم

فساء ذلك قيصر الرومان وخاصة لقرب عاصمتهم « نِيقِيَة » من القسطنطينية حاضرة دولته ، فلجأ الى البابا رئيس النصرانية يستصرخه على صد هؤلاء الأعداء ، فلم يقصر هذا فى اجابته ، ورأى فى ذلك فرصة لبسط نفوذه على ملوك اوربا وامرائها اذا هم اشتركوا فى حركة أساسها الدفاع عن النصرانية واخراج بيت المقدس الذى هو مهد المسيحية من يد المسلمين . ومن أهم الأسباب التى استفزت أهل اوربا الى تحقيق هذه الأمنية ما كانوا يسمعونه من حُجاجهم عند عودتهم من الإهانة التى يلاقونها من الأتراك ، والضرائب الباهظة التى يؤدونها لهم ، والهوان الذى فيه مسيحيو الشرق ، وغير ذلك من الأقوال المبالغ فيها التى كان ينشرها رجال الدين فى اوربا بسرعة لشدة تعصبهم وقضاء مآربهم

قيصر يستصرخ البابا

وأول من هاج القلوب واخرج هذه الرغبات من القول الى العمل راهب متعصّب فرنسى يدعى « بُطرُس النَّاسِك » ، فطاف باوربا باشارة

بطرس الناسك

البابا يستنفر القوم الى استنقاذ بيت المقدس من الأتراك . وكان بليغاً مؤثراً ، فأثارهم وملأهم حماسة وحقداً على المسلمين . وعند ذلك جمع البابا أمراء أوربا وحرضهم على اعلان حرب دينية على المسلمين ، فلبى نداءه الألوف من الناس ، وقد أخذت الحمية منهم كل مأخذ . وخرجت لذلك من أوربا سنة ٤٨٩ هـ (١٠٩٦ م) جيوش عظيمة بها كثير من أمراء اوربا وفرسانها وقوّادها العظام . وكانت بغية الكثير منهم الغنى والملك فى البلاد الذاهبين لفتحها

الحرب الصليبية الاولى

صادف هذا الوقت فترة ضعف فى شوكة الأتراك جاءت بين النهضة التى ساقتهم الى تلك البلاد والنهضة الجديدة التى أعقبت غارة الصليبيين وذلك لضعف امرائهم فى ذلك الحين . فانقضّت جيوش الصليبيين على « مملكة الروم » فهزموا سلطانها وردّوا الى قيصر الرومان ما يقرب من نصف آسيا الصغرى * وعند ذلك نقل سلطان الروم السلجوقى مقر سلطنته الى « قُونِيَة » . وترك الصليبيون قيصر الرومان يفصل لنفسه مع سلطان الروم ، ومضوا الى سورية . فوصلوا اليها بعد أن مات عدد عظيم منهم ومن دوابهم جوعاً وظمأ

﴿ تأسيس الإمارات اللاتينية ﴾

وجدّ الصليبيون فى فتح البلاد ، فاستولوا على كثير من مدن آسيا الصغرى والشام وكوّنوا لهم فيها إمارات سُمّيت بالإمارات الصليبية أو

* وكان اتفاقه معهم على ان ترد اليه جميع البلاد التى كانت فى قبضته قبل استيلاء الترك عليها


مصور
الأمارات اللاتينية فى سوريه
(بعد)
الحروب الصليبية الأولى
ورسمها الشيخ محمد فخر الدين المدرس بمدرسة المعلمين الناصرية
دولة السلجوقيين
قونيه
دولة البيزنطيه
الشرقية
امارة ارمينيه
امارة الرها
الرها
سروج
ملطيه
حلب
انطاكيه
الاسكندرونة
اللاذقيه
جبيل
حماه
حمص
طرطوس
جزيرة ارادوس
طرابلس
بيروت
بعلبك
صيدا
دمشق
صور
عكا
حيفا
قيساريه
ارسوف
يافا
عسقلان
بيت المقدس
نابلس
الكرك
قبرص
بحر المشرق
او البحر المتوسط الابيض
الاسكندرية
دمياط
المنصورة
الفرما
العريش
بلبيس
القاهرة
الجيزة
القلزم
دولة الخلفاء الفاطميين بمصر
نهر النيل
بحر القلزم
طور سيناء

« الإمارات اللاتينية » نسبة الى الأجناس اللاتينية التى كان يتألف منها الصليبيون

الرها وانطاكية

وأول ما أُسس من هـذه الإمارات إمارة « أَذَاسَا » (الرُّها)[١] بوادى الفرات سنة ٤٩٠ هـ (١٠٩٧م) ثم أنطاكية سنة ٤٩١ هـ (١٠٩٨م)

وفى هذا الوقت كان المصريون قد انتزعوا « بيت المقدس » من يد الأتراك السلجوقيين . وذلك ان الوزير « الأفضل » بن « بدر الجمالى » لما شعر بقدوم الصليبيين أمل خيراً وظن أنهُ إن اتحد معهم يفوز على أعدائه الأتراك ، فسار فى جيش الى فلسطين وأخذ بيت المقدس من السلجوقيين سنة ٤٩١ هـ (سبتمبر سنة ١٠٩٨ م) ، غير ان أعمال الصليبيين

بيت المقدس

خيَّبت عليـهِ ظنهُ ، فانهم ما كادوا يعلمون بخروج بيت المقدس من يد حُماتهِ البواسل (السلجوقيين) حتى انقضوا عليهِ وافتتحوه وغنموا منهُ غنائم لا تحصى ، وقتلوا من أهله نحو ٧٠٠٠٠ مسلم وأتوا معهم من المنكرات والفظائع الوحشية ما لا ينساه التاريخ . ثم كوّنوا بهِ إمارة لاتينيـة أخرى تُعرف بمملكة بيت المقدس سنة ٤٩٢ هـ (١٠٩٩ م)

الافضل والصليبيون

ومن ذلك العهد بقى «الأفضل» فى حروب مستمرة مع الصليبيين ، ووقعت بينهم عدة وقائع صغيرة انتهت بتراجع المصريين من الشام تدريجاً ، حتى لم يبقَ لهم فيها سوى «عَسْقَلان» . وفى سنة ٥١١ هـ (١١١٧ م) أغار « بلدوين » (بَقْدَوين)[٢] ملك بيت المقدس على مصر ذاتها فأحرق « الفرما » ووصل الى «تِنِّيس» ، ثم لحقهُ مرض فرجع ومات . ومن ذلك الوقت اكتفى الفاطميون باتباع خطة الدفاع عن مصر

(١) موضعها الآن «أُرْفَة» (٢) ويكتب فى التواريخ العربية أيضاً «بَغْدَوين»

وفى سنة ٥١٥ هـ (١١٢١ م) أمر الخليفة الفاطمى بقتل «الأفضل» حسداً له وحباً فى القبض على السلطة ، ولكنهُ لم يستطع ادارة شؤون الدولة وحده ، فكرهه الناس وقتلوه سنة ٥٢٤ هـ (١١٣٠ م)

﴿ حالة الإمارات اللاتينية ﴾

لما حلّ الصليبيون بالشام لم يكوّنوا لهم مملكة واحدة تجمع كلمتهم ، بل أسس كل قائد منهم إمارة له انفصلت بمضى الزمان تمام الانفصال عن نظائرها . ومن أهمّ هذه الإمارات « الرُّها » و « انطاكية » و « بيت المقدس » و « طَرَابُلُس » . وكانت كل إمارة تسعى وراء مصلحتها الخاصة بدون مراعاة لمصلحة الجميع ، فجرّ ذلك عليهم الضعف بالتدريج

زنكى

وبقى الصليبيون (على اختلافهم وبُعدهم عن المدد من أوربا) ثابتى الأقدام ، اذ كان الترك أنفسهم لا يزالون متفرقين . ولكن فى سنة ٥٢١ هـ (١١٢٧ م) وُلى « عماد الدين زَنْكى » من قِبَل الدولة السلجوقية حاكماً لأعالى الفرات والمَوْصِل . وكان رجلاً قوياً ، فعمل على توحيد جميع ولايات سورية الاسلامية تحت كلمته ، ولم يلبث ان بسط سلطانه على « حَلَب » ، وكان أهلها قد استغاثوا بهِ من الفرنج . وفى سنة ٥٢٤ هـ (١١٣٠ م) فتح حصن « الأَثَارِب » (بالقرب من حلب) بالرغم من مقاومة الصليبيين . وفى سنة ٥٣٠ هـ (١١٣٥ م) حاول الاستيلاء على دمشق فلم يتيسر له لاستنجاد حاكمها بالصليبيين . غير انهُ استولى فى هذه الجهة على « بَعْلَبَكّ » سنة ٥٣٤ هـ (١١٣٩ م) وعيّن « أيوب بن شاذى » أحد قواده العظام حاكماً عليها . وفى سنة ٥٣٩ هـ (١١٤٤ م) استولى على «أَذَاسا» (الرُّها)

عنوة بعد قتال شديد ، فكان لذلك أسوأ وقع على الصليبيين . ولم يعش «زَنكى» طويلاً لاستتمام فتوحه ، فقتل غيلة بعد ذلك بعامين ، وتُقُسمت دولته بعد مماته

نور الدين

اقتسم دولة «زنكى» بعد مماته ولدان له : أخذ أكبرهما «الموصل» ، وأخذ الأصغر (وهو نور الدين) ولايةَ «حلب» . فانتهز «مجير الدين أبَق ابن محمد» حاكم دمشق فرصة انقسام الدولة واستردّ «بعلبك» ، والتحق «أيُّوب بن شاذِى» واليها بخدمته ورُقى بعد قليل الى مرتبة قائد جيوشه . ووجَّه «نور الدين» همته للدفاع عن «أذاسا» ، وكان الفرنج قد حاولوا استرجاعها ، وخرجت لحمايتهـا من أوربا قوة حربية جديدة تحت قيادة «كُنراد» امبراطور المانيا و «لويس السابع» ملك فرنسا . فرأوا أن يبدءوا بالإغارة على «دمشق» (سنة ٥٤٣ هـ : ١١٤٨ م) ولكنهم اختلفوا وعادوا الى بلادهم بالفشل (١١٤٩ م) . وتُعرف هـذه الحملة «بالحرب الصليبية الثانية» ، ولم يكن من ورائها سوى إضعاف آمال الصليبيين فى سورية . ولما أنس «نور الدين» من نفسهِ القوة ورأى ان «أيوب بن شاذى» (صديق والده القديم) نافذُ الكلمة فى دمشق ، وانهُ أخو «شيركوه» أحد قواده الكبار ، عمل على فتحها . ولم يظهر جيشه أمام المدينة حتى سلّمت له (سنة ٥٤٩ هـ ١١٥٤ م) فدانت له بذلك سورية الاسلامية . ثم عيّن «نور الدين» «أيوب بن شاذى» حاكماً على مدينة «دمشق» ، وعيّن أخاه «شيركوه» حاكماً على ولايتها (دون المدينة)

الحرب الصليبية الثانية

﴿ مصر والصليبيون ﴾

بينما كان «عماد الدين زنكي» وابنه « نور الدين » من بعده يجدّان في الاستيلاء على الشام كان الفاطمية في مصر يعوّلون على الاكتفاء باتباع خطة الدفاع . وكان وزراؤهم قد جمعوا كل السلطة في أيديهم حتى ان « رضوان » وزير « الحافظ » تلقّب « بالملِك » سنة ٥٣٢ هـ (١١٣٧ م) وتبعه في ذلك جميع وزراء الفواطم من بعده . فاصبح بذلك منصب الوزارة موضوع تنافس كبار الرجال في مصر . وكانت « القاهرة » دائماً مشهد مذابح ومعارك بتفاقم العداوة والبغضاء بينهم وحلول بعضهم محل بعض . وكثرت هذه الويلات في عهد الظافر ، فاجترأ أحد الوزراء على الخليفة وقتله ، وأجلس مكانه ابنه الفائز وهو طفل لا يتجاوز الخامسة من عمره (٥٤٩ هـ : ١١٥٤ م)

كثرة الفتن بمصر

وفي هذه السنة قبض على أزمّة الوزارة رجل قوى يدعى «الملك الصالح» طلائع بن رُزّيك . وكانت مصر اذ ذاك في حاجة الى حازم مثله ، خصوصاً ان « عسقلان » آخرَ أملاكها في سورية كانت قد سقطت في يد افرنج بيت المقدس سنة ٥٤٨ هـ (١١٥٣ م) . وبات كل من « نور الدين » و « صاحب بيت المقدس » يتطلع للاستيلاء على مصر ذاتها ، ولم يمنع أحدهما من الاغارة عليها الا خوفه من الآخر . عند ذلك ارسل « الملك الصالح » وفداً الى « نور الدين » يطلب اليه محالفته على الصليبيين ، فلم يجبه « نور الدين » الى طلبه إمّا خوفاً منهُ واما كراهة للشيعة . فاكتفى « الملك الصالح » بالدفاع عن مصر وصيانة حدودها الشمالية الشرقية من

طلائع بن رزيك

تعدّى الأعداء . وكان عهده عهد هدو وسكينة فى البلاد

شاور وضرغام

ولما قتل سنة ٥٥٨ هـ (١١٦٣ م) تولى الوزارة ابنه العادل رُزّيك بوصية من أبيهِ ، ولكن ذلك لم يسكن عواصف الفتن ، فقام نزاع كبير بشأن تقلّد الوزارة أدّى أخيراً الى انقراض الدولة الفاطمية . وذلك ان « شاور » بن مجير السعدى الذى كان والياً على قوص ثار على العادل رُزّيك بن طلائع وقبض عليه وقتله وأجلس نفسه وزيراً مكانه ، وبقى فى الوزارة حتى ثار عليه « ضِرْغام » أحد القواد المحبوبين ، ففرّ «شاور» الى دمشق ، وطلب من « نور الدين » مساعدته على الرجوع الى منصبه ، ووعده بدفع جزية سنوية اليـهِ إن تمّ له ذلك ، فتردّد « نور الدين » . وبينما هما فى أخذ وردّ قام خصام بين « ضرغام » و « أَمَلْريك » (مُرّى) ملك بيت المقدس بشأن جزية سنوية كان قد اتفق مَنْ قَبله من الوزراء على دفعها لأملريك . فاغار « املريك » على مصر فى الحال وهزم « ضرغاماً » فى « بلبيس » . ثم رجع بعد ان أرضاه « ضرغام » وحالفه خوفاً من شرّه واستعانة بهِ على «شاور» و « نور الدين » لو اتفقا. فعلم بذلك « نور الدين » وبادر بارسال جيش من الأتراك بقيادة « أسد الدين شيركوه » ومعه صلاح الدين ابن أخيه ، وصحبهم شاوَر فدخلوا القاهرة بعد ان هزموا الجيوش المصرية ببلبيس . وانفضّ الناس من حول « ضرغام » ، ثم قتلوه

شيركوه بمصر

ولم يتمّ الأمر لشاور حتى شرع فى التخلى عن حلفائه وناصريه ونقض جميع عهوده معهم . فانقلبوا عليهِ ، وارسل « شيركوه » ابن اخيه « صلاح الدين » للاستيلاء على بلبيس. فاستغاث «شاور» بأملريك . ولما قدمت

الجيوش الصليبية صدّها « صلاح الدين » ببلبيس نحو ثلاثة أشهر . ثم خاف « أملريك » على مملكتـه بالشام من غارات « نور الدين » ، فأراد العودة اليها . وكان « شيركوه » نفسه قد سئم البقاء بمصر ، فعقد هدنة وخرج بجيشه تاركاً مصر للجيوش المصرية وحلفائهم من الفرنج

ولم تأت غارة « شيركوه » هذه بالفائدة المقصودة ، ولكنها مكّنته من الوقوف على حالة البلاد ، فوصفها لنور الدين عند عودته ، وهوّن عليهِ أمرها وطلب اليهِ ان يرسله فى جيش آخر لفتحها ، فرضى بذلك نورالدين مع ما طبع عليه من الحرص والحيْطة

شيركوه واملريك بمصر

خرج « شيركوه » الى مصر لثـانى مرة سنة ٥٦٢ هـ (١١٦٧ م) فاسرع «املريك» بالقيام وراءه لينجد حلفاءهالمصريين . فوصل «شيركوه» الى النيل قبل خصمه ، فعبر النيل جنوبى القاهرة بنحو ٤٠ ميلاً . فلم يكد يعبره حتى وصل « مرى » الى الشاطئ الشرقى . وسار الجيشان شمالاً أحدهما أمام الآخر حتى عسكر «مرى» بالقرب من الفسطاط ، وعسكر « شيركوه » أمامهُ بالجيزة ، وبقى الجيشان يرقب بعضهما بعضاً . وعند ذلك رأى « مرى » قبل أن يبدأ فى الدفاع عن مصر أن يعقد تحالفـاً رسمياً مع الخليفة نفسهُ مخافة أن يُزعزَع « شاوَر » ويصبح تحالفه معهُ بلا جدوى . فسمح الخليفة بذلك وقابله بعينه مندوبان من قبل «مرى»، وتمّ التحالف على أن يدفع له الخليفة ٤٠٠٠٠٠ دينار نظير دفاعه عن مصر وصد الأعداء عنها . وعند ذلك عبر « مرى » بجيشه شمالى القـاهرة ، فتراجع «شيركوه» الى الصعيد ، فلحقه الصليبيون بجهة يقال لها «البابان» بالقرب من المنية فانتصر عليهِ السوريون أصحاب شيركوه (وهم الفا فارس)

انتصاراً باهراً سنة ٥٦٣ هـ (١١٦٧ م) . وفي هذه الموقعة أبدى «صلاح الدين» كفاءة عظيمة . ثم سار «شيركوه» الى الاسكندرية فدخلها من غير مقاومة ، وترك فيها «صلاح الدين» في نصف الجيش ، ورجع هو بالنصف الآخر لإتمام فتح الصعيد والاستيلاء على القاهرة والفسطاط . فسار الفرنج وحاصروا الاسكندرية براً وبحراً فدافع عنها «صلاح الدين» أحسن دفاع (وكان هذا أول عهده بالرياسة) ، وانتهى الأمر باتفاق «شيركوه» و «مرى» على ان يخلى كل منهما البلاد وان يتركوا مصر للمصريين

صلاح الدين

ولكن الصليبيين طمعوا في مصر ، فابقوا لهم فيها شِحْنة احتلت اسوار القاهرة . ولم يلبث «مرى» ان رجع بجيش آخر (يريد غزو البلاد هذه المرة لا الدفاع عنها) . ففتح بلبيس سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٨ م) وذبح من أهلها ما لا يحصى ، فاثار بذلك حقد المصريين . وخاف «شاور» ان يأخذ «الفسطاط» فأمر اهلها بالجلاء عنها الى القاهرة وأحرقها سنة٥٦٤هـ (١١٦٨ م) كي لا يأوى اليها الصليبيون . وكانت اذ ذاك مدينة عظيمة فبقيت النار مشتعلة فيها أربعة وخمسين يوماً . وما زالت آثار الحريق تشاهد الآن في اطلال «الفسطاط» بالقرب من مصر القديمة الحالية .

عودة املريك الى مصر

احراق الفسطاط

وجاء الفرنج فحاصروا القاهرة ، فاخذ «شاور» يعدهم بالمال ويماطلهم . واستغاث «العاضد» أثناء ذلك «بنور الدين» ، فلم يتردد وارسل لثالث مرة جيشاً كبيراً بقيادة «أسد الدين شيركوه» مقصده الحقيقي غزو مصر لا مساعدة المصريين ، وخرج معه «صلاح الدين» وهو كاره . فأرسل «مرى» جيشاً ليمنع انضمام «شيركوه» الى الجيوش المصرية ، ولكن

شيركوه بمصر لثالث مرة

« شيركوه » فاقهُ فى حركاتهِ وانضم الى جيش « شاور » سنة ٥٦٤ ﻫ (يناير سنة ١١٦٩ م) . فلم يقدم « مرى » على القتال ورجع الى الشام بخفّى حنين

﴿ دخول « شيركوه » مصر وانقراض الدولة الفاطمية ﴾

صلاح الدين في منصب الوزارة

فدخل « شيركوه » القاهرة ظافراً ورحّب بهِ الناس ، وخلع عليهِ الخليفة حلّة ، اكراماً له واعترافاً بجميله . وشكّ « شيركوه » والخليفة معاً فى اخلاص « شاور » فقتلوه . وعيّن « شيركوه » وزيراً فلم يتولّ المنصب اكثر من شهرين ثم توفى . فخلفه فى الوزارة ابن أخيه « صلاح الدين » ولقب بالملك « الناصر » ، فكفّ يد « العاضد » عن كل شىء بالتدريج . ثم قطع الخطبة للعاضد وهو مريض ، ودعا المستضىء العباسى . ثم مات العاضد سنة ٥٦٧ ﻫ (١١٧١م) ، وبموته انقرضت الدولة الفاطمية. واستولى « صلاح الدين » على مصر مع تابعيته للخليفة العباسى أولاً ولنور الدين ثانياً تابعية اسمية

﴿ مزايا الفاطميين وأسباب سقوط دولتهم ﴾

كانت دولة الفاطميين على شذوذها وابتداعها من أعظم دول الإسلام مُلْكاً ، وأشدّها للعلم أزرا ، وأطولها على الناس عائدةً وفضلاً ، وأرقاها حضارة وأدباً ، وأنبلها ترفاً وتمتعاً

الاعياد والحفلات عند الفاطميين

وهم الذين أحدثوا فى مصر كثيراً من المواسم والأعياد والحفلات الوطنية ، كما ابتدعوا عادة الاحتفال بموالد أهل البيت وباحياء بعض الليالى المباركة ، وبقى أغلب هذه الاحتفالات الي وقتنا . وكانوا فى تلك المواسم

والموائد يأدبون المآدب الجامعة لجميع الطبقات كل على حسب مرتبته ، فتُقدم الموائد الكثيرة المزخرفة بالذهب والفضة والعاج وألوان الأصباغ ، عليها من الأطعمة الفاخرة وأنواع الحلوى اللذيذة ما لا يكاد يصدقه العقل كثرةً وتنوعاً ، وكثيراً ما تُقدم معها أصناف الكسوة الثمينة والهدايا والدنانير والدراهم لأرباب الدولة والخواص ثم للخدم والجند . فمن المواسم موسم أول العام ، ويوم عاشوراء ، ومولد النبي صلى الله عليه وسلم ، ومولد عليّ بن أبى طالب رضى الله عنهُ ، ومولد الحسن ، ومولد الحسين رضى الله عنهما ، ومولد فاطمة الزهراء رضى الله عنها ، ومولد الخليفة الحاضر ، وليلة أول رجب ، وليلة نصفه ، وليلة أول شعبان ، وليلة نصفه ، وغرة رمضان وإحياء ليالى رمضان بالقراءة ، ومدّ أسمطة السَّحور ، وليلة ختم رمضان (ليلة ٢٩ منهُ) ، وعيد الفطر ، وعيد النحر ، وقافلة الحج ، وفتح الخليج ، وعيد النيروز القبطى ، وعيد الميلاد المسيحي ، وليلة الغطاس ، وخميس العهد ، (وهذه المواسم القبطية معروفة قبل الفاطمية الا أن عنايتهم بها كانت شديدة)

وكان تأنّقهم بجمع التحف والذخائر النفيسة من آنية الذهب والفضة والأحجار الكريمة والتماثيل الحيوانية والنباتية المرصعة بفصوص الجواهر المُجْراة بالذهب والفضة ما لم يُسمع بمثله في الملة الإسلامية . ولئن كانت مخالفتهم لأهل السنة فى المذهب أبعدتهم عن علومهم وآدابهم لقد فاقوهم فى العلوم الآليّة والفنون الجميلة . ولذلك تقدمت فى زمنهم الصناعة العربية من الصياغة والحياكة والتطريز والعمارة والزخرفة تقدماً بقى أثره الى الآن ، وما زالت دور الآثار بأنحاء العالم مملوءة بأحسن النماذج الدالة على فوقانهم

الصناعة

فى ذلك . وكانت للقاهرة والاسكندرية فى ذلك العهد شهرة فائقة فى صناعة الحرائر الدقيقة ، واشتهرت اسيوط والبهنسا بالأصواف ، ودمياط بنسيج يعرف بالدمياطي و« تنيس » بنسيج آخر دقيق يسمى « أبا قَلَمُون » يصنع لاستعمال الأسرة الملكية خاصة

دور الكتب

وكانت لهم دور كتب عديدة جمعت اكثر من ستمائة ألف مجلد مفتحة أبوابها للخاصة والعامة ، وبها القُوّام والمغيّرون والنُّساخ ، ومن أشهرها دار الحكمة التى كانت بين القصر الغربى والأزهر (ما بين السكة الجديدة والصنادقية الآن) . وكان تعظيمهم للعلماء والأدباء والأطباء يجل عن الوصف . وكان لهم المراصد العديدة على جبل المقطم وجبل الكَبْش وظاهر القاهرة

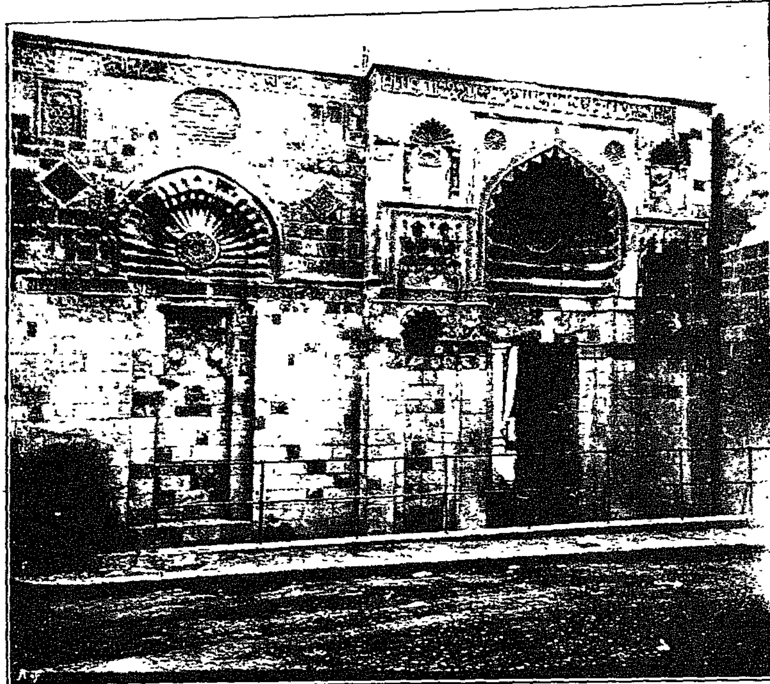
وأنشئوا القصور والبساتين والمناظر على ضفاف النيل وحوالى القاهرة . وكانت سفن اسطولهم فى أول دولتهم تعد بالألوف وتقلع الى السفر من منظر المَقْس (قرب جامع أولاد عنان الآن)

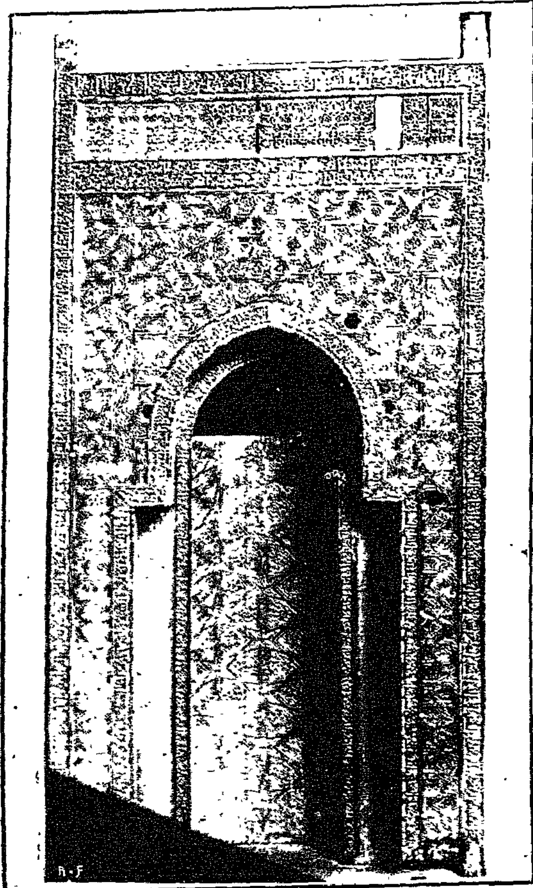
وجملة القول ان الدولة الفاطمية كانت ذات عظمة وتأثير صبغ مصر بصبغة لا تزال بقيتها الى اليوم ، ولا عجب أن كانت تسمى « دولة المصريين » . ومن آثارها الباقية مدينة القاهرة المعزّية ، وباب زَوِيلة وباب النصر والفتوح والجامع الأزهر ، وجامع الحاكم ، والجامع الأقمر (بالنحاسين)

اسباب سقوط الفاطميين

وأسباب زوال هذه الدولة ترجع الى عدة أمور منها :

(١) استهانة خلفائها بحماتها الأولين وأهل الدعوة والعصبية لها من العرب والبربر ، واستعاضتهم عنهم بمماليك الترك والدَّيْلَم والسودان والأرمن والصقالبة ، مما أوقع المنافسة بين جميع هذه الطوائف وأثار بينها الحروب



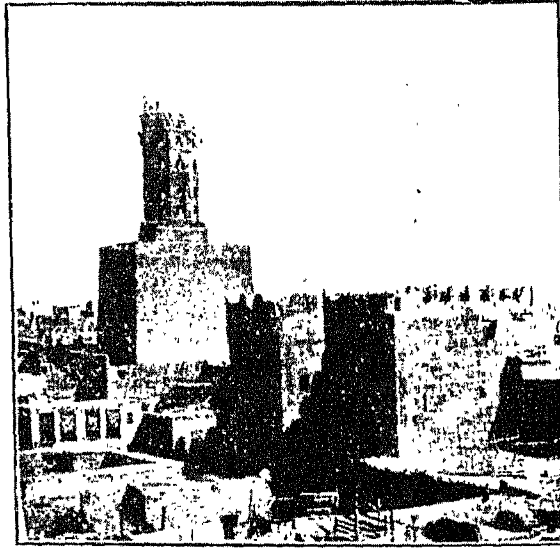


(١) الجامع الاقمر

(٢) محراب من خشب من مسجد السيدة رقيـة محفوظ بدار الآثار العربية

(رسم محمد افندى على سعودى)

الداخلية التي خربت البلاد ، وأهلكت العباد ، وعطّلت المرافق ، وأذلّت الخلفاء في قصورهم . وهي الغلطة التي غلطها العباسيون من قبلهم



(منارة جامع الحاكم وبُرجا باب الفتوح)

(٢) تهاون أهل الحل والعقد في اختيار الخلفاء الأكفاء واغضاؤهم على البيعة للأطفال بالخلافة ، مما سهّل على الوزراء والحجّاب وأمراء الجيوش الاستبداد بالملك ، ونشأ من ذلك تحاسد أرباب الدولة وتزاحمهم على المناصب وحدوث المعارك بين أشياعهم

(٣) تغالي الفاطميين في التشيع وإحداث البدع فيهِ ، حتى اعتلت عقائدهم ، وخالفوا في بعضها جمهور المسلمين ، فنفرت عنهم قلوب أهل السنّة بل كثير من معتدلة الشيعة ، ونابذتهم الممالك المجاورة لهم وعملت على محو دولتهم ، واستقلت عنهم بعض أطراف بلادهم

(٤) مصادفة خروج الصليبيين لأيام ضعفهم ، واشتداد المجاعات والطواعين فى أيامهم

(٥) غفلة وزرائهم، باستعانة بعضهم بالصليبيين على بعض ، وتكالب الصليبيين عليهم ، مما أوجب تدخّل نور الدين فى أمر مصر وإرساله الجيوش مع أسد الدين شيركوه وابن أخيه يوسف صلاح الدين اليهـا ، فقضوا على البقية الباقية من استقلالهم

الفصل السادس

كلمة

فى الحضارة العربية* بالمشرق

قد أشرنا فيما سبق أن جاهلية العرب كان لها بعض حضارة وعلوم مناسبة لحالة بلادها ، ولا سيما ما كان منها فى اليمن وعُمَان والبَحْرين وسَقْىِ الفُرات والشام . ونشرح هنا حال حضارة العرب بعد اسلامهـا وبسط سلطانها على أنفس ممالك العالم القديم فنقول :

﴿ الآداب ﴾

حفظت العرب بعد اسلامها لغتَها وشعرَها ، حِرصاً على بقاء قرآنها مفهوماً ، وشرعِها معلوماً . فوضعوا النحو والصرف ومَتْن اللغـة والبلاغة

* نقصد بالعرب هنا كل من كان للغة العرب ودينها وآدابها تأثير فى طبيعته الوجودية ولو لم يكن عربى الأصل . فمثلاً حضارة الأمة المصرية فى عهد المماليك عربية الصبغة

والعَروض والقوافي ، وجمعوا دواوين الشعر والخَطابة وأخبار جاهليتهم ، وألّفوا فيها ألوف الألوف من الكتب والرسائل ، فخدموا بذلك لغتهم وأدبها خدمة قلّما تُعهد في غيرها . وقد مضى على انقراض قدمائهم وفصحائهم اكثر من اثنى عشر قرناً وما زالت لغتهم تُقرأ وتُكتب بين اكثر من مائتي ألف ألف نفس

﴿ علوم الشرائع والقوانين ﴾

ولا تقلّ براعتهم في حفظ شريعتهم وعلوم قرآنهم عن حفظ لغتهم وأدبهم ، بل ان عنايتهم بعلوم اللغة والأدب لم تكن الاّ وسيلة الى حفظ الشريعة المستنبطة من القرآن الكريم والحديث الشريف . فوضعوا الأصول والأقيسة لأن يستنبطوا منها ألوف الألوف من الأحكام العامة والشخصية ، مما ملأ دور الكتب في أنحاء العالم . على ان الباقي منها ليس الاّ نقطة من بحر مما أحرقهُ الصليبيون والتتار والاسبان . ويعرف المطّلع على الشريعة أن المسلمين لم يقفوا في فهم شريعتهم عند حد ما أُجمل في قرآنهم وسنّة رسولهم ، بل استعملوا ذكاءهم العظيم واجتهادهم المطلق في استخراج ما يناسب الشعوب وأحوال الزمان والمكان ، غيرَ مُفْتاتين على الدّين ، ولا خارجين عن أصوله

﴿ العلوم الآلهية والحِكمية ﴾

استخرج العرب أصول دينهم واعتقادهم من الكتاب والسنة ، ثم لما دخل في الإسلام كثير من أهل الملل والنِّحل المختلفة ، اعتقاداً أو خديعة ، شاع في الإسلام بعض الشبه ، خصوصاً بعد ما أطلق العباسيون

الحرية للشعوب الأعجمية ، فجرّأهم ذلك على مناوأة الإسلام ومجادلة اهله بالأقيسة والبراهين العقلية . فأمر الخليفة المهدى العباسى بوضع الكتب فى علم الكلام والجدل بطريقة الاستدلال بالأدلة العقلية ، فجرّ ذلك علماء المسلمين الى مناظرتهم من جنس كلامهم ، فترجموا كتب اليونان والفرس والهنود زمن الرشيد والمأمون والواثق ، ونقلوا المنْطق والفلسفة ، ومزجوا مباحثها بمباحث علم الكلام والدين ، فنبغ منهم أئمة أعلام أربوا على سقراط وافلاطون وارسطاليس . وافترقوا فى ذلك عدة فرَق ، أشهرهم « المعتَزلة » و « أهل السنَّة » و « الفلاسفة »

بعض فلاسفة المسلمين وأئمة دينهم

فمن الأولى : أبو الهُذَيل وثُمامة بن أشْرَس والنظّام والجاحظ والجُبَّائى ومن الثانية : أبو الحسن الأشْعَرى والباقِلّانى والفَخْر الرّازى والغَزَالى . ومن الثالثة: الكِنْدِى واحمد بن الطيّب وابو زيد البَلْخى والفارابى وابن سينا

﴿ العلوم الرياضية والفلكية ﴾

علم الجبر

أخذ العرب هذه العلوم عن الكتب اليونانية فى العصر الذى لم يكن الرومُ سلائلُ الإغريق يعرفون منها الا قليلاً . وكذلك أخذوا عن الهنود الأرقام الحسابية ، ولكنهم لم يقتصروا على القليل المنقول ، بل توسعوا فى الحساب والهندسة. واخترعوا الجبر : اخترعه «محمد بن موسى الخُوَارِزْمى» ولم يُعرف منهُ قبلهم الا مبادئ أُخذت عن اليونان والهنود فى استخراج القوى ، فوصل العرب فيه الى حل معادلات الدرجة الثالثة ، ووصلوا فى القرن الرابع الى نهاية حساب المثلثات الكروية

وعن العرب اخذت أوربا هذه العلوم . ولا تزال أرقام حسابهم هى

الأرقام العربيـة . وبقاء اسم الجبر عندهم بلفظه العربى شاهد انه من عمل العرب

الفلك والهيئة

أما الفلك والهيئة فللعرب اليد الطولى فى تهذيبهما وتحقيق مسائلها فقد كان عصر المأمون والواثق وغيرهما من خلفاء بغداد والملوك التى اشتقت من الدولة العباسية عصور ازدهـاء وعناية عظيمة بهما ، فنقلوا فى زمن الرشيد والمأمون كتب اليونان من القسطنطينية ، وحققوا مسائلهـا ، وأصلحوا خطأها . فعملت الأرصاد والأزياج الفلكية ، ورصدوا الاعتدالين الربيعى والخريفى ، وقدّروا مَيل منطقة فلك البروج ، وقاسوا الدرجة الأرضية ، فمسحوا الكرة الأرضية وعرفوا مقدار قطرها . ومراصدهم فى بغداد والقاهرة وغيرهما مشهورة

بعض الرياضيين والفلكيين

ونبغ فى هذه العلوم ابناء موسى بن شاكر والفَزَارى والخوارزمى . والبلخى وأبو مَعْشَر الفلكي وثابت بن قُرّة وابن يُونس المصرى ، ثم البتّانى والبيرونى والطوسى وابن الهيثم الرّياضى وكثيرون

﴿ الجغرافيا والتاريخ ﴾

الجغرافيا

وبرع العرب فى أكثر أنواع الجغرافيا ، فكُتُب «المسالِك والممالك» لا يزال منها كثير مطبوعاً فى أوربا وغيرها ، ومنها المكتبة الجغرافيـة الشهيرة . ووضعوا بأنفسهم جغرافيا بلادهم ، وترجموا عن بطليموس وغيره آراءهم ، فصنعوا المصورات والكرات الأرضية على المعادن والورق والجص والثياب ، وكان لهم سياحات عظيمة فى القارات القديمة . وكفى دليلاً على اهتمام العرب بأحوال الأرض وسلوكها واستعمارها ان الأوربيين لما ذهبوا

الى شرق افريقية وجنوبيها والى جزائر الأوقيانوسية وجدوا العرب قد سبقوهم اليها من مئات السنين

بعض الجغرافيين

ومن أشهر جغرافيي العرب ابن حَوْقَل والإصْطَخْرِى وابن خُرْدَاذَبَة والمسعودى وأبو الفِداء والشريف الإدْرِيسى

ولم تتفنن أُمة فى التاريخ ما تفنن العرب ، فكتبوا تاريخ الدول ، وتاريخ الأنبياء ، وتاريخ الأفراد من العلماء والشعراء والكتّاب والوزراء والمفسِّرين والمحدّثين ، وتاريخ البلدان فأفردوا لكل بلد تاريخاً . وكتبوا فى آخر دولهم فى فلسفة التاريخ ، فرسموا بذلك خطتها للأوربيين الذين برعوا فيها

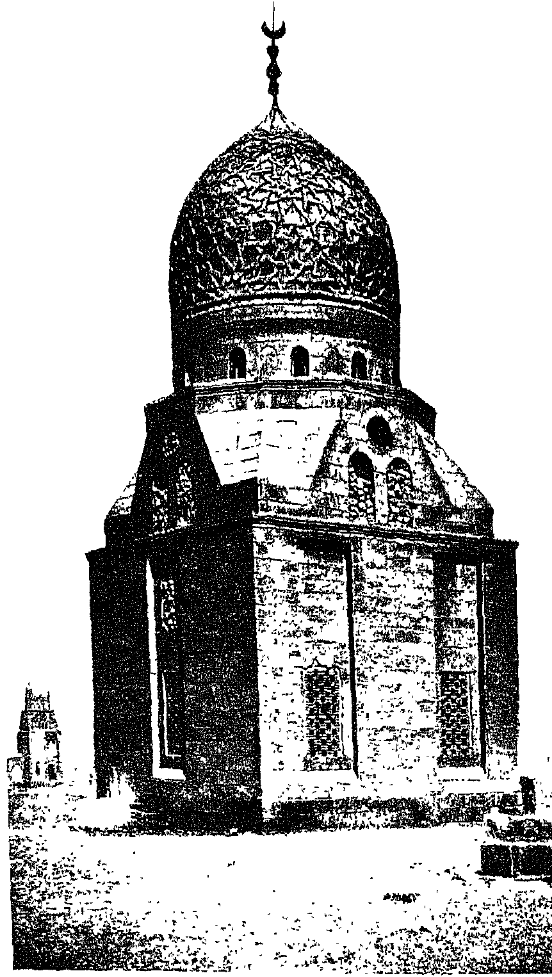
بعض المؤرخين

ومؤرخو العرب لا يُحصون كثرة ، من أشهرهم الطَّبَرِى والمَسْعودِى وابن الأثِير وابن خلِّكان وابن شاكر والخطيب البغدادى وابن خلْدُون

﴿ العلوم الطبيعية ﴾

الطبيعة

أما العلوم الطبيعية فلا تُجحد أعمالهم العظيمة فيها ، فانهم فوق استظهارهم ما عرفوه من اليونان زادوا فيه مسائل تستحق الذكر ، فكشفوا كثيرًا من قوانين تثاقل الأجسام ، وجعلوا لها الجداول الدقيقة ، وقوانين الضوء ، وأظهروا براعة فائقة فى الأمور العملية الخاصة بالسوائل المتحركة (الإيذرُوليك) ، مثل حفر الآبار وانشاء الخزانات وحفر الترع ووضع الأقنية والبرابخ وما شاكل ذلك ، مما لا تزال آثاره باقية فى العراق والجزيرة والشام ومصر وشمالى إفريقية والأندلس . كما عرفوا علم السوائل الثابتة (الايدروستاتيك)



قبة من حجر النحت — مثال من دقة فن العمارة العربية

(رسم محمد افندي حلمي سعودي)

الكيمياء

ولا ينكر الأوربيون أن علم الكيمياء الحقيقي هو من نتائج بحث العرب وتجاربهم. ويسمي العرب الكيمياء الحديثة « صنعة جابر » (جابر ابن حيّان)، إشارةً الى ان جابر هو الذى زاولها وكشف مفردها ومركبها. واكثرُ إطلاق لفظ «الكيمياء» اليونانى عندهم كان على الكيمياء الكاذبة التى نقلوها عن اليونان، وهى استخراج الذهب من غير معدنه. وهم الكاشفون لزيت الزّاج والماء الملكى وروح النشادر والزّاج الأخضر وحجر جهنم والراسب الأحمر والغَوْل (الكحول) وملح البارود وملح الطرطير والسليمانى والزرنيخ. وهم المهتدون لاكثر طرق الترشيح والتقطير والإذابة والتصعيد. نعم ان الأوربيين كشفوا العناصر البسيطة، واستنبطوا التقسيم والتحليل والتركيب باعتبار الذرات، فسهلوا دراسة هذا العلم وطرق الاختراع، الاّ ان ذلك لا يمنعنا من الاعتراف بأن الفضل للمتقدم. ومن أشهر الكيميائيين جابر والكِنْدى والرّازى

الطب

أما الطب فأخذوه عن اليونان والهنود ثم زادوه بتجاربهم وبحوثهم فهم أول من استعمل أغلب الكاويات المعروفة الآن، وأول من اشتغل بعلاج الجذام والحَصْبة والجُدَرِىّ وأول من كشف عملية قدح العين (الكَتَرَكْتا)، وأول من استعمل السكر فى الأدوية بدل العسل، وأول من وصف الأمراض الجلدية الدورية وصفاً علمياً. ولئن كانت الجراحة عندهم ليست فى التقدم على ما هى عليهِ الآن لإحجامهم كثيرًا عن تشريح الآدميين لقد وضعوا فيها كثيرًا من آلات وحسّنوا أخرى

ولم يكن علمهم بالنبات وخواصه وعلم العقاقير والصيدلة أقل منهُ بالكيمياء

الميكانيكا

وقد أدَّاهم نشاطهم وإقدامهم الى الوصول الى معظم الحِيَل (الميكانيكا) المستخدمة الآن فى أصعب الصناعات . والعرب هم المخترعون للرقَّاص (البندول) وبيت الإبرة (البوصلة)

﴿ الصناعة ﴾

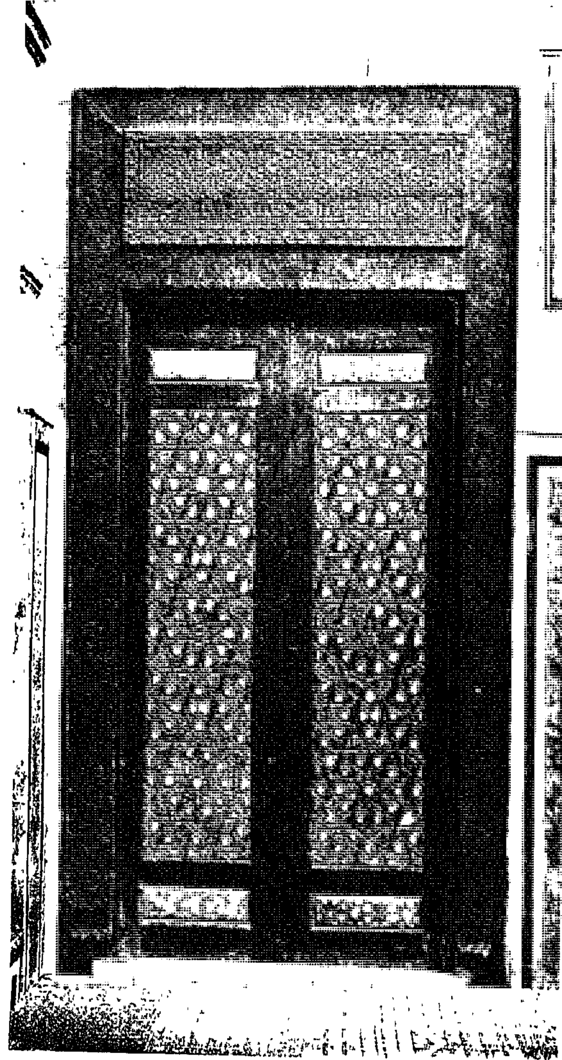
وللعرب فضل عظيم فى تقدُّم الفنون الصناعية ، فتفننوا فى صناعة المعادن ، وبرعوا فى طلائها بالمينا ، وعالجوا عمل الصُّلْب الصناعى . ولم تعرف الدنيا فى تلك الأزمان سيوفاً تفوق سيوف دمشق ، ولا نحَّاسين فاقوا نحَّاسى بغداد ، ولا صاغة خيرًا من صاغة عُمَان ، ولا نُسَّاجاً أحذق من نسَّاج تِنِّيس . ونجارتهم العربية الدقيقة لا تزال موضوع تنافس الأوربيين فى اقتنائها . ونشاهدها فى الأبواب والمنابر والمَشْرَبات . وهم الذين أدخلوا صناعة الحرير والقطن والورق باوربا

﴿ التجارة ﴾

أما تقدمهم فى التجارة فلا تزال آثاره شاخصة الى الآن ، فتجارة أواسط أفريقية بيد العرب . وكانت قوافلهم تصل فى الشمال الى الأصقاع القُطْبِيَّة : يدل على ذلك ما وُجد من آثارهم ودنانيرهم فيها . وسفنهم تبلغ الصين واليابان والأوقيانوسية قبل كشف البخار بأكثر من ألف سنة

﴿ فن العمارة ﴾

نقل العرب اكثر فن العمارة من مبانى البوزنطيين والفرس ، ولكنهم ما لبثوا ان غيَّروا فيها تغييرًا امتازوا بهِ كما امتازوا فى غيره . فهم المخترعون



مثال من دقة فن النجارة العربيـــة

(رسم محمد افندى على سعودى)

للعقود ذات الزوايا . ومما أكسب المبانى العربيـة جمالاً ورونقاً القباب الشامخة المزينة ، والمنارات الشاهقة ، والأبواب العالية مع صغر المدخل ، ثم رونق النقوش والزخرفة العربية ، مما سنذكره

﴿ الفنون الجميلة ﴾

الرسم والزخرفة

لما كان من المحرّم أو المكروه عند المسلمين تصوير الأحياء وجّهوا عنايتهم الى إبداع رسوم جميلة خالية منها ، مكوّنة من أشكال نباتية غير حقيقية متداخل بعضها فى بعض ، وأشكال هندسية مركبة من خطوط مستقيمة ومنحنية . فكانت أبدع ما صنع الإنسان

ومن أهم ما استعانوا بهِ فى الزخرفة أيضاً تأليف الألوان وكتابة آى القرآن الحكيم بأنواع الخطوط الكوفية والثُلُثيَّة المختلفة الأشكال ، وصناعة الفُسَيْفِساء والخَزَف المطلى (القاشانى) والزجاج الملوَّن ، والزخرفة بالجِص . ومبانيهم بالقاهرة والشام والاندلس ورسومهم فى جلود الكتب أوضح دليل على نَبْغهم فى ذلك

الموسيقى

وبالرغم من تحريم دينهم العكوف على الملاهى وعزف آلات الطرب لم يقصروا فى إجادة فن الموسيقى إجادة جعلت الموسيقى العربيـة ضرباً مستقلاً متميزاً بمزايا جميلة . وآلاتهم الموسيقية على خشونتها وسذاجتها تأتى من النغم بما هو جدير بالإعجاب ، بل منها ما لم يستطع الأوربيون أن يحاكوه فى تميم أجزاء النغم . وكان لعصر الرشيد والأمين والمأمون والواثق والمتوكل أثر عظيم فى تقدم صناعة الغناء والموسيقى عندهم

وجملة القول ان علوم العرب وآدابهم وفنونهم هى الحلقة الموصلة بين

حضارة الأقدمين والحضارة الحديثة . ومما يُلاحظ ان ما كانوا ينشرونهُ من التمدين فى البلاد التى يفتتحونها يبقى وراءهم فيها زمناً طويلاً . وللعرب الفضل (بالذات أو الواسطة) فى إحياء العلوم والفلسفة فى أوربا : أخذت ذلك عنهم شرقاً أثناء الحروب الصليبية وغرباً من الأندلس . وللعرب من كرم الأخلاق ، ورقة العواطف ، والرحمة ، والرفق بالحيوان ، نصيب لم يقلّ عن أنصباء الأمم الفاضلة

الفصل السابع

الدولة الأيوبية

٥٦٧ — ٦٤٨ ه (١١٧١ — ١٢٥٠ م)

(١) صلاح الدين الأيوبى

منشؤه

هو « الملك النّاصر صلاح الدين يوسف بن أيُّوب » مؤسس الدولة الأيوبية الكردية . وُلد بتَكْرِيت من بلاد الكرد سنة ٥٣٢ه (١١٣٧ — ٨م) والتحق بخدمة « نور الدين » أسوةً بأبيه وعمه . فبقى خاملاً الى الخامسة والعشرين من عمره ، شديدَ الميل الى الانزواء والعزلة. ثم رافق عمّه « شيركوه » فى الحملتين الأوليين الى مصر سنتى ٥٥٩ و ٥٦٢ ه (١١٦٤ — ١١٦٧ م) فكان له فى موقعة « البابين » وفى الدفاع عن الاسكندرية ما اشتهر امره ولم يرافقه فى الحملة الثالثة إلا بعد إحجام واعتذار (لعظيم ما لاقى فى حصار الاسكندرية) مع ان هذه الخرجة كانت فاتحة لتأسيس ملكه

وتكوين مجده . وربما لم يُقلّده المصريون منصب الوزارة فى مصر بعد عمّه الا لما كان يدلّ عليه ظاهره من سهولة انقياده

تقلده وزارة مصر وانقراض الفاطميين

ولى « صلاح الدين » وزارة مصر سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٩ م) فقام بها أحسن قيام . ولما رأى انه صار وزيراً للخليفة الفاطمى الشيعى وعاملاً لنور الدين صاحب دمشق السنّى فى وقت واحد ، دعا لهما معاً فى الخطبة وبذلك مهّد الطريق للقضاء على ما بقى من السلطان للخليفة الفاطمى . وعمل على استجلاب محبة أهل مصر ليشتدّ بهم ازره فى الانسلاخ من « نور الدين » ، وفى التغلّب على الفاطميين وتكوين دولة مستقلة له بمصر ، فعزل من المناصب الكبيرة من يخشاهم من المتشيعين للعاضد ونصب مكانهم اخوته ووالده . وثار عليه جند الخليفة السودان وكاتبوا الصليبيين يستنصرونهم ، فعجل صلاح الدين باخماد ثورتهم وطردهم الى الصعيد . ثم أغار الصليبيون على «دمياط » فاسرع الى صدّهم فرجعوا خائبين الى بيت المقدس . فكان ذلك ابتداء طور جديد فى تاريخ النزاع بين مصر والفرنج ، فبعد ان كانوا يوالون الغارات على مصر فى عهد الفاطمية أصبحوا ولا حيلة لهم الا الدفاع عن إمارة بيت المقدس . اذ قد أتبع صلاح الدين هذا الفوز باغارة على « فلسطين » غنم بها مغانم كثيرة فاحبّه الناس وأحلّوه فى قلوبهم محل المدافع عن الدين الآخذ بناصره . ولذلك لم يجد صعوبة فى حذف اسم الخليفة الفاطمى العاضد من الخطبة والدعاء للخليفة العباسى مكانه . وكان « العاضد » قد احتجب فى قصره منذ قدوم صلاح الدين ، وكان عند حذف اسمه فى مرض الموت فحُبس عنهُ الخبر حتى مات . ولم يأخذ صلاح الدين لنفسه شيئاً من خزائنه ونفائسه بل أرسل جانباً منها

الى « نور الدين » واهدى بعض خزانة الكتب الى وزيره « القاضى الفاضل» وباع الباقى على ذمة بيت المال . ولم يتخذ لنفسه قصراً من قصور الخلفاء ، بل بقى بمنزله وأنزل القصور رؤساء جيشه ، فباتت تلك القصور الجميلة بعيدة عن عناية الملوك ، وتسرّب اليها الخراب حتى لم يبق لها أثر الآن

ويمكن تقسيم ما بقى من سيرة « صلاح الدين » الى ثلاثة اطوار :

(١) تحصينه لمصر وتوطيد ملكه فيها

طور تحصين مصر

لما أن تمّ الأمر لصلاح الدين أخذ فى تحصين مصر ليأمن شرّ غارة الأعداء ، فعزم على بناء سور عظيم يضمّ الفسطاط والعسكر والقطائع والقاهرة وتشييد قلعة منيعة على جبل المقطم تشرف على الجميع ، فبدأ فى بناء السور ولكنه لم يتمّ قط

وأرسل « صلاح الدين » عدة جيوش الى البلاد المجاورة لمصر ، قيل : كان الغرض منها حفظ مكان تتراجع اليه جيوشه اذا طاردها الصليبيون أو نور الدين نفسه (وقد كان صلاح الدين لم يُبق له سوى سيادة اسمية لخنق عليه) ، فوجّه احد هذه الجيوش الى سواحل افريقية الشمالية ، والثانى الى السودان والثالث الى بلاد العرب حيث أخضع اخوه جميع بلاد اليمن وأسس بها دولة حكمت هنالك نحو خمس وخمسين سنة

ثم تآمر جماعة الشيعة بمصر على الوثوب بصلاح الدين ، فلم يفلحوا وفتك بزعمائهم . وكان الفرنج قد عزموا على مساعدة الثائرين ، فهاجموا الاسكندرية باسطول من « صقلية » أواخر سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٤ م) فرُدّوا عنها بالفشل

وفاة نور الدين

وفى هذه السنة مات « نور الدين » ، فخلا لصلاح الدين الجو ، وعمد الى بسط نفوذه على جميع الممالك الإسلامية وتكوين دولة واحدة عظيمة منها ، حتى اذا توحّدت كلمة المسلمين عمل على استئصال شأفة الصليبيين من الشرق

(٢) توسيع نطاق دولته

طور توسيع نطاق الدولة

ترك « نور الدين » ملكه لطفل صغير، فاستحوذ على السلطة نفر من الأمراء . فانتهز صلاح الدين هذه الفرصة وذهب الى « دمشق » وملكها باسم ابن سيّده نور الدين . ثم سار الى « حلب » فأقفلت أبوابها فى وجهه ، وأرسل صاحب الموصل (ابن اخى نور الدين) جيشاً لينضم الى جيش حلب ، فسار الجميع للقاء صلاح الدين ، فانتصر عليهم انتصاراً باهراً بجهة « قُرُون حَماة » سنة ٥٧٠ هـ (١١٧٥ م) . وانتصر فى موقعة اخرى فى السنة التاليـة ، فاعتُرف له بالسيادة على جميع انحاء الشام من مصر الى قرب الفرات

قلعة الجبل

ثم قضى « صلاح الدين » ست سنين (من ١١٧٧ الى ١١٨٢ م) فى ضبط نظام املاكه ومواصلة تحصين القاهرة . فبدأ فى سنة ٥٧٣ هـ (١١٧٧ م) بناء « قلعة الجبل » على سفح المقطم ، وبنى فيهـا قصراً لسكنه ، وحفر فيها بئراً عميقة تعرف الآن ببئر يوسف أو «الحلزون» . ولم يتمّ بناء القلعة الا بعد موته . وقد عُدّل بناؤها وزيد عليه بعد أيامه مراراً حتى أخذت شكلها الحالى فى عهد المرحوم « محمد على باشا » رأس الأسرة العلوية الكريمة . ولا يزال جزء من بنـاء صلاح الدين باقيـا بها الى الآن



(القلعة قبل عهد محمد على باشا)

وبذل صلاح الدين عنايته فى هذه المدة أيضاً باصلاح أعمال الرى ونحوها بمصر ، واكثر من انشاء المدارس لنشر مذهب الامام الشافعى ومحو مذهب الشيعة من مصر . ولم يمسك أثناء ذلك عن الحرب جملة ، بل حدثت بينه وبين الفرنج بعض مناوشات رجع منها الى القاهرة بكثير من الأسرى سخّرهم فى بناء القلعة

وما زال يعمل على توحيد كلمة المسلمين وبسط نفوذه عليهم ، حتى لم تأت سنة ٥٨٢ هـ (١١٨٦م) إلا وقد ضم الى دولته شمالى العراق وبلاد الكردستان . وبذلك تم له ما أراد ، وصار امراء المسلمين من كل جانب رهن اشارته ، يمدّونه بالخيل والرَّجْل اذا قام بدعوتهم الى حرب دينية لسحق الصليبيين وإعلاء كلمة الإسلام

(٣) صلاح الدين والصليبيون

كانت بين صلاح الدين والصليبيين هدنة فى هذه المدة ، ولكنها كانت هدنة ظاهرة فكان كلا الفريقين فى اثنائها ساهراً على الاستعداد للحرب للأخذ بناصر دينه . وقامت باوربا نهضة جديدة لتأييد المسيحيين

بالشام ، ولم يبقَ الاَّ ظهور شرارة صغيرة تلتهب بها نيران حرب دينية عظيمة . فأوقد هذه الشرارة القيّم على ملِك بيت المقدس (وكان ملكها طفلاً صغيراً) بتعرّضهِ لاحدى قوافل صلاح الدين وسلبها ، فنشبت الحرب ودامت خمس سنوات (٥٨٣ — ٥٨٨ : ١١٨٧هـ — ١١٩٢ م)

موقعة حطين

واكتسح صلاح الدين فى أول الأمر كل شىء أمامه فقهر جيوش إمارة بيت المقدس فى موقعة فاصلة بجهة « حِطّين » لم يُنكب الصليبيون منذ خرجوا الى الشام بمثلها . ثم توغل فى فلسطين ، ففتح « عسقلان » وكثيراً من الحصون والمعاقل وفادى أَسراها بالمال ومبادلة الرجال، فانحازت طائفة منهم الى « بيت المقدس » وطائفة الى « صور » . ورأى صلاح الدين ان الفرصة قد حانت لاستنقاذ بيت المقدس فنزل عليهِ بجيوشهِ فى منتصف رجب (سنة ٥٨٣ هـ : ١١٨٧م) ، وكان محصناً تحصيناً منيعاً ، فدافع الفرنج مستبسلين، وجدّ المسلمون فى الزحف فاجتازوا الخنادق ونقبوا الأسوار ، ولما رأى الفرنج انهم أشرفوا على الهلاك اتفقوا مع صلاح الدين أن يسلموا اليهِ المدينة ويخرجوا منها بأموالهم وأولادهم وأثقالهم نظير فدية بضعة دنانير على كل انسان ، فقبل ذلك صلاح الدين ولم يعاملهم بمثل ما عاملوا بهِ المسلمين عندما فتحوه زمن الفاطمية من الفظائع . وفى سنة ٥٨٤ هـ (١١٨٨ م) هادن صاحب « انطاكية » وفتح « الكَرَك » وجميع مدن الساحل شمالى « صور » . وفى سنة ١١٨٩ م لم يبقَ بأيدى الصليبيين سوى « صُور » و « بِلْفُرْت » *. وقضت مكارم صلاح الدين أن يسمح لحامية البلاد التى فتحها بالتراجع الى « صور » بعد ان أقسموا

* وتسمى فى كتب العرب «شقَيف أرْنُون»: كانت قلعة بين دمشق والساحل

له أن لا يجرّدوا عليهِ سيفاً ، ولكنهم تجمعوا هنالك وكوّنوا قوّة جديدة ، ثم حملوا عليهِ

فبدءوا بحصار « عكّا » ، وساق صلاح الدين عليهم جيشاً ليحاصرهم سنة ٥٨٥ هـ (١١٨٩ م) . وبقي الحال كذلك سنة ونصفاً الى أن أتى « فلِب » ملك فرنسا و « ريكارد قلب الأسد » ملك الانجليز بمدد كبير للصليبيين ، فسلمت لهم المدينة سنة ٥٨٧ هـ (١١٩١ م) . ثم وقع الخصام بين الصليبيين أنفسهم ، فتسرّب اليهم الفشل وعاد « فلِب » الى بلاده . وسار « ريكارد » الى « بيت المقدس » فلم يستطع الاستيلاء عليها . وكان الفريقان قد سئما القتال وشرعا يتخابران في الصلح . وفي سنة ٥٨٨ هـ (١١٩٢ م) أصاب « ريكارد » مرض ، وحدثت في بلاده أمور تستدعي عودته ، فعقد صلحاً بجهة « الرملة » مع صلاح الدين على أن يبقى الساحل بين « صور » و « يافا » بأيدي الصليبيين ، وأن يُسمح للمسيحيين بحج البيت المقدس بلا ضريبة

نتائج حروب صلاح الدين

هذه هي نتيجة الحرب التي قام بها صلاح الدين على الصليبيين مدة خمس سنوات . فبعد ان كان المسلمون لا يملكون قبل موقعة « حطّين » في سنة ١١٨٧ م شبراً من الأرض غرب نهر « الأُرْدُنّ » أصبحوا بعد معاهدة « الرملة » (سنة ١١٩٢ م) يملكون جميع البلاد عدا ساحل ضيق يمتد بين صور ويافا . ورأى صلاح الدين كل ذلك ، ورأى انهُ قد وحّد كلمة المسلمين ما بين صحراء لوبية وجبال الكردستان ، ونصر بهم الاسلام ، فطاب خاطره وتمّ له ما أراد . وكانت قد أنهكت صحته الحروب المستمرة فأصيب بحمّى وتوفي بدمشق سنة ٥٨٩ هـ (١١٩٣ م)

صفات صلاح الدين

ويعتبر صلاح الدين من أعظم رجال التاريخ ، فقد كان قائداً عظيماً وسائساً محنكاً جمع بين الشجاعة والمروءة وعلوّ الهمّة ، وبين الشدة والتواضع والتقوى والزهد والورع والعدل والرحمة . وكان الفرنج يُعجَبون بأخلاقهِ ويمدّونهُ مثال الشهامة الشرقية . وفى مقدمتهم فى ذلك «ريكارد» ملك الانجليز الملقب بقلب الأسد ، فانهُ وان لم يقابله قط كان يعجب بشهامته كل الإعجاب

بعض اعوان صلاح الدين

وقد ساعد صلاح الدين فى ادارة شؤون دولته الشاسعة جماعة من النبغاء ليسوا بالقليل ، منهم والده (وهو صاحب الفضل فى تمكين العلاقة بينهُ وبين نور الدين) ، ومنهم أخوه « العادل » ، ووزيره « بهاء الدّين قَراقُوش» ، ووزيره «القاضى الفاضِل» عبد الرحيم البَيْسانى صاحب اليد الطولى فى الأدب والحكمة ، ثم « عماد الدين » الكاتب وكانت له شهرة فائقة فى البلاغة

(ب) خلفاء صلاح الدين من الأيوبيين

لما توفى صلاح الدين تولى أولاده حكم الثلاثة الأعمال العظيمة من دولته وهى دمشق وحلب ومصر . وتولى الأعمال الأخرى العادل وبنو اخوته

العزيز

فخلفه فى مصر ابنه السلطان الملك « العزيز » عماد الدين ، إلا انهُ حدثت بينه وبين أخيه « الأفضل » ملك دمشق منازعات وحروب انتهت بنفى الأفضل عن دمشق وتولاها « العادل » سيف الدين أخو صلاح الدين الذى كان وقتئذٍ حاكماً على الجزيرة . وكان « العادل » من أكثر الناس سياسة وحزماً ، فبعد أن قبض على أزمّة الأمور بدمشق

أسرع لتنظيم شؤون أملاكه بالجزيرة، فدانت له جميع البلاد السورية والجَزَرية . ثم مات «العزيز» سنة ٥٩٥ هـ (١١٩٨م)، فحضر «العادل» الى مصر وتغلّب على ابنى صلاح الدين وعزل «المنصور» بن العزيز من مصر (وكان طفلاً صغيراً) وتولى هو ملكها . ودانت له معظم دولة صلاح الدين (٥٩٦ هـ : ١٢٠٠ م)، وصارت مصر صاحبة الشأن الأكبر فى هذه الدولة . ووقع بمصر فى زمنه (٥٩٧ — ٥٩٩ هـ : ١٢٠١ — ٢ م) قحط شديد ثمّ وباء عظيم أضعفا شأن المملكة . إلا أنّ «العادل» لم يفتر عن توطيد دعائم ملكه، وجمع كلمة المسلمين وجعلهم يداً واحدة ليستعين بهم على استئصال شأفة الصليبيين

المنصور

العادل

وكان الصليبيون أثناء اشتغال العادل بتثبيت ملكه بالشام قد جاءتهم امداد من ألمانيا سنة ٥٩٣ هـ : ١١٩٧ م، وأرادوا أن ينتهزوا فرصة تفرق المسلمين للاستيلاء على بيت المقدس، فانتصروا على العادل واخذوا منهُ «بيروت» . ولكنهم تفرقوا بعد ذلك وعقد العادل معهم صلحاً بالتنازل لهم عن «يافا» و «الرملة» اعتقاداً منهُ أن الصلح خير له لتعزيز قوته .

وفى سنة ٦٠٥ هـ (١٢٠٨م) منح «العادل» أهل مدينة «البُنْدُقِيَّة» مزايا تجارية بالنيل وبالاسكندرية نظير تعهّدهم بمساعدته على صدّ غارات الصليبيين على مصر

وفى سنة ٦١٤ هـ (١٢١٨ م) نهض الصليبيون نهضة جديدة، وبدا لهم ان يحولوا رحى الحرب الى مصر قلب دولة المسلمين، فقصدوا «دمياط» وكانت حصينة، فملكوها بعد قتال شديد . وكان العادل فى الشام فمات فى رجوعه كمداً عليها . وكان العادل من أنبل النـاس واكبرهم حرصاً على

الاسلام : خدم صلاح الدين باخلاص نحو ٢٥ سنة (من ١١٦٨ الى ١١٩٣م) وجمع كلمة دولته بعد موته ، فكان اكبر واقف بعده فى وجه الصليبيين

الكامل

ثم تولى السلطان الملك « الكامل » (٦١٥ — ٦٣٥ هـ : ١٢١٨ — ١٢٣٨ م) ، فعمل على طرد الصليبيين من دمياط قاتلهم عليها ليلاً ونهاراً، إلا أنه وصلت اليهم امداد جديدة كثيرة ، فعرض عليهم الصلح على ان يرد اليهم إمارة بيت المقدس كما كانت قبل الحرب التى شنها عليهم صلاح الدين فى سنة ١١٨٧ م نظير جلائهم عن دمياط ، فاغراهم البابا برفض هذا العطاء الجميل ، فكان نصيبهم الفشل بعد ذلك . فإن اختلافهم وجهلهم حال البلاد الجغرافية حالا دون تقدمهم . ولما شرعوا فى الزحف نحو القاهرة فى شهر يوليه سنة ١٢٢١م اعترضتهم الترع من كل جانب واضطروا الى محاربة المسلمين بمكان كان قد حصّنه الكامل بالقرب من المنصورة وجمع اليه الجيوش والامراء من جميع انحاء الدولة الأيوبية . ولما علا النيل هدم المسلمون السدود ، فانطلقت المياه على موقع الأعداء وأحاطت بهم من جميع الجهات ، ولم يبق لهم منفذ سوى ممر ضيق يفرّون منه الى دمياط . وبينما هم يهمّون بالفرار ليلاً انقض عليهم المسلمون من كل جانب وأخذوا يحصدونهم حصداً . ثم أمر الكامل أن يكفّوا عنهم ، وأطلق سراحهم بعد ان عاهدوه على أن يخلوا دمياط ويجلوا عن الديار المصرية ، وان لا يجردوا على المسلمين سيفاً مدة ثماني سنوات . فجلوا عن مصر فى شهر سبتمبر سنة ١٢٢١ م (٦١٨هـ) بعد أن قضوا فيها أربعين هلالاً

وفى سنة ٦٢٥ هـ (١٢٢٨ م) خرج الإمبراطور «فِرِدْرِيك الثانى» من اوربا فى بضع مائة من الفرسان يطالب بمُلك امارة بيت المقدس، وكان

على وشك الخروج مع جيوش أوربية ، إلا أنهُ أغضب البابا وغيره من أولى الشأن من المسيحيين لاستقلاله عنهم فى الرأى فتركوه يخرج وحده لجهاد المسلمين . وكان «فردريك» قليل التعصب الدينى يميل الى المسلمين حتى ظن البابا انه دخل فى دينهم . وكان «الـكامل» قد خشى ازدياد قوة اخيه « المعظَّم » صاحب دمشق ، فعقد محالفة مع « فردريك » على ان يتنازل له عن بيت المقدس وعن طرق حجاجه المؤدية الى عكا ويافا ، وان يطلق سراح الأسرى من الفرنج ، ويقوم فردريك نظير ذلك بمساعدته على رد كل مهاجم ولو كان مسيحياً ، وان يمنع المدد عن أمراء الصليبيين الآخرين فى الشام مدة عشر سنين ونصف . فاخذ « فردريك » بيت المقدس بلا ضرب ولا قتال ، فعد المسلمون ذلك من أشنع غلطات الكامل ، فان طمعه فى بلاد إخوته واقاربه وشفاء غل صدره منهم حمله على التنازل عن بيت المقدس وهو بيت القصيد من كل هذه الحروب الشعواء التى أُريقت فيها دماء مئات الالوف من الطائفتين . وبمهادنة الكامل لفردريك وحَّد قواه لانتزاع املاك أقاربه حتى تمت له السيادة على جميعها ، ولم يبق له منازع من آل ايوب . وعاش نحو تسع سنين لم يحارب فيهـا احداً من الصليبيين . وآخر عهده بالحروب انه خرج سنة ٦٣٥ هـ (١٢٣٧ م) للاستيلاء على دمشق فتم له النصر ، الا انه مات بعد الواقعة بقليل على أثر تعرّضه للبرد فى ميدان القتال . فعاد النزاع بين ملوك بنى أيوب الى أشد ما كان عليه فى اقتسام البلاد

وكان « الـكامل » يحسن الإدارة والسياسة ، ولا يفتر عن العمل . وتقدمت مصر فى عهده كثيراً بفضل ما قام به من الأعمال لإصلاح

الرى وتحسين حال الزراعة . وأتمّ « الـكامل » بناء قلعة صلاح الدين ، وأسس كثيرا من المعاهد العلمية . وكان كمعظم أفراد اسرته يحب العلم والعلماء ويجلس اليهم في ليالى الجمعة لسماع حديثهم والمناقشة معهم

العادل

فخلفهُ ابنه السلطان الملك « العادل » سيف الدين أبو بكر الثانى فاشتغل باللهو عن التدبير، فانكر الأمراء ذلك وخلعوه بعد سنتين

الصالح

وولى اخوه السلطان « الملك الصالح » ايوب سنة ٦٣٧ هـ (١٢٣٩م) فكان من خيرة السلاطين : دبّر المملكة أحسن تدبير ، وأخمد الفتن . وبنى قلعة الروضة (بجزيرة الروضة) ، ونزلها وحشد فيها المماليك من الترك وبالغ فى شرائهم (فكان ذلك من أكبر غلطاته ، فانهم سلبوا الملك من أولاده كما سلبوه من أولاد المعتصم العباسى) . وكان عمه «الصالح اسماعيل» من أكبر اعدائه ، فانه استولى على دمشق واتحد مع الصليبيين وتنازل لهم عن بعض المواقع ، فاستعان « الصالح ايوب » بقبائل الخوارزمية وهزم الأعداء واعاد « بيت المقدس » للمسلمين سنة ٦٤٢هـ : سبتمبر سنة ١٢٤٤م وما زال ملكاً لهم الى الآن ، واسترد أيضاً دمشق سنة ٦٤٣ هـ : ١٢٤٥م وعسقلان سنة ٦٤٥ (١٢٤٧ م) ، ورجعت دولته الى ما كانت عليه فى عهد جده . وفى آخر مدته (٦٤٧ هـ : ١٢٤٩ م) نزل الصليبيون فى اكثر من مائة الف الى « دمياط » فملكوها بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا وكان من أبطال الصليبيين . فرابط الملك الصالح بالمنصورة ومرض مرض الموت ، فأرسلت سُرّيّته السيدة أم خليل « شجرة الدُّر» الى ولده « توران شاه » بالجزيرة تستدعيه . ومات الصالح فأخفت السيدة موته واصدرت الأوامر بما يشبه توقيعه ، وجمعت قواد الجيش وارباب الدولة وزعمت أن

السلطان يأمرهم بالبيعة لولده توران شاه ففعلوا . ووقع الفرنج فى نفس الخطأ الذى وقعوا فيه فى عهد «الكامل» ، فانهم بدل أن يأتوا مصر من طريق صحراء سينا مارين بالفرما شأن الفاتحين قبلهم أتوها من طريق دمياط والمنصورة حيث تعترضهم الترع والخلجان، فزحفوا على المنصورة سنة ٦٤٨هـ : ١٢٥٠ م وكادوا يملكونها ، فحضر « توران شاه » وقت اشتباك الحرب ، فقاتل الفرنج ودارت عساكره حولهم فاستولى على اكثر مراكبهم وأخذتهم السيوف من كل جانب وقتل منهم نحو ٣٠ الفاً ، وغرق كثير فى النيل وأُسر ملكهم « لويس التاسع » وسجن فى دار ابن لقمان (ولا تزال باقية بالمنصورة الى الآن)، ثم فدى نفسه و بقية أهله وعساكره بمبلغ ١٠٠٠٠٠٠٠ فرنك وخرج من دمياط . وكانت واقعة المنصورة سنة ٦٤٨ هـ (١٢٥٠م) ، وتعتبر من الوقائع الفاصلة بين المسلمين والصليبيين . وكان الملك الصالح من أعظم بنى أيوب ملكاً وأحزمهم أمراً واكثرهم عمارة وأشدهم استقلالاً بالدولة

توران شاه

ولما ولى السلطان الملك المعظم « توران شاه » وفرغ من الصليبيين طالب السيدة بمال أبيه وتهدَّدها وتهدد المماليك ، فقتلوه بعد سبعين يوماً من ملكه ، وولَّوا مكانه الملكة أم خليل « شجرة الدرّ » . ولم يلِ المسلمين امرأة قبلها ، فأقامت فى المملكة ثلاثة أشهر وعزلت نفسها . واتفق المماليك أن يولوا « الأشرف موسى » من بيت الملك ، فملّكوه وعمره ٨ سنوات ، وجعلوا «عز الدين أَيْبك التُّرْكُمانى» أحد مماليك الصالح قيّماً عليهِ ، وتزوج شجرة الدرّ ولم يلبث أن خلع الأشرف واستبد بالملك ، وانتهت دولة آل أيوب من مصر . وبقيت دول منهم بالشام دخلوا بعدُ فى طاعة المماليك مع نوع استقلال

شجرة الدر

﴿ مزايا الدولة الأيوبية ﴾

وأسباب سقوطها

كانت الدولة الأيوبية دولة فتح وجهاد من مبدئها الى منتهاها . فمؤسسها صلاح الدين وآخرها توران شاه كُللت حياتهما بالانتصار الباهر على الصليبيين ، وكان بينهما ملوك لم يقصروا عنهما فى رد غاراتهم، فكأن هـذه الدولة وُجدت لتكون عقبة فى سبيل تغلب أوربا على الشرق أو لتأخير ذلك أكثر من ستمائة سنة وعوده بشكل آخر، وكأنها كانت برفقها وقلة تعصبها ووفائها استاذاً ناصحاً أرشد أخلاف الصليبيين الى حسن معاملة البشر والتظاهر بالتسامح الدينى ونبذ التعصب الوحشى الذميم ونقض العهود والغدر القبيح . ولولا وقوف الدولة الايوبية فى وجه أوربا المسيحية (المتعصبة فى ذلك الوقت) لانقرض الإسلام من جميع بقاع الشام والجزيرة ومصر وشمالى أفريقية كما انقرض من الاندلس. والفضل فى ذلك للواقعتين الفاصلتين اللتين قامت بهما هذه الدولة ، وهما واقعة حِطّين (وبطلها صلاح الدين) وواقعة المنصورة (وبطلها توران شاه) . وكان أكثر عمارات الدولة ومصانعها الضخمة هى القلاع والحصون التى منها قلعة الجبل بالقاهرة ، وأسوارها المنيعة ، ويليها أبنية المدارس للشافعية والمالكية . وأخلد عمل قامت به فوق ذلك نسخ مذهب غلاة الشيعة من مصر والشام ونشر مذهب الامام الشافعى وعلوم السنة فيها . وقد تقدمت البلاد فى عهدهم باهتمامهم بالزراعة وسهرهم على نشر العدل وتوطيد النظام

وأسباب سقوط هذه الدولة ترجع الى عدة أمور منها :

(١) تقسيم صلاح الدين المملكة العظيمة التى افتتحها بين أولاده واخوته وأقاربه ، فأوجب تنافسهم وتحاسدهم وتباغضهم وتعدّى بعضهم على بعض ، فتفككت عصبيتهم وأصبح بأسهم بينهم شديداً

(٢) العهد بالملك الى الصغار منهم ، مما أوجب اقامة أوصياء عليهم من أقوياء رؤساء الجند والوزراء

(٣) الاستكثار من اتخاذ المماليك التركية أنصاراً وأعواناً وتنازلهم لهم عن كل شىء فى الدولة حتى تدبير القصر ، وتغاليهم فى جلب هؤلاء وهجر الاكراد أصول الدولة والعرب اهل البلاد

الفصل الثامن

دولتا المماليك

٦٤٨ — ٩٢٢ ﻫ (١٢٥٠ — ١٥١٧ م)

(ا) — دولة المماليك البحرية

٦٤٨ — ٧٨٤ ﻫ (١٢٥٠ — ١٣٨٢ م)

منشأ المماليك

انقرضت الدولة الأيوبية بقتل « توران شاه» ودخلت مصر بعدها فى حوزة مماليك هذه الدولة . وكان خلفاء الدولة العباسية قبلهم قد اعتادوا استخدام عدد كبير من المماليك فى الجند والحرس ليحتموا بهم من قبائل العرب وبخاصةٍ أنصارَ العلويين والأمويين منهم ، وليخضعوا بهم حكام الاقاليم اذا استفحل أمرهم . فأخذت قوة هؤلاء المماليك تزداد شيئاً فشيئاً حتى صاروا بالنسبة الى الخلفاء أقرب الى السجّان منهم الى الحرّاس

واقتدى بالعباسيين نور الدين وصلاح الدين فى استخدام المماليك وعُنيا بتدريبهم واعدادهم . وبقى ذلك فى عهد الأيوبيين حتى ولى الملك «الصالح أيوب» ، فاشترى عدداً كثيراً من أشداء المماليك وبالغ فى تدريبهم وأنزلهم فى قلعة الروضة التى شيدها بجزيرة الروضة ، فسموا لذلك «المماليك البحرية»

ووصلوا فى آخر أيام الدولة الأيوبية الى درجة عظيمة من البأس . ولما أغضبهم توران شاه قتلوه واستولوا هم على الملك فبقى فى أيديهم نحو مائة وثلاثين عاماً

أيبك

وعددهم ٢٤ سلطاناً أولهم السلطان عزّ الدين «أَيْبَك» التركمانى : ولى سنة ٦٤٨ ﻫ (١٢٥٠ م) وتزوج الملكة شجرة الدرّ ، ثم سلب منها كل سلطة واضطهدها . فقيل انهـا أمرت مماليكها بخنقه سنة ٦٥٥ ﻫ (١٢٥٧ م)

فقتلها ابنه وتولى الملك بعده ولُقب بالملك «المنصور» وهو صبى لا يزيد عمره على ١١ سنة ، فقام بأمر الدولة الأمير سيف الدين «قُطُز» فوقعت فى مدته (سنة ٦٥٦ ﻫ : ١٢٥٨ م) النكبة العظيمة وهى سقوط بغداد فى يد التتار وزوال الخلافة العربية . فجمع «قطز» القضاة وكبار العلماء لذلك ، فأفتوه بخلع السلطان الصبي وولوه مكانه

قطـز

فتولى سنة ٦٥٧ﻫ (١٢٥٩م) ولقب بالملك «المظفَّر» ، فجمع المماليك تحت كلمته وصاروا كلهم وقبـائل العرب بمصر معهُ يداً واحدة على التتار الزاحفين على مصر . فالتقى بهم على «عين الجالوت» بفلسطين ثم لاقاهم أيضاً ببيسان فانتصر عليهم فى معركة هائلة . وكان ذلك بحسن قيـادة

الأمير رُكن الدين « بِيبَرْس » الذى طاردهم حتى أخرجهم من دمشق وحلب وانتزع اكثر امارات الشام من أيدى بنى أيوب ، فوعده « قطز » بولاية حلب ، ثم أخلف وعده . فقتله بيبرس وهم عائدون الى مصر ، واختاره زملاؤه سلطاناً مكانه

بيبرس

تولى السلطان الملِك الظاهر رُكن الدين « بيبرس » البُنْدُقدارى (٦٥٨ – ٦٧٦ هـ – : ١٢٦٠ – ١٢٧٧ م) عرش مصر فكان اشهر سلاطين المماليك البحرية ، فبدأ بتنظيم أمور الدولة واصلاح الجيوش وانشاء الأساطيل . فكان بوضع انظمته الملكية الثابتة المؤسس الحقيق لدولتى المماليك اللتين استمرتا ٢٦٧ سنة بالرغم من تشاحّهم وتنازعهم . ثم عُنى بتحصين الشام وانشأ بريداً سريعاً بالحمام الزاجل بين دمشق والقاهرة

وكان « بيبرس » يرمى الى بلوغ ما بلغه صلاح الدين وإلى استئصال شأفة الصليبيين مما بقى فى أيديهم بالشام . ولكى يعزّز زعامته للاسلام دعا الى مصر أحد أولاد الخلفاء العباسيين الذين فروا من وجه التتار من بغداد وبايعه بالخلافة ولقّبه بالمستنصر ، ثم استمد سلطة المُلْك منهُ نائباً عنهُ سنة ٦٥٩ هـ (١٢٦١ م) . ثم ان « المستنصر » هذا ذهب لمحاربة التتار فقُتل وجاء عباسى آخر يسمى أحمد وبويع بالخلافة ولقب بالحاكم بامر الله ، وهو جد الخلفاء العباسيين بمصر

التتار

وكان اكبر خطر يتهدد مصر فى ذلك الوقت إغارة المُغول ، وكانوا قد اتخذوا « فارس » مقراً لهم . الا ان منهم طائفة تعرف بالطائفة الذهبية نزلوا على نهر « الوُلجا » (إِتِل) واعتنقوا الاسلام وصاروا من أعداء تتار فارس . فاتحد « بيبرس » معهم ومع قيصر الروم وعمل على مقاومة تتار

فارس والقضاء على الصليبيين ، فحارب هؤلاء محـاربة شديدة نحو عشر سنوات من ٦٥٩ الى ٦٧٠ ﻫ (١٢٦١ — ١٢٧١ م) : شتّت فيها شملهم وهدّم « يافا » و « انطاكية » حتى صارتا اطلالا باليـة (سنة ٦٦٧ ﻫ ١٢٦٨ م) . ثم أخضع قبائل «الباطنيّة» من الاسماعيلية النازلين فى الشام والمسمين عند الافرنج بالحشّاشين بعد أن كانوا آفة على ملوك مصر منذ أيام صلاح الدين . وأغار على آسيا الصغرى ، وكان التتار قد استولوا على مملـكة الروم السلجوقيين ، فقهرهم وجلس على عرش « قَيْسارِيَة »* ودان له أهلها (سنة ٦٧٦ ﻫ ١٢٧٧ م)

ولم تلهه غزواته فى الشمال عن الالتفات للأقاليم الجنوبية ، فارسل جيشاً الى بلاد النوبة سنة ٦٧٤ ﻫ (١٢٧٥ م) فاخضع أهلها وأعاد جزية العبيد بعد ان امتنعوا عنها

ومات « بيبرس » سنة ٦٧٦ ﻫ (١٢٧٧ م) وقد بلغ أقصى درجات المجد وحلّ منزلة كبيرة بين جميع من جاوره من الملوك والأمراء

وكان شجاعاً عاملاً عادلاً فى الجملة حسن السيرة ، لايشوب سياسته الا شيء من القسوة والميل الى الغدر ، ساد فى أيامه الأمن وانتشرت العلوم والمعارف . ولم تشغله الحروب وتنظيم الجيوش وبناء الأساطيل وتحصين البلاد عن اصلاح الرى والزراعة وانشاء المساجد والمدارس . ولم يغال فى فرض الضرائب مع كثرة حروبه ، بل خفّضها الى أصغر حد كاف للقيام بمشروعاته العظيمة . وما زال له الذكر الحسن عند المصريين . ومن المساجد

---

* تسمى بهذا الاسم مدينتان احداهما بفلسطين والثانيـة هى كرسى مملـكة السلجوقيين بآسيا الصغرى . وبعض المتأخرين يكتب الأخيرة (قيصرية)

التى شيّدها مسجده الكبير بالحسينية المعروف بجامع الظاهر

قلاون

وبعد وفاة « بيبرس » حدثت منازعات بشأن تولى الملك (شأن المماليك عند وفاة أحد ملوكهم)، فخلفه ولدان أحدهما بعد الآخر، ولم تطل مدتهما . وانتهى الأمر بتولى السلطان الملك المنصور سيف الدين «قَلَاوُن» الصالحى (٦٧٨ — ٦٨٩ هـ : ١٢٧٩ — ١٢٩٠م)، فبقى المُلْك فى بيته أكثر من مائة سنة . وبعد أن تمَّ له الأمر عقد هدنة مع الصليبيين لمدة عشر سنوات على أن يُسمَح للسفن المصرية بدخول الموانى المسيحية بالشام، وأن لا يقوم الصليبيون بأى تحصين جديد فى مدنهم . ومن ذلك يُعلم مقدار ما وصلوا اليه اذ ذاك من الضعف والهوان

وقد كان عقْد الهدنة مع الصليبيين من الحكمة اذ ان التتار كانوا يتأهبون للإغارة على مصر مرة اخرى، فخرج اليهم «قلاون» سنة ٦٨٠هـ (١٢٨٢ م) فى جيش عظيم وهزمهم فى موقعة فاصلة فى «حمص» اسكتتهم عن مصر ١٧ سنة

وقضى « قلاون » باقى أيامه فى محاربة الصليبيين بالرغم من مهادنتهم فيما سبق، واستولى على « طرابلس » عنوة سنة ٦٨٨ هـ (١٢٨٩ م) . ومات سنة ٦٨٩هـ (١٢٩٠م) وهو يتأهب لغزو « عكا »

وساد فى عهده العدل والسكينة . ومن مبراته الحسان انشاؤه البيمارستان الكبير بين القصرين (المسمى بمستشفى قلاون الآن بالنحاسين) وبجانبه المدرسة العظيمة والقبة التى دُفن بها، ووقف عليهما الأوقاف الكثيرة وشرط فى وقفهِ كثيراً من أنواع البر والخير مما لم يسبقه اليه أحد من الملوك

الأشرف خليل

ثم خلفه ابنه « الأشرف خليل » وكان شجاعاً مقداماً مظفراً فى الحروب عادلاً فى الرعية قاسى القلب على من يتوهم مزاحمتهم له فى الملك ، ففتك بكثير منهم فكان ذلك سبباً فى اغتياله وقتله بعد ثلاث سنين . وقام باعداد الجيش الذى كان يعدّه والده لفتح « عكا » آخر مدينة حصينة بقيت بأيدى الصليبيين ، وهنالك جمع الصليبيون فلول جيوشهم للدفاع عنها ، إلا أنهم اختلفوا حسب عادتهم ، ففتح جند الأشرف المدينة سنة ٦٩١ هـ (١٢٩٢ م) ودمروا حصونها وفتكوا بكثير من الصليبيين . ثم سقطت باقى مدن الصليبيين فى أيديهم وانقرضت دولهم بالشام

الناصر

ثم خلفهُ أخوه الملك « الناصر » محمد بن قَلاون (٦٩٣ — ٧٤١ هـ : ١٢٩٣ - ١٣٤١ م)، تولى وهو صغير وخُلع فى هذه المدة مرتين : الأولى سنة ٦٩٤ هـ (١٢٩٣ م) مدة خمس سنوات والثانية سنة ٧٠٨ هـ (١٣٠٩ م) مدة سنة واحدة . وفى مدتهِ أغار التتار مرة أخرى على الدولة سنة ٦٩٩ هـ (١٣٠٠ م) وهزموا المماليك واستولوا على «دمشق». الاَّ ان المسلمين هزموهم فى موقعة فاصلة بالقرب من دمشق سنة ٧٠٢ هـ (١٣٠٣ م) وأسروا منهم ١٠٠٠٠ نفس ، فكانت هذه رابع مرة صُدّ التتار فيها عن الديار المصرية

وزادت فى عهده ثروة البلاد كثيرًا . ومما ساعد على ذلك انهُ فرض ضريبة على جميع التجارة التى تمر من مصر بنسبة ١٠ ٪ من ثمنها ، وكانت تجارة أوربا مع الهند تمر من هذا الطريق

وكان « الناصر » يُعنى بشؤون البلاد الداخلية ، فضبط الموازين والمقاييس ، وحدّ الأثمان فى أوقات الشدة ، وألغى كثيرًا من الضرائب الضارّة بالفقراء من الرعية واستعاض عنها بزيادة الضرائب على كبار

الموسرين . ثم منع شرب الخمر ، وتشدّد فى حفظ الآداب ، وعمل على معاضدة العلم ونشر المعارف . وفى مدته بلغ فن المبانى والنقوش العربية أقصاه . إذ اتضح ان اكثر الآثار العربية الجميلة التى فى دور تحف العالم هى من صنع هذا العصر

وقد شيّد هو وأمراء دولته من المبانى الفخمة ما لا يدخل تحت حصر . وهو المنشئ لقناطر المياه الموصلة بين القلعة والنيل ، وإن كانت قد نُسبت خطأً الى صلاح الدين . ووصل بين النيل والاسكندرية بترعة ، وأنشأ طريقاً عظيماً بجانب النيل أفاد فائدةَ الجسور وقت الفيضان

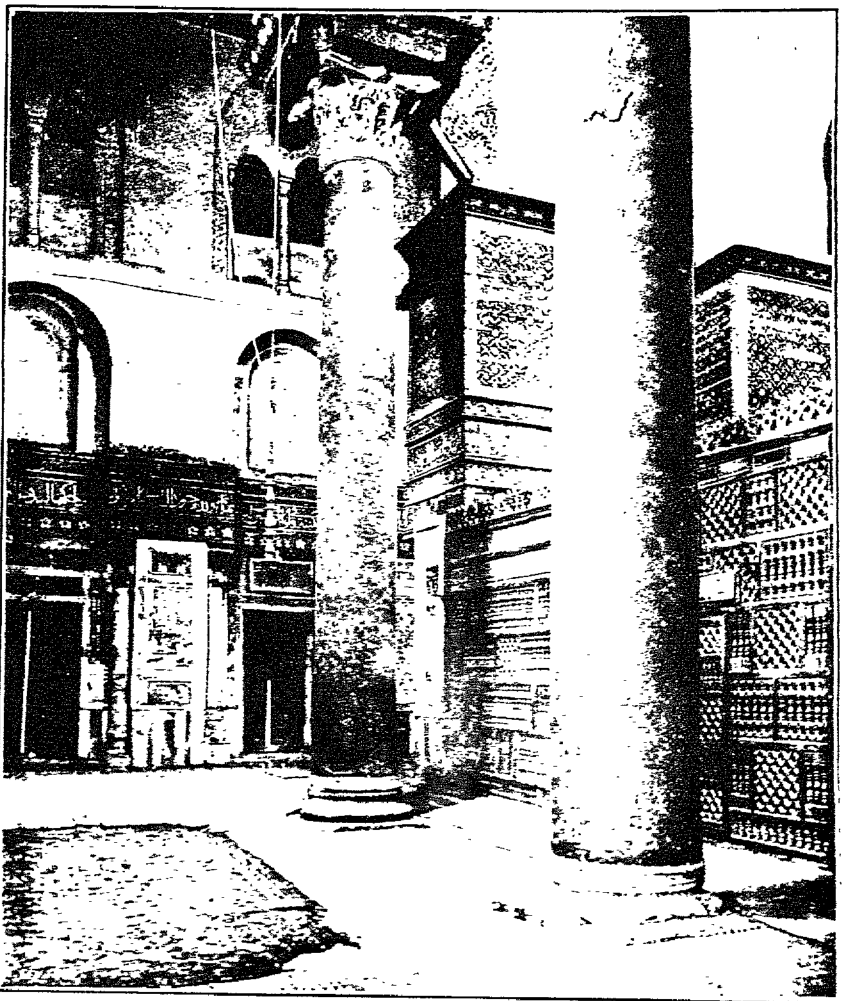
وكان « الناصر » ضئيل الجسم ، أعرج ، أعور ، الاّ انهُ بالرغم من ذلك كان قوى البأس ، شديد البطش ، ذا رأى سديد ، وعزيمة من حديد . وكان عصره بفخامة ملكه وعظم مبانيهِ وجمال ذوقه أرقى عصور الحضارة المصرية

ومات سنة ٧٤١ ﻫ (١٣٤١ م) ولم يترك خلفاً يقدر على القيام بعبء الملْك ، فوقعت البلاد فى فوضى مدة ٤١ سنة تنازع المُلْك فيها ملك بعد ملك من أولاده

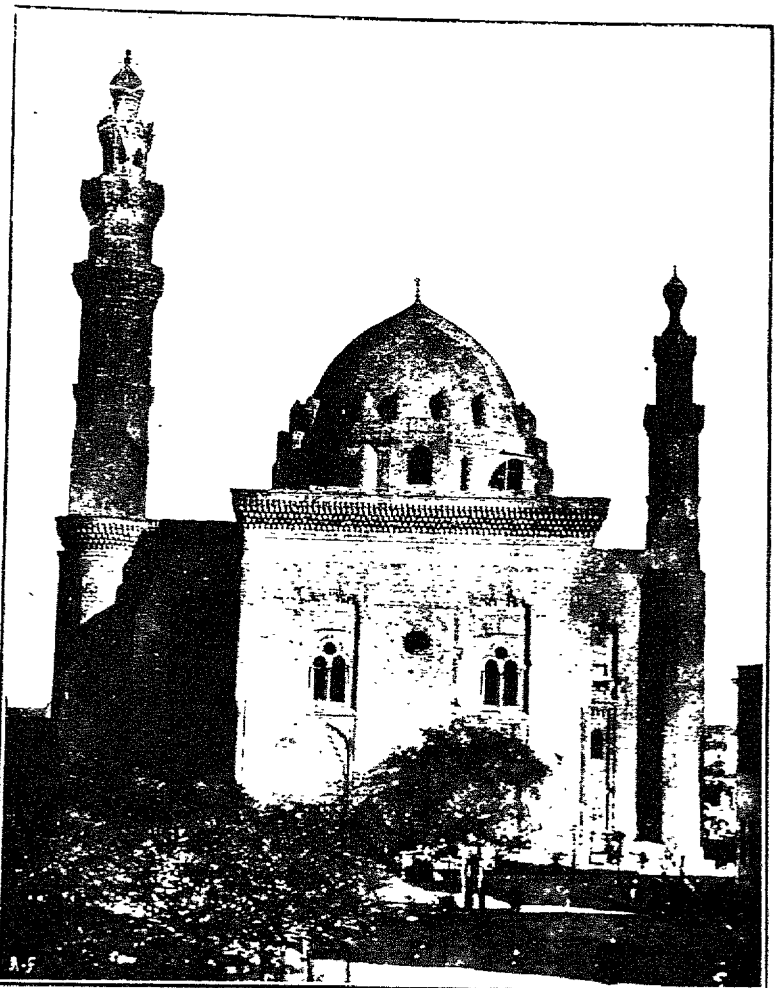
السلطان حسن

وأدْومهم أثراً الى الآن ابنه السلطان حسن ، وهو بانى المدرسة العظيمة التى لم يخلف السلاطين أعظم منها بناء ولا أتقن صناعة ، وهى المشهورة الآن بجامع السلطان حسن (بجوار قلعة القاهرة)

وانتهى الأمر بانقراض هذه الدولة واستيلاء المماليك الشراكسة على الملك



داخل جامع قلاوون (رسم شمسي)



جامع السلطان حسن (رسم شمسي)

﴿ فشل الحروب الصليبية ونتائجها ﴾

استولت المماليك البحرية على آخر ما بقي بأيدى الصليبيين بالشام وبذا انتهت الحروب الصليبية بعد ان استمرت نحو قرنين، ولم يتم للصليبيين شيء من بغيتهم مع ما أُريق فيها من الدماء وبُدّد من الأموال . ولفشلهم هذا عدة أسباب منها :

اسباب فشل الحروب الصليبية

أولا اختلاف ملوكهم وامرائهم فيما بينهم وتظاهر بعضهم على بعض ، مما أدّى كثيراً الى وقوع القتال بينهم

ثانياً وجود عدد عظيم من اللصوص والمجرمين والمتشردين بين جيوشهم ، فجرّ ذلك الى الاختلال وقلة النظام

ثالثا اتحاد المسلمين وائتلافهم في أكثر أزمان الحروب الصليبية وخاصة زمن صلاح الدين وما بعده

رابعاً حسن نظام الجيوش الاسلامية وشجاعتها

نتائجها

ولا شك أن الحروب الصليبيــة أضرّت كثيراً بالمشرق والمغرب معًا لما أزهقت من أرواح وأفنت من أموال ، ولما استغرقته من وقت ثمين لو صُرف فى الأعمال النافعة لعاد على العالم بالخير والبركات ، غير أنها مع كل هذا كان لها فى أوربا بعض نتائج حسنة ربما كانت تتم بدونهـا مدى الأيام ، ولكنها تنسب الى الحروب الصليبية لظهورها عقِبَها

ومن أهم نتائج الحروب الصليبية للاوربيين ما يأتى :

نتائج الحروب الصليبية

أولا وقف الغربيون على أحوال الشرق بعد جهلهم به وأدركوا ان بهِ حضارة تفوق حضارتهم ، فاتسعت أذهانهم وتولدت فيهم روح الاستطلاع والاستكشاف

ثانياً — أدّى اختلاط الغربيين بالشرقيين نحو قرنين من الزمان الى اقتباسهم شيئاً كثيراً من الحضارة الشرقية، مما أدّى الى ارتقاء العلوم والآداب والفنون والصنائع باوربا

ثالثاً — أوجدت شيئاً من الائتلاف بين الأمم الأوربية المختلفة وأزالت ما بينهم من النفور مدة من الزمن ، وذلك لاشتراكهم فى غرض واحد وقتاً طويلاً

رابعاً — أزالت الفرق العظيم الذى كان بين طبقات الأشراف وغيرهم باوربا ، لعملهم جميعاً كتفاً لكتف فى ميدان القتال ، و بذلك قضت على النظام الذى كان يُعرف فى أوربا بنظام « الإقطاعات »

خامساً — كانت سبباً فى اتساع نطاق التجارة والملاحة بين المشرق والمغرب ، وذلك ان السفن العديدة التى كانت تأتى بالصليبيين من اوربا كانت تعود اليها بالبضائع الشرقية ، فقوّت روح التجارة فى الشرقيين والغربيين معاً وساعدت فى نموّ بعض المدن التجارية العظيمة مثل « جنوة » و « البندقية »

سادساً (وهذه فى اعتبار الغربيين نتيجة سيئة) — زادت من نفوذ البابا باوربا . وذلك لأنهُ كان المحرك لملوك أوربا وأمرائها نحو قرنين من الزمان بسبب ذلك الغرض الدينى ، فقوى نفوذه حتى صار فيما بعد سبباً لمشا كل عظيمة باوربا

(ب) — دولة المماليك الشراكسة

أو « المماليك البرجية »

٧٨٤ — ٩٢٢هـ (١٣٨٢ — ١٥١٧م)

منشأ المماليك البرجية

منشأ هؤلاء المماليك ان المنصور «قلاون» اكثر من شرائهم وجعلهم فى أبراج القلعة فسُمّوا « البُرْجيّة » . وهم يختلفون فى الجنس عن المماليك البحرية لأن معظمهم من الشراكسة وأولئك من الترك . ولم يكن الملك فيهم وراثياً قط كما كان فى بيت قلاون ، بل كان استيلاء كل ملك من ملوكهم على الدولة متوقفاً على شهرته الحربية ومقدرته على استجلاب مودة زملائه من الأمراء . وعدد ملوكهم ثلاثة وعشرون ، حكم تسعة منهم مدة ١٢٥ سنة وحكم فى تسع السنوات الأخرى أربعة عشر

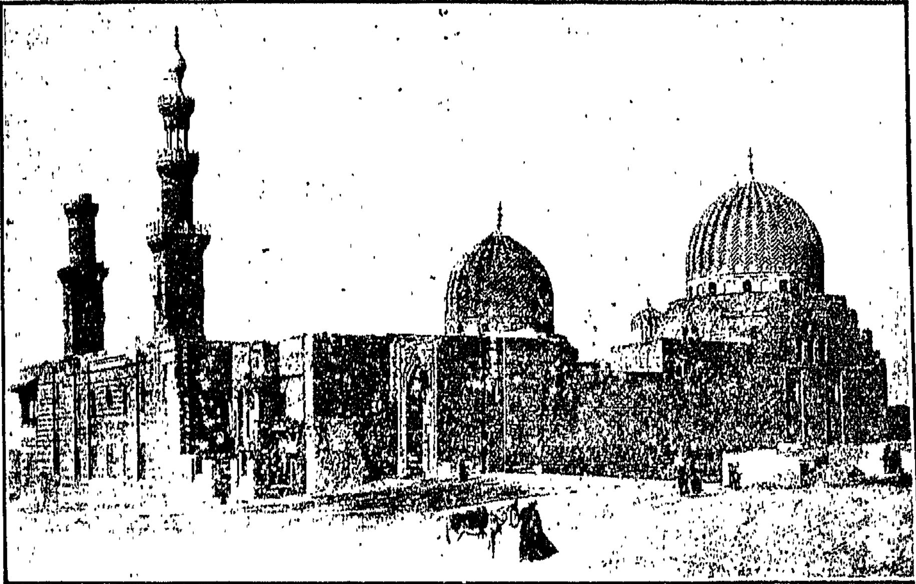
وقد كان لكثير من ملوك هذه الدولة وامرائها ولع بالعلوم ، واشتهروا بالتنافس فى بناء القصور الفخمة والأربطة والجوامع والمدارس والسُّبُل وغير ذلك من المعاهد الخيرية . واكثر ما نراه اليوم فى القاهرة من المبانى العظيمة من آثارهم . إلا أنهم كانوا يميلون الى الظلم والعسف ، فاثقلوا كاهل الأمة بالضرائب ، وتسرّب الخلل فى عهدهم الى جميع فروع الحكومة فاصبح العدل فيها يُشرى ويباع . وكثرت الثورات والفتن فى البلاد حتى ضجّ الناس من شر الجنود وعبثهم بالأمن . على أنهم بالرغم من شقاقهم فيما بينهم كانوا على الأجنبي يداً واحدة ، فحفظوا البلاد من الغارات الأجنبية نحو قرن ونصف من الزمان

برقوق

واشهر ملوكهم وأولهم هو الملك الظاهر سيف الدين « بَرْقُوق » ، خلع آخر المماليك البحرية وتولى الملك ، ثم ثار عليه المماليك وخلعوه وأعادوا

الى الملك أحد حَفَدَة الناصر بن قلاون . فاشتغل باخماد فتنهم وجلس على كرسى الملك ثانية . ولم يفرغ من ذلك حتى تهدّد البلاد خطر إغارة التتار يقودهم قائدهم العظيم « تَيْمُورلَنْك » . وكانوا قد استولوا على « بغداد » سنة ٧٩٥ﻫ (١٣٩٣ م) وخضعت لهم « الجزيرة » بأسرها سنة ٧٩٦ ﻫ (١٣٩٤ م) . فارسلوا كتاباً الى مصر يطلبون منها التسليم اليهم ، فامتنع « برقوق » واتحد مع امراء شمالى الشام وسلطان العثمانيين . ثم مات برقوق سنة ٨٠١ﻫ (١٣٩٩ م) قبل الشروع فى الحرب ، فترك ذلك لابنه الناصر « فَرَج »

ولبرقوق مبان عظيمة ومبرات جليلة ، منها مدرسته العظيمة بين القصرين بالنحاسين الشهيرة بجامع برقوق . أما المدفن ذو القبتين بالجبّانة



(جامع برقوق بالصحراء)

الشرقية خارج القاهرة المعروف أيضاً بجامع برقوق فمن انشاء ابنه فرج .

فرج

وفى سنة ٨٠٣ ﻫ خرج السلطان فرج الى الشام لمحاربة تيمورلنك الذى خرّب حلب وزحف على دمشق، فوقع بين الجيشين بعض مناوشات بالقرب من دمشق كان الغلب فيها للمصريين ، فطلب تيمورلنك من السلطان الصلح فاجابه اليه . وبينما هما يتفاوضان أثار المماليك فتنة فى المعسكر وتسللوا منه راجعين الى مصر ، فانزعج السلطان واضطر ان يعود مع بقيتهم مسرعاً اليها وترك دمشق يدافع عنها أهلها ، فدخلها تيمور وفعل الفظائع بأهلها كما فعل بحلب من قبل . ثم خلع المماليك « فرجا » سنة ٨٠٨ ﻫ (١٤٠٥م) وولوا أخاه . ثم عاد للملك فخرج فى عدة غزوات الى الشام لتوطيد السكينة بها واخضاع الثائرين من الأمراء

المؤيد

واستفحل أمر اثنين من هؤلاء الأمراء وهما « شيخ » و « نوروز » فتغلب « شيخ » على « فرج » فى خرجته السابعة الى الشام، ووافق الخليفة العباسى بمصر على قتله وانتهى الأمر باستيلاء « شيخ » على الملك ، فسمى « المُؤيَّد شيخ » . وهو بانى الجامع المعروف بجامع المؤيَّد بجوار باب زَويلة

ثم تتابع بعده عدة ملوك فلم يكن لهم أثر فى حالة مصر سوى أن المماليك لم يعبثوا بهم ، فساءت حالة الناس ، واضطربت الحكومة ، وبقي الحال كذلك حتى ولي الملك «الأشرف . بَرْسباى» سنة ٨٢٥ﻫ (١٤٢٢م)

برسباى

حكم « بَرْسباى » نحو ١٦ سنة (٨٢٥–٨٤١ ﻫ : ١٤٢٢ – ١٤٣٨م) فبالغ فى إثقال كاهل الأمة بالضرائب الباهظة وانواع الاحتكار فى التجارة إلا أنه لقوته وشدة بأسه لم تحدث فى البلاد فتن فى عهده . وكان لصوص البحر قد اكثروا الإغارة على مصر من جزيرة « قبرس » ، فارسل « برسباى » اسطولاً لغزوها ، فاستولى عليها وأتى بملكها « جِنْس »

أسيراً الى مصر ، وأتى كذلك بكثير من سكان الجزيرة فبيعوا فى أسواق القاهرة . وبقيت « قبرس » خاضعة لمصر الى أن انتهت دولة المماليك سنة ٩٢٢ هـ (١٥١٧م) ، فكان الاستيلاء عليها من مميزات عصر « برسباى » على عهد غيره من المماليك الشراكسة . ومما امتاز به عصره أيضاً اهتمامه بالضرائب الخاصة بالتجارة وجعلها مورداً كبيراً لخزائنه . وعنى بامر تجارة الهند حتى صارت السفن الواردة منها تفرغ بضائعها فى « جُدَّة » (وكانت تابعة لمصر) بعد أن كانت تفرغها فى « عَدَن » ، فازداد بذلك مورد الحكومة . ثم احتكر تجارة كثير من المواد مثل السكر والفُلفُل والأخشاب وغيرها . وبالغ فى الكسب حتى ضجّ التجار الأجانب بمصر وهمّت حكومة « البُنْدُقيَّة » باستدعاء جميع تجارها من القطر ، لخاف على تجارة البلاد من الخسارة ونظر فى مطالبهم ، وقد جمع من هذه الاحتكارات أموالاً طائلة. وحدث الطاعون بمصر فى زمنه مرتين ، فهلك كثيرون. ومات برسباى سنة ٨٤١ هـ : ١٤٣٨ م ، واختلط عقله قبل موته فامر بقتل طبيبيه

ثم ولى الملك بعده ابنه ثم عدة سلاطين لم يكن لهم كبير شأن ، حتى ولى الأشرف « قايتْباى » سنة ٨٧٣ — ٩٠٢ هـ : ١٤٦٨ — ١٤٩٦م) وهو أطول ملوك هذه الدولة حكماً ، كان فى أول أمره مملوكاً اشتراه « برسباى » بخمسين ديناراً ، فما زال يرقى بجده ومواهبه حتى بلغ هذا المبلغ . وكان شجاعاً قوى الجسم والروح يحبّه قوّاده فثبتت بهم قدمه . إلا ان حروبه الكثيرة اضطرته الى زيادة الضرائب زيادة كبيرة وإلى ابتزاز الأموال من أثرياء اليهود والنصارى

قايتباى

وكان اكبر شاغل له هو ازدياد قوة آل عثمان الذين صاروا بعد

استيلائهم على القسطنطينية سنة ٨٥٧ هـ (١٤٥٣ م) مصدر خطر لمن جاورهم من الأمم. وكثيراً ما تعدّوا على حقوق مصر بالشام، وأهمها منعهم تجارة الرقيق من المماليك الشراكسة وغيرهم عن مصر فساءت العلاقة بينهم وبين المصريين، وتفاقم الأمر بين الفريقين بعد ما أجار قايتباى أخا «بايزيد الثانى» وخصمه، وأكرم مثواه، فحنق بايزيد على قايتباى، ونشبت بين الفريقين عدة حروب لم تكن لها نتيجة تذكر، وانتهى الأمر بمهادنة الاثنين سنة ٨٩٦ هـ (١٤٩١ م)

وفى سنة ٨٩٧ هـ (١٤٩٢ م) أصاب البلاد وباء شديد أعقبه قحط، وقامت فتنة كبيرة بين طائفتين من المماليك، فحزن قايتباى ومرض مرض الموت، فخلعه أرباب الدولة وبايعوا ابنه الناصر، فمات قايتباى بعد ذلك بيوم واحد (سنة ٩٠١ هـ : ١٤٩٦ م)

وكان قايتباى محباً للعمارة: بنى ورمم كثيراً من المساجد والمدارس والحصون والطرق، ولا يضارع عصره فى المبانى وفرة وجمالاً سوى عصر «الناصر» بن قلاون. ومن أعجب بنائه تربته التى بناها فى الصحراء وتعرف الآن بجامع قايتباى

الغورى

ثم تولى بعده عدة سلاطين كان من أشهرهم السلطان الأشرف قانصوه «الغُورى» سنة ٩٠٦ — ٩٢٢ هـ : ١٥٠١ — ١٥١٦ م). وكان داهياً شجاعاً عالماً محباً للعمارة على عسف وتجبر فيه. ومن بنائه جامع الغورى ومدرسته بالغورية.

ولى الغورى الملك وعمره ٦٠ سنة فوجد خزائن الحكومة خالية، بسبب الاضطراب الذى أعقب وفاة قايتباى، فعمل على ملئها، فشدّد

على الرعية وجمع ضرائب عشرة شهور دفعة واحدة ، حتى عظم بؤس الناس . وسادت بالرغم من ذلك السكينة بالبلاد فى أوائل عهده

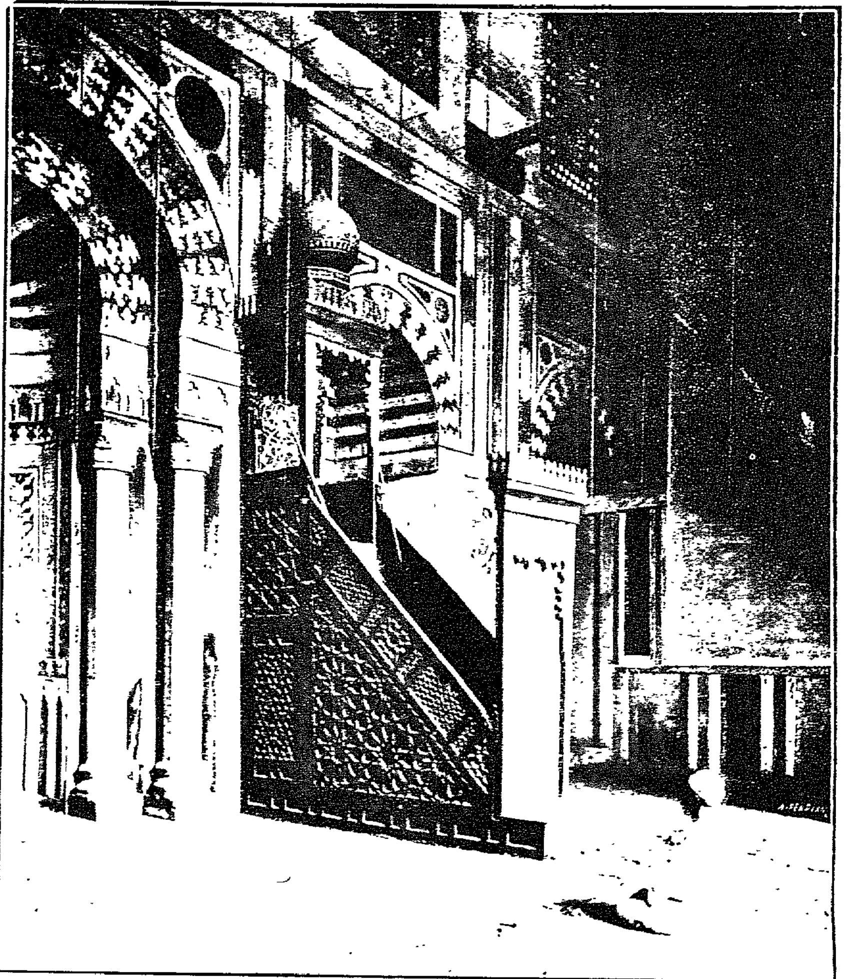
البرتقال والتجارة المصرية

ولم يعكر صفوه سوى نزاع قام بينه وبين البُرْتُقال بشأن تجارة الهند وذلك ان « فاسكو دى جاما » لما كشف الطريق الى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٩٧ م تحولت معظم التجارة الهندية عن طريق مصر ونقص بذلك وارد الحكومة نقصاً كبيراً . ولم يكتف البرتقال بانتقال معظم هذه التجارة الى أيديهم ، بل شرعت سفنهم بالبحر الأحمر تقبض على كل سفينة مصرية تبغى التجارة فى تلك الجهات . ووقع بين الفريقين بعض مناوشات لم تكن لها نتيجة قاطعة ، اذ شُغل المماليك بخطر آخر أكبر من ذلك وهو إغارة العثمانيين التى لم تذهب بما بقى من تجارتهم فقط بل انتهت بالقضاء على ملكهم

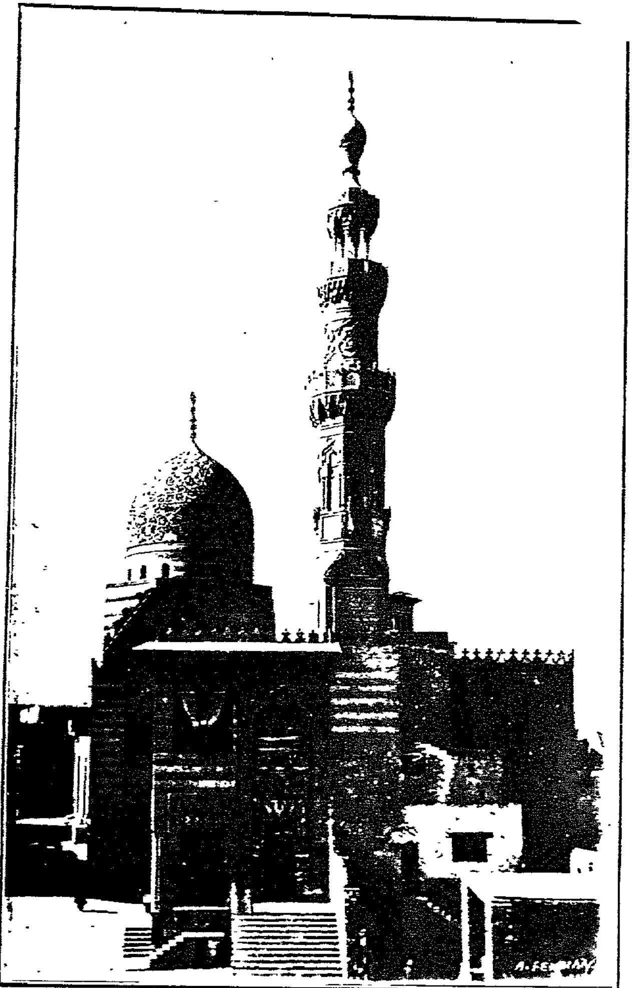
الفتح العثمانى

وذلك انه فى سنة ٩١٨ هـ (١٥١٢ م) ولى ملك آل عثمان السلطان « سليم خان الأول » ، وكان مولعاً بالحروب شديد الرغبة فى توسيع نطاق الدولة العثمانية ، فعمل على محاربة المماليك لأقل سبب ، فاتّهم « الغورى » بمالأة الفرس عليه (وهم يومئذٍ أعداؤه الأشداء) ، وبأنَّ بلاد الغورى صارت مأوى للعصاة والفارين من وجه سليم : فأدرك « الغورى » نيأته ، وجرّد جيشاً خرج بهِ الى الشام بالرغم من تأكيد سليم أنه لا يقصد بمصر سوءا . والتقى الجيشان بميدان « مَرْج دابِق » شمالى حلب سنة ٩٢٢ هـ (١٥١٦ م) ، وكانت مدافع العثمانيين قوية ففتكت بجيش المماليك وانهزموا ، وفُاجِىء « الغورى » لوقته فوقع تحت سنابك الخيل ، فلم يوقف له على أثر

وملك سليم الشام بلا مقاومة وزحف على مصر ، فولى المماليك عليهم



داخل جامع الغوري (رسم لكجين)



جامع قايتباي (رسم محمد افندي علي سعودي)

السلطان «طومان باى» فجمع من قدر عليه من الجنود والتقى مع سليم خان بالريدانية (العباسية الآن)، فانهزم طومان باى ودخل سليم خان القاهرة. وفرّ طومان باى ثم قبض عليه سليم وصلبه على باب زويلة . وبموته انقرضت دولة الشراكسة سنة ٩٢٣ هـ (١٥١٧ م) وصارت مصر ولاية عثمانية . وتنازل الخليفةُ العباسى بمصر عن الخلافة لسلاطين آل عثمان



ملخص أهم الحوادث التاريخية منذ تأسيس الدولة الاسلامية

البلاد الأجنبية	التاريخ م	التاريخ هـ	مصر
مولد النبي صلى الله عليه وسلم	٥٧١		
تولية هرقل امبراطوراً بالقسطنطينية	٦١٠		
	٦١٦		زحف الفرس على مصر
تأثير البعثة فى تأسيس مجد الدولة العربية			
غزوة بدر	٦٢٤	٢	
« أحد	٦٢٥	٣	
« الخندق	٦٢٧	٥	
	٦٢٨	٦	خروج الفرس من مصر ورجوع الرومان اليها
أرسل النبي كتبه الى الملوك والامراء	٦٢٩	٧	
فتح مكة	٦٣٠	٨	
غزوة تبوك	٦٣١	٩	
حجة الوداع	٦٣٢	١٠	
وفاة النبي صلى الله عليه وسلم	٦٣٢	١١	
عصر الفتوح العربية			
خلافة أبى بكر — ابتداء فتح فارس والشام	٦٣٢ — ٦٣٤	١١ — ١٣	
خلافة عمر — اتساع عظيم فى الدولة الاسلامية :	٦٣٤ — ٦٤٤	١٣ — ٢٣	
فتح فارس	٦٣٣ — ٦٤٢	١٢ — ٢١	
فتح الشام	٦٣٣ — ٦٣٨	١٢ — ١٧	
فتح مصر	٦٣٩ — ٦٤١	١٨ — ٢١	وصول عمرو بن العاص الى الفرما : ١٨ هـ (٦٣٩ م) دخول الاسكندرية ومصر فى قبضة العرب . محرم سنة ٢١ هـ (٦٤١ م)
	٦٤١ — ٨٦٨	٢١ — ٢٥٤	مصر وهى ولاية اسلامية فى عهد الخلفاء الراشدين وبنى امية وصدر بنى العباس (٢٢٧ سنة)

مصـــــر	التاريخ هـ	التاريخ م	البلاد الأجنبية
(١) فى عهد الخلفاء الراشدين ولاية عمرو بن العاص — انشاء مدينة الفسطاط — تنظيم الادارة ورسم الخطة فى جباية الخراج — انشاء الأحواض والقناطر والجسور — كرى خليج أمير المؤمنين — اخضاع بلاد النوبة	٢١—٤١	٦٤١—٦٦١	
ولاية عبد الله بن أبى السرح — صد غارة للروم عن الاسكندرية — فتح برقة وافريقية وغزو بلاد النوبة — كسر الروم بحراً بالاسكندرية — تشدد فى الخراج فكرهه الناس وطردوه	٢٤—٣٥	٦٤٤—٦٥٥	خلافة عثمان — مواصلة الفتوح العربية : فتح بلاد التركستان وبرقة وطرابلس الغرب والنوبة وجزيرة قبرس
	٣٥—٤٠	٦٥٥—٦٦٠	خلافة على — وقوف الفتوح — اضطرام نار الفتن بسبب قتل عثمان والنزاع بين على ومعاوية بشأن الخلافة
(٢) فى عهد الدولة الأموية	٤١—١٣٢	٦٦١—٧٥٠	دولة بنى أمية ومقرها دمشق أهم خلفائها : معاوية (محاولة الاستيلاء على القسطنطينية وفتح بعض بلاد التركستان وافغانستان وشمالى الهند والجزائر ومراكش ورودس) — عبد الملك بن مروان — الوليد بن عبد الملك (وصول الفتوح الى سمرقند ونهر السند وتثبيت ملك العرب ببلاد البربر الى المحيط — فتح الاندلس — كثرة العمارات) — سليمان بن عبد الملك (ابتداء التقهقر — صد الجيوش الاسلامية فى موقعة تور)
عودة عمرو بن العاص الى ولاية مصر — مواصلة فتح افريقية والمغرب الأقصى	٣٨ — ٤٤	٦٥٨—٦٦٣	
ولاية عبد العزيز بن مروان (٢١ سنة) —	٦٦—٨٦	٦٨٥—٥٠٧	

مصر	التاريخ ه	التاريخ م	البلاد الأجنبية
حلوان قاعدة ثانية للديار المصرية			
ولاية عبد الله بن عبد الملك — نسخ دواوين مصر بالعربية بدل القبطية	٨٦—٩٠	٧٠٥—٧٠٩	
	١٣٢—٦٥٦	٧٥٠—١٢٥٨	الدولة العباسية أهم خلفائها : السفاح (مؤسس الدولة — اتخذ مدينة الانبار داراً للخلافة) — المنصور (أعظم خلفاء العباسيين — بنى بغداد واتخذها مقراً للخلافة — أول عصور وضع العلوم الاسلامية العربية) — الرشيد والمأمون (أزهى عصور الحضارة الاسلامية بالمشرق)
(٣) فى عهد الدولة العباسية	١٣٢—٢٥٤	٧٥٠—٨٦٨	
ولاية صالح وأبى عون من قبل السفاح — بناء مدينة العسكر — انتقال مصر الى يد العباسيين بدون صعوبة كبيرة			
كثرة الفتن والقلاقل فى مصر فى عهد العباسيين بقيام العرب تارة والقبط أخرى والاثنين أحياناً — أنزل عبيد الله بن الحبحاب قبيلة من عرب قيس بالحوف الشرقى ليساعدوا على انتشار الاسلام بمصر			
ابن ممدود أول وال من الاتراك	١٦٣	٧٧٩	
نزول طائفة من الاندلس بالاسكندرية وانضمامهم الى العرب الخارجين	١٩٩	٨١٥	
قدوم عبد الله بن طاهر واخراجهم من الاسكندرية	٢١١	٨٢٦	
خروج أهل الحوف والقبط خروجاً عاماً	٢١٦	٨٣١	
قدوم المأمون واخماد الثورة وابتداء الطور الحقيقى لانتشار الاسلام بمصر	٢١٧	٨٣٢	
عنبسة آخر وال عربى	٢٣٨—٢٤٢	٨٥٢—٨٥٦	
تنصيب أحمد بن طولون والياً على الفسطاط	٢٥٤	٨٦٨	
الدولة الطولونية — عصر هدو وسكينة	٢٥٤—٢٩٣	٨٦٨—٩٠٥	
تنصيب أحمد بن طولون والياً على جميع مصر — بناء مدينة	٢٥٧	٨٧٠	

مصر	التاريخ هـ	التاريخ م	البلاد الأجنبية
القطائع وجامع ابن طولون			
منع ارسال الخراج الى الموفق أخى الخليفة	٢٦٤	٨٧٨	
اخضاع معظم بلاد الشام	٢٦٤	٨٧٨	
حذف اسم الموفق من الخطبة	٢٦٩	٨٨٣	
وفاة ابن طولون	٢٧٠	٨٨٤	
تولية خمارويه (اكثر من الانفاق فى تشييد العمارات والبساتين)			
اغارة اميرى الموصل والأنبار على الشام	٢٧١	٨٨٥	
نودى بخمارويه حاكماً على الموصل والجزيرة			
	٢٧٨	٨٩١	وفاة الموفق وبعده الخليفة المعتمد (٢٧٩ هـ)
تحسن العلائق بين مصر وبغداد وتزوج خمارويه ابنته قطر الندى للخليفة المعتضد			
قتل خمارويه	٢٨٢	٨٩٦	
اضمحلال الدولة الطولونية			
انقراضها	٢٩٣	٩٠٥	
مصر ولاية عباسية مرة أخرى - عصر فوضى	٢٩٢ – ٣٢٤	٩٠٥ – ٩٢٥	
الدولة الاخشيدية (٣٤ سنة) ارجاع السكينة الى مصر	٣٢٤ – ٣٥١	٩٣٥ – ٩٦٩	
تولية الاخشيد والياً على مصر	٣٢٣	٩٣٥	
استقلاله بالملك	٣٢٨	٩٤٠	
قلده الخليفة حكم الحرمين	٣٣٢	٩٤٣	
وفاة الاخشيد	٣٣٤	٩٤٦	
تولى ابنه أبى القاسم أونوجور ملكا وجعل كافور قيماً عليه لصغر سنه	٣٣٥	٩٤٦	
وفاة أونوجور			
تولى كافور وتقليد الخليفة له ولاية مصر والشام والحجاز	٣٥٥	٩٦٥	
قدوم جوهر الصقلى وانتزاعه مصر من الدولة الاخشيدية	٣٥٨	٩٦٩	
	٢٨٠	٨٩٣	ذهاب أبى عبد الله الشيعى الى بلاد البربر
	٢٩٧	٩١٠	نودى بعبيد الله خليفة فاطميا بالمغرب
	٣٤١	٩٥٢	تولية المعز الخلافة
	٣٥٨	٩٦٩	استيلاء جوهر قائد المعز على مصر

مصر	التاريخ هـ	التاريخ م	البلاد الأجنبية
الدولة الفاطمية · مدة حكمها ٢٠٢ سنة ومقرها القاهرة	٣٥٨—٥٦٧	٩٦٩—١١٧١	
(١) المعز ٣٥٨ – ٣٦٥ هـ (٩٦٩ — ٩٧٥ م) بناء القاهرة — دانت له مكة والمدينة — تقدم البلاد على عهده — بناء الأزهر ٣٦٠هـ (٩٧٠م)			
(٢) العزيز — ٣٦٥ — ٣٨٦ هـ (٩٧٥ — ٩٩٦ م) البلاد فى هدو وتقدم — اقامة كثير من المبانى وحفر الترع وانشاء الجسور — بدأ جامع الحاكم			
(٣) الحاكم ٣٨٦ – ٤١١ هـ (٩٩٦ — ١٠٢١م) عصر اضطراب بسبب طيش الحاكم وتناقض أفعاله			
(٤) الظاهر ٤١١ — ٤٢٧ هـ (١٠٢١ — ١٠٣٦م) لم يقدر على اصلاح ما أفسده والده وأخذ خلفاء الفواطم فى الاضمحلال — تحول السلطة الى الوزراء — أقصى ما بلغت اليه أملاك الفواطم فى الشام			
(٥) المستنصر ٦٠ سنة من ٤٢٧ — ٤٨٧ هـ (١٠٣٦ — ١٠٩٤ م) — عهد تدهور سريع · كثرة المشاحنات بين الوزراء — خروج الولايات السورية وانقسامها الى عدة ولايات — وفرة الثروة بمصر			
عهد الوزير «اليازورى» · استقرت البلاد نحو ٨ سنوات	٤٤٢—٤٥٠	١٠٥٠—١٠٥٨	
استبداد الوزير ناصر الدولة — قحط عظيم مدة ٧ سنوات	٤٥٧—٤٦٥	١٠٦٥—١٠٧٢	
بدر الجمالى وبناء الثلاثة الأبواب العظام — رجوع الهدو والسكينة	٤٦٧—٤٨٧	١٠٧٤—١٠٩٤	
	٤٦٩	١٠٧٦	استيلاء الأتراك السلجوقيين على الشام
(٦) المستعلى ٤٨٧ – ٤٩٥ هـ (١٠٩٤ — ١١٠١ م)			
وزارة الأفضل	٤٨٧—٥١٥	١٠٩٤—١١٢١	
	٤٨٩	١٠٩٦	خروج الصليبيين من اوربا
	٤٩٠—٤٩١	١٠٩٧—١٠٩٨	استيلاؤهم على الرها وانطاكية
	٤٩١	١٠٩٩	استيلاؤهم على بيت المقدس
(٧) الآمر ٤٩٥ · ٥٢٤هـ (١١٠١ — ١١٣١م)			
	٥٢١	١١٢٧	تولى زنكى حاكما للموصل
(٨) الحافظ ٥٢٤ · ٥٤٤هـ (١١٣١ — ١١٤٩م)			

مصـــــــر	التاريخ هـ	التاريخ م	البلاد الأجنبية
أول وزير لقب نفسه بلقب « ملك »			
	٥٣٢	١١٣٧	مولد صلاح الدين الايوبي بمدينة تكريت
	٥٣٤	١١٣٩	استيلاء زنكى على بعلبك وتعيينه أيوباً حاكما عليها
	٥٣٩	١١٤٤	استيلاء زنكى على الرها
	٥٤١	١١٤٦	وفاة زنكى وتولى نور الدين حكم حلب
	٥٤٣	١١٤٨	فشل الحرب الصليبية الثانية أمام دمشق
(٩) الظافر - ٥٤٤-٥٤٩ هـ (١١٤٩-١١٥٤م)			
	٥٤٨	١١٥٣	سقوط عسقلان في يد الصليبيين
	٥٤٩	١١٥٤	استيلاء نور الدين على دمشق وتعيين شيركوه حاكما على حمص
(١٠) الفائز — ٥٤٩ — ٥٥٥ هـ (١١٥٤ — ١١٦٠ م) — وزارة الملك الصالح طلائع ابن رزيك			
(١١) العاضد - ٥٥٥ - ٥٦٧ هـ (١١٦٠-١١٧١م)			
النزاع بين ضرغام وشاور	٥٥٨	١١٦٣	
هزم «مرى» ضرغاماً ثم تحالفا	٥٥٨	١١٦٣	
دخول شيركوه مصر لأول مرة — قتل ضرغام	٥٥٩	١١٦٤	
دخوله ثانى مرة ودخول مرى أيضاً ثم جلاء الجيوش السورية ومعظم جيوش مرى	٥٦٣	١١٦٧	
رجوع مرى لغزو البلاد — أحراق شاور مدينة الفسطاط كي لا تأوى الصليبيين	٥٦٤	١١٦٨	
وصول شيركوه الى مصر لثالث مرة ورجوع مرى الى الشام — تعيين شيركوه وزيراً	٥٦٥	١١٦٩	
وفاة شيركوه وتعيين صلاح الدين وزيراً	٥٦٥	١١٦٩	
النداء للخليفة العباسى قبيل وفاة العاضد آخر خلفاء الفاطميين	٥٦٧	١١٧١	
الدولة الايوبية — مدة حكمها ٧٩ سنة ومقرها القاهرة	٥٦٧ — ٦٤٨	١١٧١-١٢٥٠	
(١) صلاح الدين مؤسس الدولة:			
تولى وزارة مصر	٥٦٥	١١٦٩	

مصر	التاريخ هـ	م	البلاد الأجنبية
خلع الخليفة الفاطمى والنداء للخليفة العباسى	٥٦٧	١١٧١	
(ا) تحصينه لمصر وتأييد ملكه فيها — بدء بناء سور حول القاهرة وضواحيها وانشاء قلعة الجبل — ارسال جيوش الى بلاد العرب وسواحل أفريقية والسودان			
وفاة نور الدين	٥٧٠	١١٧٤	
خلا لصلاح الدين الجو وعمل على بسط نفوذه على جميع الممالك الاسلامية			
(ب) توسيع نطاق دولته			
اخضاع الشام الاسلامية	٥٧١—٥٧٢	١١٧٥-١١٧٦	
تنظيم أملاكه ومواصلة تحصين القاهرة	٥٧٣—٥٧٨	١١٧٧-١١٨٢	
انشاء المدارس لنشر مذهب الامام الشافعى ومحو مذهب الشيعة من مصر			
ثم بسط نفوذه على معظم ممالك الاسلام ووحد كلمتهم	٥٨٢	١١٨٦	
(ج) صلاح الدين والصليبيون			
حروبه العظيمة بالشام : ٥ سنوات	٥٨٣—٥٨٨	١١٨٧-١١٩٢	
موقعة حطين الفاصلة وفتح عسقلان وبيت المقدس	٥٨٣	١١٨٧	
فتح انطاكية وجميع مدن الساحل شمالى صور	٥٨٤	١١٨٨	
سقوط عكا فى يد الصليبيين ومعهم ريكارد قلب الأسد ملك الانجليز	٥٨٧	١١٩١	
عقد صلح بالرملة بين صلاح الدين وريكارد قلب الاسد وبه صار المسلمون يملكون جميع الشام ما عدا ساحل ضيق بين صور ويافا	٥٨٨	١١٩٢	
وفاة صلاح الدين بدمشق	٥٨٩	١١٩٣	
(٢) الدولة الايوبية بعد صلاح الدين — تقسيم الدولة العظيمة الى عدة أقسام (أهمها مصر) — وقوع نزاع بين أولاد صلاح الدين			
العادل أخو صلاح الدين تولى على الملك بمهارته ودانت له معظم دولة صلاح الدين	٥٩٦	١٢٠٠	

مصــــــر	التاريخ هـ	التاريخ م	البلاد الأجنبية
	٥٩٣	١١٩٧	جاءت للصليبيين أمداد جديدة وأرادوا انتهاز فرصة انقسام الدولة بعد وفاة صلاح الدين للاستيلاء على بيت المقدس ولكن العادل عقد معهم صلحاً وتنازل لهم عن بعض الجهات
وقوع قحط ووباء عظيمين أضعفا البلاد	٥٩٧ — ٥٩٩	١٢٠١ ١٢٠٢	
العادل لم يفتر عن توحيد كلمة المسلمين			
بدا للصليبيين تحويل رحى القتال الى مصر وملكوا دمياط	٦١٥	١٢١٨	نهضة جديدة للصليبيين
الكامل (٦١٥ — ٦٣٥هـ : ١٢١٨ — ١٢٣٨ م)			
طرد الصليبيين من دمياط وأجلاهم عن مصر	٦١٨	١٢٢١	
الملك الصالح : ٦٣٧ — ٦٤٧ هـ (١٢٤٠ — ١٢٤٩ م)			
أكثر من شراء المماليك وأنزلهم بجزيرة الروضة			
رجوع بيت المقدس للمسلمين نهائياً	٦٤٢	١٢٤٤	
رجوع دمشق وعسقلان			
نزول الصليبيين دمياط واستيلاؤهم عليها	٦٤٧	١٢٤٩	
توران شاه : واصل قتالهم بعد وفاة والده — كسرهم			
كسرة شنيعة بالمنصورة وأسر ملكهم لويس التاسع	٦٤٨	١٢٥٠	
قتل المماليك توران شاه وانقراض الدولة الايوبية	٦٤٨	١٢٥٠	
المماليك بمصر — ٢٦٧ سنة	٦٤٨ — ٩٢٢	١٢٥٠-١٥١٧	
عصر كثير الفتن والثورات واشتد فيه الظلم فى الغالب —	٦٥٦	١٢٥٨	سقوط بغداد فى يد التتار
أنشئ فيه بالرغم من ذلك كثير من المساجد والآثار			
دولة المماليك البحرية — حكمها ١٣٢ سنة ومقرها بالقاهرة	٦٤٨ — ٧٨٤	١٢٥٠-١٣٨٢	
بيبرس : ٦٥٨ — ٦٧٦ هـ (١٢٦٠ — ١٢٧٧ م)			
قهر التتار وهو قائد قطز وطاردهم حتى أخرجهم من دمشق — قتل قطز واختير مكانه — المؤسس الحقيقى لدولتى المماليك			
حارب الصليبيين محاربة شديدة مدة ١٠ سنوات شتت شمل الصليبيين وهدم يافا وانطاكية (٦٦٧ هـ : ١٢٦٨ م)	٦٥٩ — ٦٧٠	١٢٦١-١٢٧١	
انتزع مملكة الروم السلجوقية من يد التتار ودان له أهلها	٦٧٦	١٢٧٧	

مصـــــــر	التاريخ هـ	التاريخ م	البلاد الأجنبية
من آثاره مسجد الظاهر بالحسينية			
قلاون : ٦٧٨ — ٦٨٩ هـ (١٢٧٩ — ١٢٩٠ م)			
تولى الملك بعد نزاع فبقى فى بيته أكثر من ١٠٠ سنة — هادن الصليبيين ١٠ سنوات			
هزم التتار فى موقعة فاصلة بحمص وكانوا يتأهبون للاغارة على مصر	٦٨٠	١٢٨٢	
حارب الصليبيين بالرغم من المهادنة			
استولى على طرابلس	٦٨٨	١٢٨٩	
ومن آثاره مستشفى قلاون وبجانبه مدرسته بالنحاسين			
الاشرف خليل — كان قاسياً سيء السيرة — استولى على عكا آخر مدينة حصينة بالشام بقيت بأيدى الصليبيين	٦٩١	١١٩٢	انتهاء الحروب الصليبية وانقراض دولة الصليبيين بالشام
الناصر : ٦٩٣ — ٧٤٢ هـ (١٢٩٣ — ١٣٤١ م)			
أزهى عصور الحضارة الاسلامية بمصر			
هزم التتار المماليك واستولوا على دمشق	٦٩٩	١٣٠٠	
لكنهم هزموا هزيمة شنيعة وصدوا لرابع مرة عن مصر	٧٠٢	١٣٠٣	
زادت فى عهد الناصر ثروة البلاد — اهتم بالشؤون الداخلية مثل الموازين والمقاييس الخ — وفى عهده بلغ فن المبانى والنقوش العربية أقصاه — أكثر الآثار العربية التى بدور تحف العالم من صنع هذا العصر — من آثاره قناطر المياه الموصلة بين النيل والقلعة			
السلطان حسن — من أولاد الناصر — شيد جامع السلطان حسن بجوار القلعة			
دولة المماليك الشراكسة أو البرجية — مدة حكمها ١٣٥ سنة ومقرها القاهرة — زادت الفتن عن عهد الدولة السالفة	٧٨٤—٩٢٢	١٣٨٢-١٥١٧	
برقوق : مؤسس دولة المماليك الشراكسة	٧٨٤—٨٠١	١٣٨٢—١٣٩٩	
	٧٩٥	١٢٩٣	استيلاء تيمورلنك على بغداد
	٧٩٦	١٣٩٤	خضوع الجزيرة بأسرها له
أرسل التتار كتاباً يطلبون من مصر التسليم فأبى برقوق	٨٠١	١٣٩٩	
وشرع فى اعداد جيش لمحاربتهم — وفاته	٨٠١	١٣٩٩	
ومن آثاره مدرسته بالنحاسين			
فرج : خرج لمحاربة التتار	٨٠٣	١٤٠١	

مصر	التاريخ هـ	التاريخ م	البلاد الأجنبية
ومن آثاره المدفن ذو القبتين بالجبانة الشرقية المعروف بجامع برقوق			
برسباى : ٨٢٥ — ٨٤١ هـ (١٤٢٢ — ١٤٣٨ م)			
تشدد فى سن الضرائب واحتكار التجارة			
استولى على جزيرة قبرس وأتى بملكها أسيراً الى مصر			
اهتمامه بضرائب التجارة الهندية			
	٨٥٧	١٤٥٣	استيلاء الترك العثمانيين على القسطنطينية
قايتباى (٨٧٣ — ٩٠٢ هـ : ١٤٦٨ — ١٤٩٦ م)			
أطول حكم فى ملوك هذه الدولة — زاد الضرائب لكثرة حروبه — أكبر شاغل له ازدياد قوة آل عثمان —			
نشبت حروب بينه وبين بايزيد انتهت بمهادنة الاثنين	٨٩٦	١٤٩١	
وباء شديد أعقبه قحط	٨٩٧	١٤٩٢	
ومن آثاره تربته فى الصحراء وتعرف بجامع قايتباى	٩٠٣	١٤٩٧	كشف فاسكو دى جاما طريق الهند
الغورى : ٩٠٦ — ٩٢٢ هـ : (١٥٠١ — ١٥١٦ م)			
وجد خزائن الحكومة خالية فتشدد فى جمع الخراج — قل وارد الحكومة من تجارة الهند — مشاحنات مع البرتقال			
	٩١٨	١٥١٢	تولى السلطان سليم الأول عرش آل عثمان
اتهم السلطان سليم الغورى بممالأة أعدائه ونوى الاستيلاء على مصر — خرج الغورى لمحاربته فالتقى الجيشان بمرج دابق شمالى حلب فقتل الغورى وهزم جيشه	٩٢٢	١٥١٦	
ملك السلطان سليم الشام بلا مقاومة وزحف على مصر			
انهزام طومان باى بالريدانية واستيلاء سليم على مصر	٩٢٣	١٥١٧	